

من أسرار
البيان القرآني



تأليف
الدكتور فاضل صالح السامرائي

دار الكتب

من أسرار
البيان القرآني

© حقوق الطبع محفوظة

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من المؤلف.

- الموضوع: علوم القرآن
- العنوان: من أسرار البيان القرآني
- تأليف: الدكتور فاضل صالح السامرائي

الطبعة الثانية

١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩ م

ISBN 978-614-415-197-6

ISBN 978-614-415-197-6

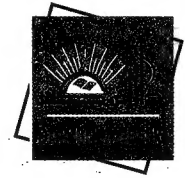


9 786144 151976

- الطباعة: مطابع يوسف يعضون - بيروت / التجليد: شركة فؤاد البعينو للتجليد - بيروت
- الورق: كرم / الطباعة: لوزان / التجليد: كرتونه
- القياس: 24x17 / عدد الصفحات: 368 / الوزن: 750 غ

بيروت - لبنان - ص.ب: 113/6318
برج أبي حنبل - شارع أبو شقرا
تلفاكس: +961 1 817857
+961 1 705701
جوال: +961 3 204459

دمشق - سورية - ص.ب: 311
حلبوني - جادة ابن سينا - بناء الجابي
تلفاكس: +963 11 2225877
+963 11 2228450



website: www.ibn-katheer.com / e-mail: info@ibn-katheer.com



/daribnkatheer



@daribnkatheer



daribnkatheer



daribnkatheer

من أسرار

البيان القلبي

تأليف

الدكتور فاضل صالح السامرائي

دار الكتب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



الحمد لله الذي علّم بالقلم ، علّم الإنسان ما لم يعلم ، والصلاة والسلام على إمام البلغاء وسيد الفصحاء سيدنا محمد وعلى آله الأطهار وصحابته الأبرار ومن تبعهم بإحسان .

وبعد :

فهذا الكتاب يبين طرفاً من أسرار البيان التي لا تنتهي في القرآن ولا ينقضي منها العجب ، وكلما أنعمت النظر وأعملت الفكر ازدادت يقيناً وبصيرة أن هذا القرآن لا يمكن أن يكون إلا تنزيلاً ممن خلق الأرض والسماوات العلى .

لقد درست في هذا الكتاب طرفاً من الأبنية القرآنية من مصادر وصفات ، وطرفاً من المفردات التي تبدو كأنها مترادفة ، فوجدت أن كل اختيار لبناء أو مفردة إنما اختير اختياراً مقصوداً ، ووضع وضعاً فنياً عجيباً .

ثم بحثت مواضع أخرى من توكيد ، وذكر وحذف ، وتقديم وتأخير ، وتشابه واختلاف ، ثم عرضت للفاصلة القرآنية .

وأتبع ذلك بتفسير آيات مختارة .

فكان كل تعبير أنظر فيه أو أقارنه بما يبدو أنه يشابهه يؤكد هذه الحقيقة ، وهي أن كل لفظة في هذا التعبير أو ذاك إنما اختيرت اختياراً مقصوداً ،

وأن من أوتي حظاً من البصر في اللغة وعلماً بقوانينها يتضح له هذا الأمر اتضحاً لا لبس فيه ولا غموض .

كنت وأنا ألقى المحاضرات على طلبة الدراسات العليا (الدكتوراه أو الماجستير) آتي بنص قرآني ثم أقول لهم : ماذا لو أبدلت هذه الكلمة بهذه الكلمة التي تبدو كأنها مرادفة لها؟ وماذا لو قدمت هذه الكلمة أو أخرتها عن مكانها؟ وماذا لو زدت هنا في التوكيد أو نقصت؟

ثم آتي بنصين يكادان يكونان متماثلين إلا في أمور يسيرة فأقول لهم : ماذا لو جعلت هذه الكلمة في النص الآخر وجئت بتلك إلى هنا ، ما الذي سيحدث؟ .

فيستكون وكأنهم يقولون : لا شيء في ذلك .

ثم نبدأ بتحليل النص ووضعه في سياقه واستدكار القواعد اللغوية ثم أقول لهم : الآن لنغير في النص .

فيصيحون جميعاً بلا استثناء : مستحيل يا أستاذ مستحيل ، إنها معادلة جبرية ، لا يمكن . . إنها رياضيات ، لا يمكن لا يمكن .

فأقول لهم : فمن قائل هذا الكلام؟

فيقولون بتأثر بالغ : إنه الله ، إنه الله .

والآن أعود إلى مواضيع هذا الكتاب فأقول :

لقد بذلت جهدي في أن لا أكون متعسفاً فيما عرضت له .

ولا أدعي أنني لم أقع في شيء من ذلك ، بل ربما وقعت ، ولكني لم أتعمد ذلك ، وقد حاولت جهدي أن أنأى عن التعصب للنص وتحمله ما لا يحتمل .

وكنتم مقتنعاً بما قلته وقررتة .



كما حاولت ألا أخرج على أصول اللغة وقواعدها المعروفة .
وعلى أية حال فهي محاولة أخرى في هذا المجال تضاف إلى أخواتها
من المحاولات السابقة .

وأرجو من القارئ العزيز أن يعذرني فيما وقعت فيه من هنات
وأغلاط ، أو يحسب أنني وقعت فيه ، فذلك مبلغنا من العلم .
كما أرجو ألا يضنّ عليّ بدعوة يناله منها أجر من يدعو لأخيه بظهر
الغيب .

نسأله سبحانه أن يجعلنا هداة مهديين غير ضالّين ولا مضلّين .
وأن يرزقنا الإخلاص والساداد والإحسان في القول والعمل وفي كل
ما ينبغي أن يكون فيه ذلك .

وألا يحرمنا أجر المجتهدين - وإن لم نكن منهم - فهو أحسن مأمول
وأكرم مسؤول إنه الله رب العالمين .

فحسبي ربي أن أفوز بنظرة وحسبي ربي أن تكوننّ راضيا
فيا ليت شربي غير ودك غصة و«يا ليت شربي من ودادك صافيا»

فاضل السامرائي



في الأبنية القرآنية

الملاحظ في الأبنية القرآنية أنها استعملت على وفق أمرين :
الأمر الأول أنها استعملت على وفق الدلالات المشهورة المعروفة من معاني الأبنية من المصادر وصيغ المبالغة والجموع وغيرها مما هو مقرر في كتب اللغة .

والأمر الآخر أنه خص أبنية بدلالات خاصة كالأعين والعيون ، والقعود والقاعدين ، والصَّوم والصيام ، وغيرها . إذ القرآن لا يستعمل بناءين مختلفين من مادة لغوية واحدة بدلالة متماثلة ، بل لا بد أن يخص بناء أو لفظاً باستعمال معين أو دلالة خاصة .

وقد ذكرنا طرفاً من هذا التخصيص في كتبنا (معاني الأبنية في العربية) و(التعبير القرآني) و(بلاغة الكلمة في التعبير القرآني) . وسنضرب أمثلة لطرف من الأبنية واستعمالاتها ودلالاتها .

١- في المصادر وأشباهها:

من المعلوم أن مصادر الأفعال غير الثلاثية لها قواعد في الصوغ وهي تدل على معان مرتبطة بمعاني أفعالها كالـ (تفعيل) مصدر (فعل) ، و(إفعال) مصدر (أفعل) وغيرها . فإن (فعل) مثلاً له معانٍ كالتكثير والمبالغة والنسبة إلى أصل الفعل والصورورة وغيرها ، فيكون لمصدره هذه الدلالات . وإن (أفعل) له معانٍ كالتعدي والصورورة والسلب

والإزالة والتعريض وغيرها فيكون لمصدره هذه الدلالات .

أما مصادر الأفعال الثلاثية فلها ضوابط ، وهي لا تطرد أطراد مصادر الأفعال غير الثلاثية . وقد ذكر الصرفيون دلالات لقسم من أبنيتها كالفعل والفُعول والفِعال والفِعالَة ، غير أنه في حالات كثيرة لا يفرقون بين أبنية هذه المصادر من حيث الدلالة . وقد ذكرنا ذلك بتفصيل ما في كتابنا (معاني الأبنية في العربية) ، غير أن القرآن يستعمل أحياناً مصادر مختلفة لفعل واحد ، ذكر علماء اللغة دلالة بعضها ، وأحياناً لم يذكروا سبب المجيء بهذا المصدر دون ذلك ، وما دلالة كل منها كالفسق والفسوق ، والمعصية والعصيان ، والخسر والخسار والخسران ، وغيرها .

بل أقول على وجه الدقة : لم أر من أشار إلى ذلك ، وإن كان من المحتمل جداً أن باحثين معاصرين أو علماء قدامى ممن درسوا القرآن ذكروا هذا الأمر ، غير أنني لم أطلع عليه .

وقد حاولت أن أجد تعليلاً لقسم من هذه المصادر وأشباهها ، وأسأل الله ألا أحرم أجر المجتهدين على أية حال .

وإليك طرفاً من ذلك ، فليس قصدي ههنا الاستقصاء ، وإنما هو التمثيل .

الإثم والأثام:

الإثم في اللغة معروف ، وهو الذنب . واستعمله القرآن لذلك .

أما الأثام : بفتح الهمزة ، فهو الإثم ، وهو أيضاً جزاء الإثم وعقوبته .

وقد استعمله القرآن بمعنى جزاء الإثم ، ولم يرد إلا في موطن واحد وهو قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ (١٦) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ

يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَحْلُدُ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ ﴿[الفرقان: ٦٨ - ٧٠].
فهو هنا بمعنى مجازاة الإثم وعقوبته^(١).

الثواب والمثوبة:

الثواب والمثوبة كلاهما بمعنى الجزاء ، غير أنه لم يستعمل الثواب إلا في الخير ، وبذا يختلف عن الجزاء ، فإنه استعمل الجزاء في الخير والشر . قال تعالى : ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ﴾ [الرحمن: ٦٠] ، وقال : ﴿ ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ ﴾ [فصلت: ٢٨].

أما الثواب فلم يستعمله إلا في الخير . قال تعالى : ﴿ فَكَانَتْ لَهُمْ ثَوَابٌ أَلَدُنِيَا وَحُسْنُ ثَوَابٍ الْآخِرَةِ ﴾ [آل عمران: ١٤٨] ، وقال : ﴿ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴾ [آل عمران: ١٩٥] ، وقال : ﴿ نِعَمَ الثَّوَابِ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ [الكهف: ٣١].

وأما المثوبة فقد استعملها جزاء للخير والشر فقال : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ ﴾ [البقرة: ١٠٣] ، وقال : ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ ﴾ [المائدة: ٦٠].

الحُكْم والحكمة:

الحُكْم يأتي بمعنى القضاء ، ومنه (الحكم بين المتخاصمين).

ويأتي بمعنى الفقه والعلم . وقد جاء في القرآن لهذين المعنيين .

قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ كُمُ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ﴾ [المتحنة: ١٠] ، وقال : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ ﴾ [النمل: ٧٨]. وهذا بمعنى القضاء .

وقال تعالى : ﴿ يَبْحِثُ خِذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًا ﴾ [مريم: ١٢] ، وقال : ﴿ وَلَوْ طَاءَ أَلَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ [الأنبياء: ٧٤].

(١) انظر لسان العرب (أثم).

وهذا بمعنى الفقه والعلم .

وأما الحكمة فهي توفيق العلم بالعمل ووضع الشيء في محله . جاء في (لسان العرب): «الحكمة عبارة عن معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم»^(١) .

قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥] ، وقال: ﴿وَأَذْكُرَنَّ مَا يَتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ [الأحزاب: ٣٤] .

وقد يؤتى بالحكم محتملاً لمعني القضاء والحكمة ، ولا يمنع أن يكون المعنيان مرادين معاً ، وهو ما يسمى بالتوسع في المعنى ، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٤] .

فهذا يحتمل معني القضاء والحكمة ، أي فاصبر لقضاء ربك ، فإن ذلك لحكمة أرادها ، والمعنى: فاصبر لقضائه وحكمته .

ومنه قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَهَا سُلَيْمَنَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَاهُمْ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٩] فقد آتاهما القضاء والحكمة .

وقد ذكر أن الحكمة تأتي عن طريقين: التعليم ، وإيتاء الله إياها لعبده من عباده .

أما الحكم فقد ذكر أنه مما يؤتى ولم يذكر أنه مما يعلم . قال تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: ١٢٩] [آل عمران: ٤٨ ، ١٦٤] [الجمعة: ٢] .

(١) لسان العرب (حكم) .



وقال: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: ١٥١] ، وقال: ﴿وَإِذْ عَلَّمْنَاكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [المائدة: ١١٠].

وقال: ﴿وَأَتَيْنَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

وقال: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

وقال: ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٠].

فذكر أن الحكمة تؤتى وتعلم.

وسمى القرآن حكمة. قال تعالى: ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾ [الإسراء: ٣٩].

وعطف الحكمة على الكتاب ، وذكر أنه سبحانه أنزلهما على رسوله فقال: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [النساء: ١١٣].

وقال: ﴿وَأَذْكُرْتَ مَا يُسْتَلَىٰ فِي يُثُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ [الأحزاب: ٣٤].

فقد ذكر أن الحكمة مما يتلى. والذي يتلى هو القرآن وليس شيئاً آخر.

وسماه حكماً أيضاً ، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا وَعَرَبِيًّا﴾ [الرعد: ٣٧].

ولم يذكر أنه علّم أحداً الحكم ، وإنما يذكر أنه آتاه الحكم أو وهب له ذلك.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [يوسف: ٢٢].

وقال على لسان سيدنا موسى: ﴿فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا﴾ [الشعراء: ٢١].

فالحكم أوسع دلالة من حيث هو يجمع بين معنيين : القضاء والفقه .

والحكمة أوسع من حيث إنها تعلم وتؤتى .

فهي مما يحتاج إلى التلبث والتعلم فزاد في بنائها لذلك ، ولأنها مما يتعلم ويؤتى ، والله أعلم .

الحياة والمحيا ، والموت والممات :

استعمل القرآن (الحياة) عامة لجميع أنواع الحياة سواء كانت حياة الناس أم غيرهم . واستعملها نكرة ومعرفة بأل وبالإضافة ، قال تعالى : ﴿ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوةً وَلَا نُشُورًا ﴾ [الفرقان : ٣] ، وقال : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ ﴾ [الروم : ٧] ، وقال : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ ﴾ [يونس : ٢٤] ، وقال : ﴿ إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاةُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا ﴾ [المؤمنون ٣٧] .

أما (المحيا) فاستعمله خاصاً بحياة الناس ، ولم يستعمله إلا مضافاً إلى ضميرهم ومقابلاً للممات ، قال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ﴾ [الجاثية ٢١] ، وقال : ﴿ قُلْ إِن صَّلَاتِي وَنُكْحِي وَنَحْيَا وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام : ١٦٢] .

ونحوه الموت والممات ، فإنه استعمل (الموت) عامّاً للبشر وغيرهم ، واستعمله منكرًا ومعرفاً بأل ، وبالإضافة مقابلاً للحياة ، ومفرداً غير مقابل لها ، قال تعالى : ﴿ فَأَمْسِكُوهُمْ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ ﴾ [النساء : ١٥] .



وقال: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

وقال: ﴿مَا دَلَّكُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةٌ الْأَرْضِ﴾ [سبأ: ١٤]، وقال: ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٣].

وقال: ﴿فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة: ١٦٤] فاستعمله للأرض.

أما (الممات) فقد استعمله خاصاً بالبشر ولم يستعمله منكرًا، ولم يستعمله إلا مقابلًا للحياة أو للمحيا، ولم يرد مفرداً من دون مقابلة بإحداهما.

قال تعالى: ﴿إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ﴾ [الإسراء: ٧٥].

وقال: ﴿سَوَاءٌ مَخِيْهُمُ وَمَمَاتُهُمْ﴾ [الجنات: ٢١]، وقال: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢].

الخسر والخسار والخسران:

الخُسْر: استعمل القرآن (الخسر) لعموم الخسارة سواء كانت قليلة أم كثيرة، فهو لمطلق الخسارة. قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر]. فقد ذكر أن الإنسان واقع في الخسارة ولم يستثن إلا من اتصف بأربع صفات: الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر. فمن نقص في صفة أصابه الخسر على قدر ذلك. فمن آمن وعمل صالحاً ولم يتواص بالحق ولم يتواص بالصبر كان له نصيب من هذه الخسارة.

والخسارة الكبرى لمن فقد هذه الصفات جميعاً، وعلى هذا قلما ينجو إنسان من الخسر، وهو في الغالب له نصيب من ذلك.

وقال: ﴿وَكَايْنٍ مِّن قَرِيَةٍ عَنَّتْ عَن أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا ثُكْرًا﴾ [٨ - ٩] [الطلاق: ٨ - ٩] وهذه الخسارة كبيرة.

فاتضح أن (الخسر) لمطلق الخسارة.

الخسار: وأما (الخسار) فاستعمله للزيادة في الخسارة. فإذا كان المرء خاسراً وازداد خسراً على خسارته فهذه الزيادة سماها القرآن خساراً.

فما زاد من الخسران فوق خسارته سماه القرآن خساراً. ولم يستعمل القرآن الخسار في غير هذا. قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢] فالظالم خاسر، فإذا نزل شيء من القرآن زادهم عناداً وظلماً فزادت خسارتهم.

وقال: ﴿فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ [فاطر: ٣٩].

فالكافر خاسر، فمن زاد كفره زاد خساراً.

وقال: ﴿وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدَّهُ مَالُهُمْ وَلَدَهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ [نوح: ٢١].

فلم يستعمل الخسار إلا مع الزيادة في الخسران. وانظر كيف استعمل لفظ الزيادة مع الخسار ولم يستعمل هذا اللفظ مع غيره من ألفاظ الخسران.

الخسران: أما (الخسران) فاستعمله لأكبر الخسران وأعظمه ولم يستعمله للخسار القليل. قال تعالى: ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الحج: ١١] وهل هناك أكبر من خسران الدنيا والآخرة؟.

وقال: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥].

وانظر عظم هذه الخسارة ، فقد خسر نفسه وأهله ، وهو أعظم من أي خسارة .

وقال : ﴿ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴾ [النساء : ١١٩ - ١٢١] .

فأنت ترى أنه استعمل الخسران لأعظم الخسار وأفدحه .

وبذا يتضح أن الخسر استعمله لمطلق الخسار سواء كان قليلاً أم كثيراً .

والخسار للزيادة في الخسارة .

وأما الخسران فلأعظم الخسار وأفدحه . وكان زيادة المبنى دليل على زيادة المعنى .

فالخسار زاد على (الخسر) بالالف ، فاستعمل للزيادة في الخسار .

و(الخسران) زاد عليه بالالف والنون ، فكان لأعظم الخسارة وأبلغها .

الرضوان والمرضاة:

الرضوان هو أكبر الرضا وأعظمه ، ولذلك اختص في القرآن الكريم برضاء الله ولم يستعمله مع غيره . قال تعالى : ﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [التوبة ٧٢] ، وقال : ﴿ أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾ [آل عمران : ١٦٢] ، وقال : ﴿ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ ﴾ [المائدة : ١٦] .

وقد ورد هذا المصدر (١٣) ثلاث عشرة مرة في القرآن الكريم كلها في رضوانه سبحانه . جاء في (المفردات في غريب القرآن) : «الرضوان الرضا الكثير ، ولما كان أعظم الرضا رضا الله تعالى خصّ لفظ الرضوان

في القرآن بما كان من الله تعالى ، قال عز وجل : ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ ﴾ [الحديد: ٢٧] ، وقال تعالى : ﴿ يَتَّبِعُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ﴾ [الحشر: ٨] ، وقال : ﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ ﴾ [التوبة: ٢١] ^(١).

وأما (المرضاة) فهي عامة في مرضاة الله وغيره . قال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [البقرة: ٢٠٧] ، وقال : ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ١١٤] ، وقال : ﴿ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْلَغِي مَرْضَاتِ أَزْوَاجِكَ ﴾ [التحريم: ١].

ثم من ناحية أخرى أنه أطلق الرضوان في ابتغاء الرضا وغيره ، قال تعالى : ﴿ أَفَمَن اتَّبَعَ رِضْوَانِ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١٦٢] وهذا في اتباع الرضا .

وقال : ﴿ مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ ﴾ [الحديد: ٢٧].

وهذا في ابتغاء الرضوان .

وأما (المرضاة) فلم يستعملها إلا في ابتغاء الرضا ، ولم ترد في غير ذلك .

قال تعالى : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٦٥] ، وقال : ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ١١٤].

ففي كل من اللفظتين - الرضوان والمرضاة - خصوص من ناحية ، وعموم من ناحية أخرى .

(١) المفردات في غريب القرآن (رضي) ٢٠٣ .

فالرضوان خاص بالله ، عام في الابتغاء وغيره .
والمرضاة عامة في الله وغيره ، خاصة بالابتغاء .

الشكر والشكور:

ورد مصدر الفعل (شكر) في القرآن الكريم بصورتين وهما: الشُّكْر والشُّكُور.

وقد ورد (الشكر) مرة واحدة وهو قوله تعالى: ﴿ أَعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا ﴾ [سبأ: ١٣] .

وورد (الشكور) مرتين وهما قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا نُنْطِئُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴾ [الإنسان: ٩] ، وقوله: ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنۢ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ [الفرقان: ٦٢] .

وقد خص القرآن (الشكر) بالعمل فقال: ﴿ أَعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا ﴾ [سبأ: ١٣] . وهو إما أن يكون مفعولاً لأجله ، أي: اعملوا لأجل الشكر لله ، أو مفعولاً به للفعل ، أي: اعملوا الشكر لله . فإن الشكر قد يكون بالعمل وقد يكون باللسان ، وهنا خصه بالعمل سواء كان مفعولاً لأجله أم مفعولاً به .

واستعمل (الشكور) لمعنيين: الشكر بالعمل ، والشكر بالقول .

ففي معنى الشكر باللسان قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا نُنْطِئُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴾ [الإنسان: ٩] أي: لا نريد منكم جزاء على عملنا ولا شكراً باللسان .

وفيما يحتمل الشكر باللسان والعمل قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنۢ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ [الفرقان: ٦٢] وهو هنا يحتمل الشكر باللسان والعمل .

وعلى أية حال فإنه خصَّ (الشكر) بالعمل ، وجعل الشكور للقول والعمل .

فكأن زيادة البناء دلت على زيادة المعنى ، وكأنه قابل بهما الكفر والكفور . فإن (الكفر) أكثر ما يستعمل في الدين ، وأما (الكفور) فقد استعمله القرآن لمعنيين : لجحود النعمة وللکفر في الدين^(١) .

فلما كان (الكفر) استعمله القرآن لمعنى واحد قابل به الشكر - وهو على وزنه - فاستعمله لمعنى واحد وهو الشكر بالعمل .

ولما كان (الكفور) استعمله القرآن لمعنيين قابل به الشكور - وهو على وزنه - فاستعمله لمعنيين : الشكر باللسان والشكر بالعمل . والله أعلم .

العَدُو - العدوان - العداوة:

وردت هذه المصادر للفعل (عدا) ، قال تعالى : ﴿ فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا ﴾ [يونس : ٩٠] ، وقال : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْإِلِّ وَالنَّفْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ [المائدة : ٢] ، وقال : ﴿ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ ﴾ [المائدة : ١٤] .

وأصل معنى الفعل (عدا) هو التجاوز على الآخرين .

إن العدو أكثر ما يستعمل في المشي والحركة والأمور العلاجية ، قال تعالى : ﴿ فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا ﴾ [يونس : ٩٠] وهذا مشي وحركة .

وقال : ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدُوًّا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام : ١٠٨] .

(١) انظر مفردات الراغب (كفر) .

وأما العداوة فهي أمر قلبي ، قال تعالى : ﴿ وَالْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاةَ وَالْبَعْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ ﴾ [المائدة: ٦٤] ، وقال : ﴿ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت: ٣٤] .

وأما العدوان فمعناه الظلم والإخلال بالمعاملة ، فقولك : (لا عدوان عليّ) يعني (لا سبيل عليّ) ، قال تعالى : ﴿ قَالَ تَعَالَى : ﴿ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجْلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَتَ عَلَيَّ ﴾ [القصص: ٢٨] أي فلا سبيل عليّ . وقال : ﴿ وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسْرِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ [المائدة: ٦٢] . وقال : ﴿ يَتَأَيَّهَا الَّذِيكَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَلْنَجُوا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ ﴾ [المجادلة: ٩] .

وكثيراً ما يقترن الإثم بالعدوان ، والبغضاء بالعداوة .

والفرق بين الإثم والعدوان أن العدوان إنما يتعلق بالغير ، وأما الإثم فهو عام ، فقد يكون تعدياً على حقوق الغير وقد لا يكون ، وإنما هو عموم الذنب سواء كان يتعلق بالآخرين أم لا . قال تعالى : ﴿ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٨] ، وقال : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ أَحْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب: ٥٨] وهذا يتعلق بالآخرين .

وقال : ﴿ فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ [البقرة: ١٧٣] .

وقال : ﴿ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ [الحجرات: ١٢] .

وقال : ﴿ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى ﴾ [البقرة: ٢٠٣] وهذا مما لا يتعلق بالغير .

جاء في (المفردات في غريب القرآن): «العدو التجاوز ومنافاة الالتئام ، فتارة يعتبر بالقلب فيقال له العداوة والمعاداة ، وتارة بالمشي

فيقال له العَدُو ، وتارة في الإخلال بالعدالة في المعاملة فيقال له العدوان والعدو^(١) .

وجاء في (لسان العرب): «وقوله تعالى: ﴿فَلَا عُدُونَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣] أي فلا سبيل ، وكذلك قوله ﴿فَلَا عُدُونَ عَلَى﴾ [القصص: ٢٨] أي فلا سبيل عليّ . . . وعدا عَدَوْاً: ظلم وجار . . .

والعدوان: الظلم ، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدُونِ﴾ [المائدة: ٢] يقول: لا تعاونوا على المعصية والظلم . . . وعدا بنو فلان على بني فلان ، أي ظلموهم . . .

وعدا الأمر يعدوه وتعداه كلاهما: جاوزه . . .

والعداوة اسم عام من العَدُو ، يقال: عدوّ بين العداوة^(٢) .

العصيان والمعصية:

ورد للفعل (عصى) هذان المصدران في القرآن الكريم .

ف (العصيان) ورد مرة واحدة وهو قوله: ﴿وَكَرِهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ [الحجرات: ٧] .

وأما (المعصية) فقد وردت مرتين وهما قوله: ﴿وَيَنْتَجِبُونَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدُونِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ﴾ [المجادلة: ٨] ، وقوله: ﴿إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَنَجَّوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدُونِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ﴾ [المجادلة: ٩] .

وقد خص (المعصية) بمعصية الرسول ، وأما (العصيان) فقد استعمله عاماً كما هو ظاهر .

(١) المفردات في غريب القرآن (عدو) .

(٢) لسان العرب (عدو) .

الغفران والمغفرة:

ورد هذان المصدران للفعل (غفر).

فالغفران ورد مرة واحدة وهو في طلب المغفرة من الله ، أي في الدعاء ، قال تعالى : ﴿ وَكَأَلُوا سَمِعَنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وأما المغفرة فقد وردت ثمانياً وعشرين مرة ، وقد استعملت عامة ، قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ﴾ [البقرة: ٢٢١] ، وقال : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

فالغفران اختلف عن المغفرة في الاستعمال القرآني في أمرين :

الأول: هو في طلب المغفرة ، أي في الدعاء ، ولم تستعمل المغفرة في الدعاء .

والأمر الآخر: أنه خاص بالله ، أما المغفرة فهي عامة سواء كانت من الله أم من غيره ، قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا ﴾ [البقرة: ٢٦٨] ، وقال : ﴿ لِمَغْفِرَةٍ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٍ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [آل عمران: ١٥٧] فهذه المغفرة من الله .

وقال : ﴿ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى ﴾ [البقرة: ٢٦٣] وهذه المغفرة من المنفق ؛ لأن المسلم قد يغفر لأخيه زلته ، وليست المغفرة خاصة بالله تعالى . قال تعالى : ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ ﴾ [الجاثية: ١٤] ، وقال : ﴿ وَإِذَا مَا عَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ [الشورى: ٣٧].

لكن الله هو أهل التقوى وأهل المغفرة .

فاستعمل المغفرة عامة والغفران خاصًا .

الفسق والفسوق:

ورد هذان المصدران للفعل (فسق) .

أما (الفسق) فقد ورد في سياق الأطعمة وبخاصة الذبائح ، قال تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْنَقُوا بِالْأَزْلَمِ ذَلِكَكُمْ فُسْقٌ ﴾ [المائدة : ٣] .

وقال : ﴿ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ﴾ [الأنعام : ١٤٥] .

وقال : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾ [الأنعام :

[١٢١]

وأما الفسوق فقد ورد للخروج عن طاعة الله عامة . قال تعالى : ﴿ فَلَا رَفْعَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ﴾ [البقرة : ١٩٧] .

وقال : ﴿ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ ﴾ [البقرة : ٢٨٢] .

وقال : ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ﴾ [الحجرات : ٧] .

وقال : ﴿ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ﴾ [الحجرات : ١١] .

فاستعمل الفسوق لما هو أعم ، وكأنه لما زاد في المعنى زاد في البناء والله أعلم .



الإقام والإقامة:

استعمل القرآن (الإقام) خاصاً بإقام الصلاة. قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ﴾ [الأنبياء: ٧٣] ، وقال: ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيمُهُمْ تِجَارَةً وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ﴾ [النور: ٣٧].

أما (الإقامة) فقد استعملها لما يقابل الظعن والسفر ، قال تعالى: ﴿تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ [النحل: ٨٠].

إن الإقام والإقامة واحد ولهما دلالتان:

الأولى: توفية الشيء حقه.

والأخرى: البقاء في المكان والثبات فيه.

غير أنه خص الإقام بالمعنى الأول فاستعمله لإقامة الصلاة أي توفيتها حقها ، وخص الإقامة بالبقاء في المكان.

وأصل المصدر (الإقامة) وحذفت التاء تخفيفاً، فكأنه لما كان المكث في المكان والبقاء فيه يستدعي وقتاً أطول من إقامة الصلاة زاد في بناءه.

فزاد في بناء ما يقتضي المكث الطويل وحذف ما يقتضي المكث الذي هو أقل ، إلا أنه جاء في (التهذيب): «أقامت إقامة ، فإذا أضفت حذفت الهاء كقوله تعالى: ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ﴾ [الأنبياء: ٧٣]»^(١).

ويردّه قوله تعالى: ﴿تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ فإن الإقامة مضافة ولم تحذف تاؤها ، ونحو قولنا: (أردت إقامة شهر) والله أعلم.

(١) لسان العرب (قوم).

الكِبَر - الكِبَر - الكبرياء:

(الكِبَر) بفتح الباء، نقيض الصَّغَر، وخصه القرآن بالكبر في السن، قال تعالى: ﴿وَكَانَتْ أَمْرًا قِيَّامًا وَقَدْ بَلَغَتْ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم: ٨]. وقال: ﴿إِنَّمَا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَمْرًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

أما (الكِبَر) بكسر الكاف وسكون الباء فللأمر المعنوية، قال تعالى: ﴿إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبَرٌ مَّا هُمْ بِيَبْلُغِيهِ﴾ [غافر: ٥٦]، وقال في حديث الإفك: ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبَرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١١]. ففي الآية الأولى ورد الكبر بمعنى التكبر.

وفي الآية الثانية ورد في إشاعة الإفك، وكلاهما أمر معنوي. وأما (الكبرياء) فمعناه العظمة والملك^(١)، وهي تدل على السعة والشمول.

قال تعالى: ﴿وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الجاثية: ٣٧]. وقال على لسان فرعون وملئه لموسى عليه السلام: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِنَا عَزَمًا وَجَدْنَا عَلَىٰ آبَاءِنَا وَتَكُونُ لَكُمُ الْكِبَرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس: ٧٨]. فالكبرياء هنا عامة شاملة (الكبرياء في الأرض) وبذلك تكون الكبرياء أوسع من الكِبَر والكِبَر.

والكبرياء مختصة بالله تعالى، جاء في (المفردات في غريب القرآن): «الكبرياء الترفع عن الانقياد وذلك لا يستحقه غير الله فقال: ﴿وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾»^(٢).

(١) لسان العرب (كبر).

(٢) المفردات في غريب القرآن (كبر).

٢- أبنية الصفات:

استعمل القرآن الصفات من اسم الفاعل واسم المفعول وصيغ المبالغة والصفة المشبهة واسم التفضيل على ما هو معلوم من قواعد اللغة ، من أن المبالغة تفيد التكثير ، وأن الصفة المشبهة بحسب أوزانها ، فمنها ما يفيد الخلو والامتلاء والحدوث ، ومنها ما يدل على الصفات والنعوت الظاهرة أو الباطنة ، ومنها ما يدل على الثبوت ونحو ذلك . غير أن القرآن يخص قسماً من الأبنية باستعمال أو بدلالة معينة وإن كان الاستعمال لا يخرج عن المعنى العام من كونه للمبالغة أو غيره .

ونريد أولاً أن نذكر خطوطاً تعبيرية في القرآن قبل أن نشرع بذكر أمثلة من الصفات فنقول :

١ - إنه لم ترد صيغة (فاعل) مع العموم المطلق ، أعني قوله (كل شيء) ، وإنما يأتي بصيغة المبالغة (فعل) أو جمع التعظيم لفاعل ، وقد جاء ذلك مرة واحدة وهو قوله : ﴿ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨١] فلم يرد نحو (على كل شيء قادر) ولا (بكل شيء عالم) إنما ورد نحو ﴿ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ و﴿ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ وذلك لأن (كل شيء) يقتضي التكثير والمبالغة ، فلا تناسب صيغة (فاعل) التي لا تدل على ذلك .

وأما قوله : ﴿ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ ﴾ فإنه جمع للتعظيم ، والتعظيم مناسب للعموم .

قد يجيء اسم الفاعل لغير الثلاثي مع العموم المطلق كقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِينًا ﴾ [النساء : ٨٥] و﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْدِرًا ﴾ [الكهف : ٤٥] وذلك لأنه ليس لغير الثلاثي صيغ مبالغة إلا ما كان فعله يدل على المبالغة والتكثير نحو فَعَّلَ وافتعل وغيرهما ، فاسم الفاعل منهما يدل على المبالغة والتكثير نحو مقتدر ومكذب ونحوهما .

٢ - لم يأت مع العموم المطلق (كل شيء) من صيغ المبالغة غير صيغة (فعل) فلم يأت نحو (بكل شيء علام) أو غيرهما من صيغ المبالغة ، وإنما خص ذلك بصيغة (فعل) نحو قدير وعليم وشهيد وحسيب ووكيل وحفيظ ورقيب وبصير .

٣ - قد يخص وصفاً بتعبير معين أو بحالة معينة دون أخواته مما اشتق من مادة لغوية واحدة ، فهو مثلاً يستعمل (علام) مع الغيوب ، ولم يستعمله مع شيء آخر ، بخلاف (عليم) .

واستعمل (ظلام) مع (العييد) خاصة ولم ترد مطلقة . وقد ورد هذا الوصف في خمسة مواطن من القرآن الكريم كلها في نفي ظلم الله للعييد وذلك نحو قوله : ﴿ لَيْسَ بِظُلَامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [آل عمران : ١٨٢] وكلها مجرورة بالباء الزائدة المؤكدة .

وخص (ظلم) بأنه وصف للإنسان فقال : ﴿ إِنَّكَ الْإِنْسَنَ ظَلُمٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم : ٣٤] ، وقال : ﴿ وَحَمَلَهَا الْإِنْسَنُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب : ٧٢] .

واستعمل (سماع) وصفاً خاصاً بالإنسان ولم يستعمله لغيره ، كما استعمله في الذم فقط مثل ﴿ سَمْعُونَ لِّلْكَذِبِ سَمْعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخِرِينَ لَمْ يَأْتُواكَ ﴾ [المائدة : ٤١] ﴿ وَفِيكُمْ سَمْعُونَ لَهُمْ ﴾ [التوبة : ٤٧] .

بخلاف (سميع) فإنها استعملت لله واستعملت للإنسان . وفي استعمالها للإنسان استعمالها للمدح نحو ﴿ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ [الإنسان : ٢] ﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْرَ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ﴾ [هود : ٢٤] .

ووردت صيغة (تواب) بالإنفراد خاصة بالله تعالى وذلك نحو قوله ﴿ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة : ٣٧] ، ﴿ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة : ١٦٠] .

أما جمع هذه الصفة فقد وردت للإنسان وهو قوله ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

٤ - قد يستعمل اسمين من أسمائه الحسنى مقترنين ، فهو مثلاً يقرن اسمه الرحيم بالغفور كثيراً فيقول (غفور رحيم) ولم يقترن اسمه (الرحيم) بـ (الغفار) فلم يقل مرة (الغفار الرحيم) أو (الرحيم الغفار).

وقرن اسمه (الغفار) بالعزیز ولم يقرنه باسم آخر ، أو يأتي به مفرداً غير مقترن باسم آخر ، قال تعالى: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَرُ﴾ [ص: ٦٦] ، وقال: ﴿أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَرُ﴾ [الزمر: ٥] ، وقال: ﴿وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَرِ﴾ [غافر: ٤٢].

وقد يفرده وذلك نحو: ﴿إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح: ١٠].

وقرن اسمه (القهار) باسمه (الواحد) ولم يستعمله مع غيره وذلك في ستة مواضع .

واستعمل لفظه (القاهر) مع قوله (فوق عباده) فيقول: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٨ ، ٦١].

ويقرن اسمه (القوي) باسمه (العزیز) ولم يقرنه بغيره وذلك في سبعة مواضع من القرآن الكريم وذلك نحو قوله: ﴿إِنَّ رَيْكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ [هود: ٦٦] ، وقوله: ﴿إِنَّكَ اللَّهُ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠ ، ٧٤].

أو أن يذكر معه وصف (شديد العقاب) وذلك في موضعين من القرآن الكريم ، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٥٢] ، وقال: ﴿إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [غافر: ٢٢].

وقرن اسمه (الكبير) باسمه (العلي) أو بما هو منه في الاشتقاق .

فلا يصف نفسه بالكبير إفراداً أو مع أي وصف آخر ، قال تعالى:

﴿ فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴾ [غافر: ١٢] ، وقال: ﴿ وَأَبَّ اللَّهُ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ [الحج: ٦٢ ، لقمان: ٣٠] ، وقال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴾ [النساء: ٣٤] .

وقال: ﴿ عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴾ [الرعد: ٩] و(المتعال) مشتق من مادة (العلي) نفسها .

٥ - عند الكلام على الله تعالى يضيف اسم التفضيل نحو (خير وأحسن وأرحم) لجمع اسم الفاعل ، ولم يضيفه لجمع صيغ المبالغة ، وذلك نحو (خير الراحمين) و(خير الغافرين) و(خير الرازقين) و(أرحم الراحمين) و(أحسن الخالقين) ، فلم يرد نحو (خير الرزاقين) ولا (أحسن الخلائق) ونحوها .

٦ - الملاحظ أنه إذا اجتمع وصفان أحدهما على زنة (فاعل) والآخر على زنة (فعّال) في فاصلة آية نحو (ساحر كَذَّاب) و(كاذب كَفَّار) فإن السياق يكون فيما تدل عليه صيغة المبالغة (فعّال) أظهر مما تدل عليه صيغة (فاعل) وذلك نحو قوله تعالى: ﴿ وَعِجْوَ أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ ﴾ [ص: ٤] فجاء بالسحر على صيغة (فاعل) ، وجاء بالكذب على صيغة (فعّال) التي هي للمبالغة .

ولو نظرنا في السياق لوجدنا أنه في الكذب وليس في السحر ، فقد قال بعدها: ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آلِمَلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَافٌ ﴾ أي كذب . وقال بعدها: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْنَادِ ﴾ ﴿ ١١٧ ﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿ ١١٨ ﴾ إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابٌ ﴾ [ص: ١٢ - ١٤] .

فالسباق كما ترى في الكذب والتكذيب وليس في السحر .

ونحوه قوله تعالى في سورة غافر: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا

وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَمَزَ وَقَرُّوْا فَقَالُوا سِحْرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾
[غافر: ٢٣ - ٢٤].

والسياق في الكذب والتكذيب وليس في السحر. فقد قال في سياق هذه القصة، أي قصة موسى: ﴿وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [٢٨].

وقال في سياقها أيضاً: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَتْلُونَ آيَاتِ لِي صَرَحًا لَعَلِّي أَتْلُجُ الْأَسْبَابَ﴾ ﴿٣٦﴾ أَسْبَبَ السَّمَوَاتِ فَأَطْلَعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لِأُظْهِرُكُمْ كَذِبًا﴾ [٣٦ - ٣٧].

ولم يرد في سياقها شيء يتعلق بالسحر. ونحوه قوله تعالى في سورة الزمر: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣].

فجاء بالكذب على صيغة فاعل، وجاء بصفة الكفر على صيغة (فعل)، ولو نظرت في السياق لرأيت أنه في سياق الكفر وليس في سياق الكذب، فقد قال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَذِبٌ كَفَّارٌ﴾ ﴿٣﴾ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَنَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الزمر: ٣ - ٤].

ويستمر في إثبات عقيدة التوحيد وإبطال الكفر والشرك من نحو قوله: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَىٰ نُصْرَتُهُ لَكُمْ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ لَا يَكُنْ لَكُمْ فِي اللَّهِ حِجَابٌ وَأَنْتُمْ كَالْعِزَّةِ الْكَاذِبَةِ﴾ [٦ - ٧].

وقوله: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [٨].

فالسباق كما ترى في الكفر لا في الكذب ، فجاء بالكفر على صيغة المبالغة ، وجاء بالكذب على صيغة (فاعل) ، بخلاف الآيات السابقة التي كان السياق فيها على الكذب ، فجاء به على صيغة المبالغة .

ونحوه قوله تعالى على لسان سيدنا نوح عليه السلام : ﴿ إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ [نوح : ٢٧] .

فقد جاء بصيغة الفجور على زنة (فاعل) أي فاجر ، وجاء بصفة الكفر على (فعّال) ، والفرق بين الفجور والكفر أن الفجور هو الانبعاث في المعاصي والمحارم ^(١) .

أما الكفر فهو في الاعتقاد ، وليس من الحتم أن يكون الفاجر كافراً ، فقد يفجر المؤمن ، أي يعصي ويفسق .

ولو نظرنا في جو سورة نوح وسباق الآية التي ذكرناها لرأينا أنه في الدعوة إلى التوحيد وفي ذكر المجتمع الكافر المشرك وعقائده .

فقد قال نوح لقومه : ﴿ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا ﴾ .

وذكر أنه دعا قومه ليلاً ونهاراً فلم يزداهم دعاؤه إلا فراراً .

وأنه كلما دعاهم إلى ذلك جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً .

وقالوا : ﴿ لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ .

فهم يصرون على عبادة الأصنام ورفضهم للتوحيد .

ثم إنه دعا على الكافرين فقال : ﴿ رَبِّ لَا تَذَرَّ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ .

(١) انظر لسان العرب (فجر) .

ودعا للمؤمنين والمؤمنات ، والمؤمن نقيض الكافر فقال: ﴿ رَبِّ
أَغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ .

فالسباق كما هو ظاهر في الكفر فجاء به على صيغة المبالغة نظير ما مر
والله أعلم .

إلى غير ذلك من الخطوط .

وسنذكر الآن أمثلة من الصفات :

أثم - أثيم:

الأثم هو اسم الفاعل من (أثم) ، والأثيم صيغة مبالغة ، فاستعمل
الأثيم للمبالغ في الإثم ، واستعمل الأثم لمن هو أقل منه إثماً .

فقد استعمل الأثم لمن ارتكب إثماً معيناً ، وقد خص القرآن الأثم
بمن يكتُم الشهادة أو بمن ارتكب إثماً على العموم فقال: ﴿ وَلَا تَكْتُمُوا
الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ إِيَّائِمُّ قَلْبُهُ ﴾ [البقرة: ٢٨٣] ، وقال: ﴿ وَلَا نَكْتُمُ
شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْأَثِمِينَ ﴾ [المائدة: ١٠٦] .

وقال فيمن ارتكب إثماً على العموم من دون تخصيص بأمر معين:
﴿ وَلَا تُطِيعْ مِنْهُمْ إِيَّائِمًّا أَوْ كَفُورًا ﴾ [الإنسان: ٢٤] .

أما الأثيم فهو المبالغ في الإثم ، قال تعالى: ﴿ وَيَلْ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾
يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُنْزِلُ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِيرُهُ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ
آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا
كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ [الجاثية: ٧ - ١٠] .

فقد ذكر أنه أفَّاك مبالغ في الإثم ، وأنه مستكبر على آيات الله يتخذها
هزواً ، ثم توعدّه بالعذاب المهين والعذاب العظيم .

ولا شك أن هذا مبالغ في الإثم .

وقال: ﴿وَلَا تُطْعَ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١١﴾ هَمَزَ مَسْلَمَ بَنِيهِ ﴿١١﴾ مَنَعَ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ
أَيْمٍ ﴿١٢﴾ عَتَلَ بَعْدَ ذَلِكَ زَيْنٍ ﴿١٣﴾ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِ ءَايُنَا
قَالَكَ أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ [القلم: ١٠ - ١٥].

فذكر من صفاته أنه كثير الحلف مهين ، وأنه يهزم الناس ويعيبهم
ويمشي بالنميمة بين الناس ، وأنه يمنع الخير عنهم ويعتدي عليهم
ويستهزئ بآيات الله ، فإنه إذا تليت عليه الآيات قال أساطير الأولين .
ولا شك أن كل واحدة من هذه الصفات يكون صاحبها أئيماً فكيف إذا
جمعها كلها؟ .

وقال: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الرَّقُومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَيْمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي
الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلِي الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ
رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ [الدخان: ٤٣ -
٤٩].

ولا شك أن هذا العذاب إنما هو لمن بالغ في الإثم دون من لم يبالغ .

تائب - تَوَاب:

ورد (التائبون) و(التائبات) أي بصورة اسم الفاعل مرتين وهما قوله
تعالى: ﴿التَّائِبُونَ الْعَبْدُونَ الْحِمْدُونَ السَّائِحُونَ الرَّكَعُونَ
السَّجِدُونَ الْأَمِيرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ
لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ [التوبة: ١١٢].

وقوله: ﴿عَسَى رَبُّهُ أَنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ
فَاتِلَاتٍ تَتَبَّعْنَ عِبَادَتِ سَيِّحَتٍ تَتَبَّعَتْ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾ [التحریم: ٥].

وورد (التواب) إحدى عشرة مرة كلها لله تعالى .

وورد جمع (التواب) وهو (التوابون) مرة واحدة في المؤمنين وهو



قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

أما وروده بصيغة المبالغة لله فإن كثرة ما يقع من التوبة منه على عباده تستدعي صيغة المبالغة ، فجميع العصاة من المسلمين والطائعين الذين يطلبون التوبة إلى قيام الساعة بهم حاجة إلى التوبة ، وهو سبحانه يتوب عليهم .

فالمناسب الإتيان بصيغة (التواب) وهذا من رحمته بعباده سبحانه .

وأما قوله: ﴿التَّائِبُونَ الْعَمِيدُونَ...﴾ في سورة التوبة فإنه أمر بتبشير هؤلاء ، وقد جاء باسم الفاعل ولم يأت بصيغ المبالغة ، فلم يقل (التوابون) ولا (الحمادون) ولا الأمازون بالمعروف ، ليدل على سعة رحمته بهم وعظيم تفضله عليهم ، فإنه بشر من لم يكثّر ولم يبالغ في ذلك من المؤمنين . وهذه نعمة كبيرة ومنة عظيمة .

وأما آية التحريم - وهي قوله: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكَ مِيسَمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَنَاطَاتٍ تَزِينْنَ لَكُمْ - فَإِذَا جَاءَتْ تَعْقِيًا بَعْدَ قَوْلِهِ: وَلِذَا أَسَرَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا...﴾ .

وقد نبأت بهذا السر ، ووقع في هذا الأمر من بعض أزواج النبي ما يقع بين الضرائر ، وهذا تكفي فيه التوبة ولا يستدعي المبالغة فيها . فإن المبالغة في التوبة والإكثار منها تكون من الآثام الكبيرة ، فإن التوبة على قدر الذنب ، فلم يستدع المقام المجيء بصيغة المبالغة .

وأما المجيء بصيغة المبالغة في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ فإنه ذكر قبل هذه الآية جملة أمور تدعو مخالفتها إلى التوبة وهو قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْتَفِعٌ لِلنَّاسِ وَإِنَّهُمْ مَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْغَفْوُ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ

اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الَّتِي قُلْتَ
إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ
اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾ وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمَنَّ وَلَأَمَةٌ
مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ
مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ
وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَبَيِّنَ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ
قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ
فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿البقرة: ٢١٩-٢٢٢﴾.

وهذه كلها أمور تستدعي المبالغة في التوبة ، فإن الخمر والميسر من
الكبائر ، وأكل مال اليتيم من الكبائر ، ونكاح المشركات وإنكاح
المشركين لا يحل بحال من الأحوال ، وهو باطل يدخل في الزنى ، وهو
من الكبائر ، فافتضى ذلك المجيء بصيغة المبالغة .

ثم إن هذا الجزء من الآية وهو قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ
الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ ورد بعد قوله : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْتَزِلُوا
النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ
اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ .

ذلك أن مسألة المحيض واعتزال النساء في المحيض يختلف عن كل ما
سبق ، فإنه ليس كل الناس يشربون الخمر ، ولا كل الناس يكفلون اليتيم ،
وأقلهم من ينكح مشركة أو ينكح مشركاً ، فإن ذلك لا يقع في أجيال .

أما المحيض فهو واقع ولا بد ، فإنه يحدث لكل بالغة من الإناث .

وهذا النهي يعني كل متزوج ، فهو إذن حاصل في كل بيت إلى قيام
الساعة ، فاحتمال الوقوع فيه أكثر من غيره ، فافتضى ذكر التوابين

لاحتمال أن هذا يقع كثيراً ، وربما يتكرر الوقوع فيه من الشخص ، فاستدعى ذكر صيغة المبالغة .

وقدم التوابين على المتطهرين ؛ ذلك لأنه قدم ما يستدعي التوبة من الأعمال وآخر ما يستدعي التطهر وهو المحيض ، فقدم التوابين على المتطهرين . والله أعلم .

خائن - خَوَّان:

استعمل صيغة المبالغة (خَوَّان) للمكثر من الخيانة والمبالغ فيها دون اسم الفاعل ، فإنه استعمله لمن هو دون الأول في الكثرة .

قال تعالى : ﴿ وَإِمَّا تَخَافُكَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٌ فَانذِرْهُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾ [الأفال: ٥٨] فهو لم يذكر أنهم خانوا ، وإنما قال : ﴿ وَإِمَّا تَخَافُكَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٌ ﴾ أي إن خفت منهم ذلك ، فجاء باسم الفاعل ولم يأت بصيغة المبالغة ؛ لأنهم لم يخونوا أصلاً وإنما خيفت منهم الخيانة .

وقال في يوسف : ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾ [يوسف: ٥٢] .

فإن الخيانة لم تقع ولذا قال : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾ باسم الفاعل ولم يقل (الخَوَّانين) . ثم إن هذا إنما هو حادثة واحدة .

غير أنه قال : ﴿ وَلَا تَجِدْ لِنَاسٍ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴾ [١٠٧] يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَحْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ . . . وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ [النساء: ١٠٧ - ١١٢] .

فجاء بصيغة المبالغة (خَوَّان) لما ذكر أنهم ﴿ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ ﴾ بصيغة

المبالغة ولم يقل (يخونون) ، وذكر صفات أخرى تفضح خيانتهم وتدل على مبالغتهم في الخيانة . فهم يستخفون من الناس ويبيتون ما لا يرضي الله من القول ، وذكر أنهم فعلوا الخطيئة وكسبوا الإثم ورموا به البريء إلى غير ذلك من الصفات السيئة ، فناسب ذكر صيغة المبالغة في الخيانة .

سميع - سَمَاع:

ورد (السميع) وصفاً لله سبحانه كثيراً وذلك نحو: ﴿السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ و﴿السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ و﴿سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ . وقد ورد وصفاً لغيره قليلاً ، قال تعالى: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْبَرِ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ﴾ [هود: ٢٤] ، وقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢] .

أما (السَمَاع) فاستعمل وصفاً للإنسان فقط ، كما أنه استعمل في الذم ولم يستعمل في المدح .

واستعمل حيث ورد مُعَدَّى إلى مفعوله باللام المقوية . قال تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُواْ سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُواكَ﴾ [المائدة: ٤١] ، وقال: ﴿سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ [المائدة: ٤٢] ، وقال: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٧] .

أما السميع فلم ترد معداة بنفسها ولا بحرف ، وقد وردت مضافة إلى مفعولها وهو (الدعاء) خاصة نحو (سميع الدعاء) و(السميع الدعاء) واستعملت في المدح فقط .

شاكر - شكور:

استعمل القرآن اسم الفاعل (شاكر) حيث لا يقتضي المبالغة ، واستعمل صيغة المبالغة (شكور) فيما يقتضي ذاك .

فكل ما ذكر الله فيه عن نفسه أنه (شكور) ورد في سياق مضاعفة الأجور والزيادة من فضله سبحانه ، بخلاف اسم الفاعل .

قال: ﴿لِيُؤْفِيَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٣٠] ، وقال: ﴿وَمَن يَفْرَفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَّهِ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [الشورى: ٢٣] ، وقال: ﴿إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُّضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١٧] .

بخلاف اسم الفاعل فإنه لم يرد في مثل هذا السياق ، قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّافِيَ وَالْمُرَّةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٥٨] .

فإنه لم يذكر جزاء أصلاً ولا مضاعفة أجور .

وقال: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٧] فإنه لم يذكر جزاء ، وإنما قال: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ﴾ .

فوضع كل تعبير فيما يناسبه .

ظلوم - ظلام:

كلتاهما من صيغ المبالغة ، غير أنه خصص (ظلوم) بأنه وصف للإنسان على العموم ، قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤] ، وقال: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢] .

وأما (ظلام) فقد خصها ربنا بنفي الظلم عن نفسه ، وقد وردت خمس مرات وكلها متعلقة بنفي الظلم للعبيد . قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ [آل عمران: ١٨٢ ، الأنفال: ٥١] ، وقال : ﴿ مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت: ٤٦] ، وقال : ﴿ مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ [ق: ٢٩] .

وقد جاء بصيغة المبالغة (ظلام) الدالة على التكثير ، لأنه علّقه بالعبيد وهم كثير . فالذي يظلم الخلق الكثير هو ظلام وليس ظالماً فقط .
جاء في (البحر المحيط) : « وهذا تكثير بسبب المتعلق »^(١) .

وأطلق صفة الإنسان (ظلوم) ولم يعلقها بشيء ؛ لأنه أراد وصفه بالظلم المطلق والله أعلم .

عالم - عليم - علام:

استعمل القرآن صفة (العالم) متعلقة بالغيب المفرد أو الغيب والشهادة ، فيقول مثلاً : (عالم الغيب) . قال تعالى : ﴿ عَلِيمُ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾ [سبا: ٣] ، وقال : ﴿ عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ﴾ [الجن: ٢٦] .

أو يقول (عالم الغيب والشهادة) وذلك نحو قوله تعالى : ﴿ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام: ٧٣] .

وقد ورد هذا الوصف ثلاث عشرة مرة كلها مختصة بعلم الغيب أو الغيب والشهادة .

(١) البحر المحيط ٣/ ٤٥٦ .

وأما (علام) فقد خص استعمالها متعلقة بـ (الغيوب) جمع (الغيب). وقد ورد هذا الوصف أربع مرات كلها متعلقة بالغيوب ، قال تعالى : ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ ﴾ [المائدة: ١٠٩ ، ١١٦] ، وقال : ﴿ وَأَنْتَ اللَّهُ عَلَّمُ الْغُيُوبِ ﴾ [التوبة: ٧٨] ، وقال : ﴿ قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَمُ الْغُيُوبِ ﴾ [سبا: ٤٨] وذلك أنه لما كان هذا الوصف للمبالغة والتكثير جاء بالجمع معه مناسبة للتكثير . وهو نظير ما مر في قوله (بظلام للعبيد) .

وأما (عليم) فقد استعمالها غير مختصة بمعلوم معين ، فهو أحياناً يطلقها من كل متعلق ، كأن يقول : ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ٣٢] ، أو يقول : ﴿ وَسِعُ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ١١٥] ، أو يقول : ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٧] .

أو يجعلها متعلقة بكل شيء فلا تترك شيئاً من الأشياء إلا شمله هذا الوصف وذلك نحو قوله : ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٩] ، وقوله : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٣١] .

أو يعلقها بمجموع ولا يعلقها بمفرد وذلك كقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: ٩٥] ، وقوله : ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١١٥] ، وقوله : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴾ [آل عمران: ٦٣] فعلق الوصف بالظالمين والمتقين والمفسدين بالجمع لا بالافراد .

أو يعلقها بما ارتبط بالمجموع وذلك نحو ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢١٥] فإنه جمع الفاعلين فقال : ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٧٣] ، ونحوه قوله : ﴿ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٧٣] ، وقوله : ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٨٣] ، وقوله : ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [آل عمران: ١٥٤] فذكر الصدور وليس صدرأ واحداً .

فاتضح أنه استعمل وصف (العليم) مطلقاً غير مقيد بمعلوم معين ،
بخلاف (علام) فإنه خصصه بعلم الغيوب مجموعة . وأما (عالم) فقد
خصه سبحانه بعلم الغيب مفرداً غير مجموع .
وهذا الأمر متعلق بصفاته سبحانه خاصة .

غافر - غفار - غفور:

استعمل (غافر) مع الذنب ولم يستعمله مع الجمع ، قال تعالى :
﴿ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ ﴾ [غافر: ٣] .

فإذا كثرت الذنوب جاء بصيغة المبالغة ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ
الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الزمر: ٥٣] .

وقال : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ
غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٣١] .

وقد ورد وصف (الغفار) خمس مرات ، منهن ثلاث مقترن باسمه
العزیز نحو ﴿ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴾ [الزمر: ٥] ولم يرد مقترناً باسم آخر غير
اسمه (العزیز) .

وورد مرتين غير مقترن باسم آخر وهما قوله : ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ
وَأَمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى ﴾ [طه: ٨٢] ، وقوله : ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ
كَانَ غَفَّاراً ﴾ [نوح: ١٠] .

وأما (الغفور) فقد ورد كثيراً ، وقد اقترن بعدد من أسماء الله الحسنی
وأكثر ما اقترن باسمه الرحيم . وقد اقترن به أكثر من سبعين مرة نحو
﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

واقترن أيضاً باسمه الحليم نحو : ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٢٥] .

وباسمه العفو نحو : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌ غَفُورٌ ﴾ [الحج: ٦٠] .



وباسمه العزيز: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الملك: ٢].

وباسمه الشكور: ﴿إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٣٠].

وباسمه الودود مع أسماء أخرى: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ﴾ [١٣] ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ

[البروج: ١٤ - ١٥].

ويتضح مما مر أن اسمه (الغفور) أوسع استعمالاً من اسمه (الغفار) وأكثر وروداً منه ، فقد ورد أكثر من تسعين مرة .

فاعل - فعّال:

ورد (فاعل) مرة واحدة في القرآن الكريم وهو قوله: ﴿وَلَا نَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا﴾ [٢٢] إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴿[الكهف: ٢٣ - ٢٤].

وورد (فعّال) مرتين وهما قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧] ، وقوله: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦].

فجاء باسم الفاعل للشيء الواحد فقال: ﴿وَلَا نَقُولَنَّ لِشَيْءٍ﴾ ، وجاء بصيغة المبالغة للتكثير وهو (ما يريد) وهو يشمل عموم ما يريد .

كفّار - كفّور:

الفرق بين كفّار وكفّور اللذين هما كلاهما من صيغ المبالغة أن (كفّار) على وزن (فعّال) الذي يكون لمن يفعل الفعل وقتاً بعد وقت ويكرر فعله^(١) ، وقيل إنه لمن صار له صنعة^(٢) .

وأن (كفّور) على وزن (فَعُول) الذي يكون لمن دام منه الفعل^(٣) .

(١) ينظر الفروق اللغوية ١٢ - ١٣ ، كشف الطرة ٧٩ - ٨٠ ، درة الغواص ٨٩ .

(٢) ينظر همع الهوامع ٩٧ / ٢ ، كشف الطرة ٧٩ - ٨٠ .

(٣) ديوان الأدب ٨٥ / ١ ، كشف المعاني في المتشابه من المثاني ٢٢٠ .

وهذا الوزن كما رجحنا في كتابنا (معاني الأبنية) منقول من أسماء الذوات كالوَضوء والسَّحور والبَّخور للدلالة على أن الموصوف بهذا الوصف صار كأنه مادة لما وصف به ، فالصبور كأنه مادة للصبر ، والغفور كله مغفرة^(١) .

وعلى هذا فالكَفَّار هو الذي يزاول الكفر ويجدده وقتاً بعد وقت . وأما الكفور فهو الذي دام منه الكفر بحيث أصبح كأنه مخلوق من الكفر كما قال تعالى : ﴿ خُلِقَ الْإِنْسَنُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ [الأنبياء : ٣٧] ووصفه بقوله : ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَنُ عَجُولًا ﴾ [الإسراء : ١١] فجاء بوصفه على (فعلول) .

وقال : ﴿ وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ ﴾ [النساء : ١٢٨] ووصفه بقوله : ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَنُ قَتُورًا ﴾ [الإسراء : ١٠٠] .

وقال : ﴿ إِنَّ الْإِنْسَنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴾ [١٩] إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا الْمُصْلِينَ ﴿ [المعارج : ١٩ - ٢٢] .

ولذا جاء وصف الإنسان بالكفور في كثير من الآيات على معنى كأنه مخلوق من هذا الوصف وذلك كقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَيْتُوسٌ كَفُورٌ ﴾ [هود : ٩] ، وقوله : ﴿ فَإِنَّ الْإِنْسَنَ كَفُورٌ ﴾ [الشورى : ٤٨] ، وقوله : ﴿ إِنَّ الْإِنْسَنَ لَكَفُورٌ ﴾ [الحج : ٦٦] .

ولم يرد وصفه بالكفَّار إلا في آية واحدة وهو قوله : ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم : ٣٤] وذلك لما كان ذلك في سياق ذكر النعم المتعددة التي لا تحصى والمتجددة والتي تقتضي شكراً متجدداً لكل نعمة جاء بـ (الكفَّار) الذي يكفر النعم بصورة مستمرة .

(١) انظر معاني الأبنية ١١٠ وما بعدها .



ومن الملاحظ أن (كفار) لم ترد صفة منفردة في القرآن ، بل كلها وردت مقترنة بصفة أو أكثر وذلك نحو ﴿كُلَّ كَفَّارٍ أَنِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٧٦] ، ﴿لَظَلُمُوا كَفَّارًا﴾ [إبراهيم: ٣٤] ، ﴿كَذَبُ كَفَّارٍ﴾ [الزمر: ٣] ، ﴿كُلَّ كَفَّارٍ عِنْدَ ﴿٢٤﴾ مَنَاجٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ [ق: ٢٤-٢٦] ، ﴿وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاكِراً﴾ [نوح: ٢٧] .

أما (الكفور) فقد وردت مفردة ومقترنة بصفة أخرى وذلك نحو: ﴿كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [الحج: ٣٨] ، ﴿كُلَّ خَسَّارٍ كَفُورٍ﴾ [لقمان: ٣٢] ، ﴿فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾ [الشورى ٤٨] .

ولأن صيغة (فَعَّال) تدل على الاستمرار والتجدد والمزاولة وقتاً بعد وقت كان فيها جانب الحدث أظهر (فَعُول) ، ولذلك كثيراً ما تتعدى إلى غيرها باللام أو بغيرها ، بخلاف (فَعُول) فإن تعديها أقل وذلك نحو قوله: ﴿سَمِعُواكَ لِلْكَذِبِ أَكَلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ [المائدة: ٤٢] ، ﴿مَشَاءَ بَنِيمٍ﴾ [القلم: ١١] ، ﴿مَنَاجٍ لِلْخَيْرِ﴾ [القلم: ١٢] ، ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف: ٥٣] ، ﴿فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦] ، ﴿قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾ [النساء: ١٣٥] ، ﴿نَزَّاعَةً لِلشَّوَى﴾ [المعارج: ١٦] ، ﴿بِظُلَامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [آل عمران: ١٨٢] وغيرها .

إلى غير ذلك من الصفات .





في المفردات

هذه طائفة من المفردات القرآنية مما قد يدور في الذهن السؤال عنه وعن استعماله ، نسأل الله سبحانه أن يجنبنا الزلل في تفسير ذلك وبيانه .

أتى وجاء:

أثير سؤال عن الاختلاف في دلالة كل من جاء وأتى في القرآن الكريم ، ورجحنا في كتابنا (لمسات بيانية) ما ذهب إليه الراغب في المفردات من أن الإتيان مجيء بسهولة ، وأن المجيء أعم ، أي أنه يؤتى بالمجيء لما هو أصعب وأشق مما تستعمل له (أتى) ^(١).

وضربنا لذلك أمثلة عديدة . إلا أنه أثير سؤال آخر وهو أن القرآن يستعمل كلا من (جاء) و(أتى) في تعبيرين متشابهين مما لا يدل على الاختلاف بينهما وذلك نحو قوله تعالى : ﴿ إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الصافات : ٨٤].

وقوله : ﴿ إِنْ لَمْ يَأْتِ اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء : ٨٩].

وقد ذكرنا في أكثر من مناسبة أنه لا يصح اقتطاع جزء من الآية أو اقتطاع آية من سياقها للتدليل على الرأي ، وإنما ينبغي أن يوضع كل تعبير في سياقه ليتبين الفرق بين استعمال وآخر .

(١) لمسات بيانية ١١٣ وما بعدها ، وانظر المفردات ٦ ، ١٠٢ .

ولو نظرنا في سياق كل من هذين التعبيرين لتبين الفرق بينهما .

قال تعالى في الصافات : ﴿ وَإِلَٰتٌ مِّنْ شَيْعِهِۦ لَآ تُزْهِيمُهُۥ ۚ إِذْ جَاءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٥ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ . . . ﴿ إِلَىٰ أَنْ قَالَ : ﴿ قَالُوا أَبْنَاؤُا لِّمُؤَلِّمِنَا فَاَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴾ [الصافات : ٩٧] .

ثم ذكر بعد ذلك أنه بشره بسلام حليم ، وأنه أمر بذبحه وهم بذلك إلى أن قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُو الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴾ [١٠٦] .

وقال في الشعراء : ﴿ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ۝٨٧ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٩ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الشعراء : ٨٧ - ٩٠] .

ومن النظر في سياق كل من التعبيرين يتضح الفرق بين المجيئين ، فإن مجيء إبراهيم بقلب سليم في الصافات أعقبه أن ألقى في النار بعد أن حطم الأصنام ، وأن يطلب منه أن يذبح ولده الوحيد حتى قال الله في ذلك : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُو الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴾ .

وأما الإتيان في الشعراء فقد أعقبه بتقريب الجنة : ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٩ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ .

حتى أنه لم يذكر شيئاً من أهوال المحشر وأحواله .

ومما أثير في هذا الباب أيضاً قوله تعالى : ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَقَّ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ [الزمر : ٧٣] .

فإنه استعمل في السعداء (جاؤوها) مع أنه استعمل فيهم في الشعراء (أتى) في الآية التي ذكرناها سابقاً وهي قوله : ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ مع أن كلا الفريقين من السعداء ولا فرق بينهما .

والحق أن السياق مختلف في كل منهما .

فإنه في سياق الشعراء لم يذكر أي شيء عن أهوال المحشر ، وإنما

ذكر تقريب الجنة للمتقين .

وأما في الزمر فقد ذكر شيئاً من ذلك ، فقد ذكر النفخة والصعقة والمجيء بالنبيين والشهداء والقضاء وتوفية كل نفس ما عملت ، فقد قال : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴾ (١٨) وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجَاءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءُ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (٦٩) وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ [الزمر : ٦٨ - ٧٠] .

ولا شك أن هذا المجيء أشق وأصعب مما في سياق الشعراء .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى لو نظرنا في سياق السعداء في كل من السورتين ، فقد قال في الشعراء : ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ (٨٩) وَأَزْلَفَتْ الْجَنَّةُ لِلْمُنْقِذِينَ ﴾ (٩٠) [الشعراء : ٨٩ - ٩٠] .

وقال في الزمر : ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ [الزمر : ٧٣] .

والفرق واضح بين المقامين ، فإنه في الشعراء ذكر أن الجنة قربت لهم .

وأما في الزمر فقد ذكر أن المتقين سيقوا إليها زمراً .

ولا شك أن سوق الشخص للوصول إلى شيء ما أعسر وأشق من أن يقرب إليه ذلك الشيء .

فاتضح الفرق بين المقامين .

ومن الفرق بين هذين الفعلين في الاستعمال القرآني أن القرآن لم يستعمل غير الفعل الماضي من المجيء ، فلم يأت منه بمضارع ولا أمر ولا اسم فاعل أو مفعول ، بخلاف (أتى) فإنه استعمل منه الماضي والمضارع والأمر واسم الفاعل واسم المفعول .

ولعل ذلك يعود إلى ثقل تصريفات (جاء) في اللفظ ، وسهولة تصريفات (أتى) ، فإن (يأتي) أخف من (يجيء).

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أن ما لم يقع من الأمور المستكرهة أخف مما وقع منها ، فإن الأمور المستكرهة إذا وقعت كانت أشق وأثقل مما لم يقع منها . وقد قيل (فما راء كمن سمعا) . ففرق القرآن بين ما وقع وما لم يقع . فاستعمل لما لم يقع مضارع (أتى) دون مضارع (جاء) ، أما ما وقع من الأحداث فإن بعضها أثقل من بعض ، فاستعمل لما هو أثقل (جاء) ، ولما هو أخف (أتى) والله أعلم .

البحر - اليم:

استعمل القرآن الكريم (البحر) و(اليم) ، وقد أثير سؤال عن الفرق بينهما ، مع أنه قد يستعمل الكلمتين في مقامين متشابهين وذلك كما في قصة موسى مثلاً ، فإنه مرة يستعمل البحر ومرة يستعمل اليم . قال تعالى : ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ ۚ ﴾ [الشعراء: ٦٣] .

وقال في فرعون : ﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ ۚ ﴾ [القصص: ٤٠] .

فلم ذاك؟

نريد أن نذكر أولاً أن كلمة (يم) هي عبرية وبالسريانية (يما) ، وبالأكدية (يمو) ^(١) .

وقد ذكر ذلك اللغويون العرب ^(٢) وأيدته الدراسات الحديثة ^(٣) .

(١) حاشية كتاب (المعرب) للجواليقي للمحقق الدكتور ف. عبد الرحيم ٦٤٦ .

(٢) انظر لسان العرب (يم) ، الإتقان للسيوطي ١/ ٤٤٣ ، المعرب للجواليقي ٦٤٥ .

(٣) انظر حاشية المعرب ٦٤٦ .

وقد وردت كلمة (اليَم) في القرآن الكريم ثمانى مرات وكلها في قصة موسى^(١).

ولم ترد في غير هذه القصة ، وهو من لطيف الاستعمال ، فقد استعمل الكلمة العبرانية في قصة موسى وقومه وهم العبرانيون .

أما كلمة (البحر) فقد استعملت في قصة موسى وفي غيرها من المواطن .

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ ﴾ [البقرة : ٥٠] ، وقال : ﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا ﴾ [النحل : ١٤] .

ومن الملاحظ في استعمال هاتين الكلمتين أنه لم يستعمل (اليَم) إلا في مقام العقوبة أو الخوف ، ولم يستعملها في مقام النجاة .

قال تعالى : ﴿ فَإِذَا خِفتَ عَلَيْهِ فَاَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِ وَلَا تَحْزَنْ ﴾ [القصص : ٧] .

وقال : ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٢٨﴾ أَنْ أَقْدِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْدِفِيهِ فِي الْيَمِّ ﴾ [طه : ٣٨ - ٣٩] .

وهذا في مقام الخوف .

وقال : ﴿ فَأَنْتَقِمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ ﴾ [الأعراف : ١٣٦] .

وقال : ﴿ فَأَنْبَعَثْهُمْ فِرْعَوْنَ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ [طه : ٧٨] .

وقال : ﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ ﴾ [القصص : ٤٠] .

وهذا في مقام العقوبة .

(١) انظر حاشية المعرب ٦٤٥ .

أما (البحر) فقد استعمله عامًّا في النعم وغيرها ، في بني إسرائيل وغيرهم .

قال تعالى : ﴿ وَالْفُلْكَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ ﴾ [البقرة : ١٦٤] .
وقال : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النَّجْمَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ ﴾ [الأنعام : ٩٧] .

وقال : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهَ ﴾ [الإسراء : ٦٧] .
وقد استعمل في مقام نجاة بني إسرائيل (البحر) ولم يستعمل (اليم) .
لقد استعمل (البحر) في النجاة والإغراق ، أما (اليم) فاستعمله في الإغراق والخوف ولم يستعمله في النجاة .

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ ﴾ [البقرة : ٥٠] . فاستعمله في النجاة والإغراق .

وقال : ﴿ وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ ﴾ [الأعراف : ١٣٨] .

وقال : ﴿ وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَذْرَكَهُ الْفِرْعَوْنُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ ﴾ [يونس : ٩٠] .

وقال : ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى ﴾ ٧٧ ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ طه : ٧٧-٧٨] .

فاستعمل (البحر) للنجاة و(اليم) للغرق .

وقال : ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾ ١٣ ﴿ وَأَزْلَفْنَا ثَمَ الْآخِرِينَ ﴾ ١٤ ﴿ وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴾ ١٥ ﴿ ثُمَّ



أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿الشعراء: ٦٣ - ٦٦﴾ .

وقال: ﴿فَأَسْرِ بِعَبْدِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ ﴿٢٣﴾ وَاتْرِكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ﴾ [الدخان: ٢٣ - ٢٤] .

الثعبان والحية:

فَرَّقَ جمع من اللغويين بين الثعبان والحية ، فقالوا: إن الثعبان هو الحية الضخمة الطويلة. وقيل هو الذكر الأصفر الأشعر وهو من أعظم الحيات^(١).

أما الحية فتطلق على الصغير والكبير والأنثى والذكر^(٢) ، وعلى هذا فكل ثعبان حية وليس كل حية ثعباناً.

وورد لفظ (الثعبان) مرتين في القرآن الكريم في قصة موسى وذلك أمام فرعون وملئه خاصة. قال تعالى: ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٦﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الشعراء: ٣٢ - ٣٤] . ونحوه في الأعراف.

وكانه ذكر الثعبان لأنه أراد أن يهرب فرعون ويدعوه ذلك إلى الإيمان.

أما لفظ (الحية) فورد في موطن واحد وهو عندما رأى موسى النار وناداه ربه قائلاً: ﴿وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَمْوَسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَاهْتَشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَمْوَسَىٰ ﴿١٩﴾ فَالْقَهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ [طه: ١٧ - ٢٠] .

وكانه ذكر الحية لأنه أراد أن يريه قدرته سبحانه وليس الغرض

(١) لسان العرب (ثعب)، تاج العروس (ثعب).

(٢) لسان العرب (حيا).

الإخافة ، ولذا لم يذكر ههنا أنه خاف أو هرب وإنما قال : ﴿ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى ﴾ [طه : ٢١] .

فذكر الثعبان أمام فرعون وذكر الحية خاليًا .

وقد نقول : أليس في ذلك تناقض أو اختلاف ؟ .

والجواب : كلا ، فإن الثعبان حية ولم يخالف أحدهما الآخر . والموقف مختلف ، فذكر كل لفظ بما يناسبه وما يقتضيه الموقف والله أعلم .

الجبل - الطور :

كلمة (الطور) سريانية ومعناها الجبل وأصله (طورا) ^(١) .

وقد وردت (الطور) عشر مرات في القرآن الكريم ، منها سبع مرات في قصة موسى ، ومرتين في طور سيناء أو سينين .

ووردت في غير ذلك مرة واحدة وهو قوله : ﴿ وَالطُّورِ ۚ وَكُنَّ مَسْطُورٍ ﴾ وذهب كثير من المفسرين إلى أنه طور سيناء ^(٢) .

وعلى هذا تكون كلمة (الطور) وردت كلها في طور سيناء مصرحاً باسمه أو غير مصرح .

والطريف أن تكون هذه الكلمة السريانية استعملت في جميع أحوالها في قصة موسى وفي طور سيناء كما استعمل اليم فيها ، فالكلمة غير العربية في الأصل استعملت مع غير العرب .

أما كلمة (الجبل) فقد وردت عامة في بني إسرائيل وغيرهم . قال

(١) حاشية المعرب تحقيق الدكتور ف . عبد الرحيم ٤٣٥ ، وانظر المعرب ٤٣٥ ، فتح القدير ٩٤ / ٥ .

(٢) تفسير القرطبي ٥٨ / ١٧ ، روح المعاني ٢٦ / ٢٧ ، فتح القدير ٩٤ / ٥ .



تعالى: ﴿وَإِذْ نُنَقِّنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ [الأعراف: ١٧١].

وقال: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾ [الأعراف:

١٤٣].

وقال: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ

اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١].

وقال: ﴿ثُمَّ أَجْعَلَ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾ [البقرة: ٢٦٠].

وقد وردت كلمة الجبل مجموعة في ثلاثة وثلاثين موضعاً وذلك نحو

قوله: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ [هود: ٤٢] ، وقوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ

عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ [طه: ١٠٥].

أما كلمة الطور فلم ترد مجموعة في القرآن الكريم.

رجع - ردّ:

استعمل القرآن الفعل (ردّ) في الغالب للأمر الثقيلة والمستكرهة

سواء كان ذلك في الرد عما هو فيه من حال إلى غيره ، أي كراهية ترك ما

هو فيه إلى غيره ؛ لأن ما هو فيه محبوب لديه وتركه ثقيل عليه ، أو يكون

الرد عائداً على مآل الشخص المردود ومصيره ، فإن كان مصيره ومآله

ثقيلاً مستكرهاً شديداً عليه استعمل له : ردّ.

أما رجع فيستعمله في الغالب لما هو أخف وأيسر.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَرَدُّوتُ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ [التوبة: ٩٤] ،

[الجمعة: ٨].

وقال: ﴿وَسَرُّدُوتُ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ [التوبة: ١٠٥].

وقال: ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَىٰ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١].

وقال: ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾ [النور: ٦٤].

فاستعمل مرة (تردون) ومرة (ترجعون).

ومن النظر في الآيات يتبين أنه استعمل (يردون) لما هو أثقل وأشد.

فقد استعمل الفعل (يرد) في آية التوبة في المنافقين ، وفي آية الجمعة

في اليهود.

قال تعالى : ﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأَ اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة : ٩٤].

ورد المنافقين إلى الله رد ثقيل عليهم شديد.

وقال : ﴿ قُلْ يَتَّيِبُهَا لِلَّذِينَ هَادُوا إِنْ رَٰعَمْتُمْ أَنْتُمْ أَوْلِيَائِهِمْ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٦) وَلَا يَنْمُونَهُ أَبَدًا بِمَا قَدِمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٧) قُلْ إِنْ أَلَمْتُ أَلَدَىٰ تَفَرُّوتَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجمعة : ٦ - ٨].

ورد اليهود إلى ربهم رد ثقيل شديد.

واستعمل الفعل (يرجع) في آيتي البقرة والنور في المؤمنين.

قال تعالى : ﴿ يَتَّيِبُهَا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (٢٧٨) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ (٢٧٩) وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٢٨٠) وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢٧٨ - ٢٨١].

وكذلك آية النور هي في المؤمنين ، قال تعالى : ﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (١٣)



أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا ﴿النور: ٦٣ - ٦٤﴾ .

ولا شك أن رجوع المؤمنين إلى الله غير رجوع المنافقين والكافرين .

وقد استعمل الفعل (يرد) أيضاً فيمن خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً فقال: ﴿وَأَخْرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٠١﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٣﴾ وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسِرِّي اللَّهُ عَمَلِكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّوكَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴿التوبة: ١٠٢ - ١٠٥﴾ .

ولا شك أن رد المؤمنين أيسر من رد هؤلاء المذنبين الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً .

فاستعمل (رجع) لما هو أخف وأيسر .

وقال: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائُكُمْ فَزَيْلَنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿يونس: ٢٨ - ٣٠﴾ .

فاستعمل الرد للكافرين .

وقال في خطاب لعموم الناس: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّنَا بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾ وَهُوَ أَقْدَرُ مِنْكُمْ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ ﴿١٢﴾ ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحٰسِبِينَ ﴿الأنعام: ٦٠ - ٦٢﴾ .

فاستعمل الرد لعموم الخلق من المكلفين .

ومما يوضح ذلك أنه يستعمل الفعل (ردّ) في العقوبات والعذاب ولم يستعمل الفعل (رجع) في ذلك .

قال تعالى : ﴿ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأنعام : ١٤٧] .

وقال : ﴿ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [يوسف : ١١٠] .

وقال : ﴿ وَيَوْمَ أَلْقِيَا يَرْدُونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ﴾ [البقرة : ٨٥] .

وقال : ﴿ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ [التوبة : ١٠١] .

ولم يستعمل الفعل (رجع) في ذلك .

نعم استعمل (المرجع) في العذاب ، قال تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَىٰ الْجَحِيمِ ﴾ [الصفات : ٦٨] ، واستعمل (المردّ) في الخير ، قال تعالى : ﴿ وَالْبَقِيَّةُ الصَّالِحَةُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴾ [مريم : ٧٦] .

أما الفعل (رجع) فلم يستعمله في ذلك ، مما يدل على ما قرناه . جاء في (ملاك التأويل) أن لفظ (رد) يحتمل من القهر والتعنيف أكثر مما يحتمله لفظ (رجع) : «إذا قلت منه : رجعت أو رجع فإنه لا يحتمل ولا يفهم من معنى القهر والتعنيف ما يحتمله (ردّه) ، ألا ترى وروده في مثل قوله : ﴿ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا ﴾ ، وقوله : ﴿ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ ...

أما (رجع) وما تصرف منه فقلما يرد في هذا المعنى ، وإن ورد فليس ككثرة رد . فأما قوله تعالى : ﴿ وَأَتَقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَىٰ اللَّهِ ﴾ فهذا عام للمؤمن والكافر ، وإن كان كان أظهر في المؤمن فلا معنى تعنيف فيه» ^(١) .

قد تقول : لقد استعمل القرآن ردّ ورجع بدلالة واحدة ، فقد قال

(١) ملاك التأويل ٢/٦٤٦ - ٦٤٧ ، وانظر البرهان في متشابه القرآن ٢٣١ ، كشف المعاني لابن جماعة ٢٤٠ .



تعالى : ﴿ وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ ﴾ [فصلت : ٥٠].

وقال : ﴿ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ﴾ [طه : ٤٠].

وقال : ﴿ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ﴾ [الفصص : ١٣].

فاستعمل الفعل (ردّ) مرة واستعمل (رجع) مرة أخرى والقصة واحدة.

فما الفرق؟

والحق أن سياق كل من هذه التعبيرات مختلف.

أما آيتا الكهف وفصلت فقد ذكرهما عدد ممن كتب في المتشابه من القرآن وبينوا سبب الاختلاف بينهما. فإن آية الكهف وقعت في سياق حوار بين مؤمن وكافر مشرك ، فقد جاء فيها أن المشرك : ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتُهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ۖ ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا ۖ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُ صَاحِبُهَا وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاهُ رَجُلًا ۖ ﴿٣٧﴾ لَّيْسَ أَنتَ بِأَشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ۖ ﴾ [الكهف : ٣٥ - ٣٨].

أما سياق الآيات في فصلت فهو في الإنسان عموماً. قال تعالى : ﴿ لَا يَسْمَعُ الْإِنسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ۖ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَّسَّهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ ۖ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۖ ﴾ [فصلت : ٤٩ - ٥٠].

فاستعمل (رددت) الثقيلة مع المشرك المعاند ؛ لأنه يستثقل ترك ما هو فيه من نعمة وغضارة عيش ، كما أن ماله إلى وبال ، وعاقبته وخيمة . واستعمل (رجعت) للإنسان عموماً ، وهو أقل كفراً من هذا المشرك المحاور ، فجاء بما هو أيسر وأخف .

هذا علاوة على أن الفعل (رجع) ورد في سورة فصلت مرتين ، ولم يرد في الكهف ، فناسب ذلك من جهة أخرى .

جاء في (ملاك التأويل): «للسائل أن يسأل عن اختصاص آية الكهف بقوله: ﴿وَلَيْنُزِدَّتْ﴾ واختصاص آية السجدة بقوله: ﴿وَلَيْنُزِجَتْ﴾ مع أن الظاهر اتحاد المقصود في الآيتين .

والجواب عن ذلك - والله أعلم - أن الآيتين وإن اتحدتا في الغاية الحاصل منها وصف حال الكافر المنكر للبعث الوارد في كل واحدة منهما في قوله: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ فإن آية الكهف منهما أقوى تعريفاً يبعد الكافر المضروب به المثل عن حال الإيمان .

وأما آية السجدة فصالحة لاتصاف الكافر والمؤمن بالحال المفتحة بها من قوله ﴿لَا يَسْمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ﴾ من حيث إن هذا وصف يعم المؤمن والكافر . . .

ألا ترى أن آية الكهف لا يكاد شيء من كلمها يجري في وصف المؤمن . . .

فتأمل ما بين هذه الكلم الواردة في وصف هذا الكافر والواردة في قوله في آية سورة السجدة ﴿لَا يَسْمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ﴾ . . .

فلما افترقت الآيتان فيما ذكر ناسب آية الكهف قوله: ﴿وَلَيْنُزِدَّتْ﴾ لما يشعر لفظ (رددت) ويحتمله من القهر والتعنيف وقوعاً أكثرياً ، بخلاف لفظ (رجع) إذا قلت منه: رجعت أو رجع ، فإنه لا يحتمل ولا يفهم من معنى القهر والتعنيف ما يحتمله (ردّه)»^(١) .

وجاء في (البرهان في متشابه القرآن) للكرماني: ﴿وَلَيْنُزِدَّتْ إِلَى

(١) ملاك التأويل ٢/ ٦٤٤ - ٦٤٦ .

رَبِّي ﴿ وفي حم ﴿ وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي ﴾ لأن الرد على الشيء يتضمن كراهة المردود. ولما كان في الكهف تقديره: ولئن رددت عن جنتي هذه التي أظن ألا تبعد أبداً إلى ربي ؛ كان لفظ الرد الذي يتضمن الكراهة أولى. وليس في حم ما يدل على الكراهة. فذكر بلفظ الرجوع ليقع في كل سورة ما يليق بها»^(١).

وجاء في (كشف المعاني): «إن في لفظ الرد من الكراهية للنفوس ما ليس في لفظ الرجوع ، فلما كان آية صاحب الكهف وصف جنته بغاية المراد بالجنان كانت مفارقتها لها أشد على النفس من مفارقة صاحب حم السجدة لما كانت فيه ؛ لأنه لم يبالغ في وصف ما كان فيه كما بالغ صاحب آية الكهف ، فناسب ذلك لفظ الرد هنا ولفظ الرجوع ثمة»^(٢).

وأما قوله تعالى: ﴿ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمَمِكَ كَيْ تَفَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ﴾ [طه: ٤٠] ، وقوله: ﴿ فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمَمِهِ كَيْ تَفَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ﴾ [القصص: ١٣] ، فذلك ما يبينه السياق في كل من الآيتين.

قال تعالى في طه: ﴿ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىكَ مَرَّةً أُخْرَى ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمَمِكَ مَا يُوحَى ﴿٣٨﴾ أَنْ أَقْدِفْهُ فِي النَّابُوتِ فَأَقْدِفْهُ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ ﴿٣٩﴾ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ حَبَابًا مَنِيًّا وَلْيُضْمَعْ عَلَى عَيْنِي ﴿٤٠﴾ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُمْ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمَمِكَ كَيْ تَفَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ﴿٤١﴾ وَقُلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَّكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَمْوَسَّى ﴿٤٢﴾ وَأَصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴾ [طه: ٣٧ - ٤١].

وقال في القصص: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ

(١) البرهان ٢٣١.

(٢) كشف المعاني ٢٤٠.

فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا رَاَدُّوهُ إِلَىكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾
 فَأَلْقَطَهُ الْمَاءُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمُنَ وَجُنُودَهُمَا
 كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ
 يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَرِحًا إِنْ
 كَادَتْ لَتُبْدِيَ بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾
 وَقَالَتِ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ
 الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُمْ
 نَصِيبٌ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَىٰ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ
 اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ [القصص: ٧ - ١٣].

ومن النظر في السياقين يتضح أن الأمر ذكر في طه بصورة أخف على
 أم موسى ، فلم يذكر معاناتها في ذلك كما ذكر في القصص .

فإن القصة في القصص مبنية على الخوف ، بخلاف ما في طه .

١ - فقد قال في القصص : ﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِ
 وَلَا تَحْزَنْ ﴾ . ولم يقل مثل ذلك في طه .

٢ - وقال فيها أيضاً : ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَرِحًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِيَ
 بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا ﴾ .

ولم يقل مثل ذلك في طه .

٣ - وقال فيها : ﴿ وَقَالَتِ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ ﴾ .

ولم يقل مثل ذلك في طه .

٤ - ذكر في طه نعمة ومنه على موسى ، فقد قال : ﴿ وَأَنَا آخَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ
 لِمَا يُوحَى ﴾ .

وقال : ﴿ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى ﴾ ثم ذكر منته عليه في أمر ولادته .

وقال: ﴿وَقَلَّتْ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ﴾ .

وقال: ﴿وَأَصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ .

ولا يناسب ذكر هذه المنن أن يدع أمه تتعذب وتحزن ويثقل الأمر عليها ثم يعيده إليها بعد ذلك. فلم يذكر في طه ما ذكر في القصص ، فجاء بالفعل (رجع) دون (رد) .

٥ - ومما حسن ذلك أن الفعل (رجع) ومتصرفاته ورد في سورة طه أربع مرات ، وفي القصص ثلاث مرات .

وأن الفعل (رد) ومتصرفاته لم يرد في طه ، وورد في القصص ثلاث مرات .

فناسب من جهة أخرى (رجعناك) ما في طه ، و(رددناه) ما في القصص .

٦ - ثم إنه قال: (رددناه) في القصص موافقة لما جاء قبله وهو قوله: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ .
فناسب (رددناه) قوله (رآدوه) .

جاء في (البرهان) للكرمانى: ﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ﴾ وفي القصص ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ﴾ لأن الرجوع إلى الشيء والرد إليه بمعنى . والرد عن الشيء يقتضي كراهة المردود . وكان لفظ الرجع ألطف فخص طه به . وخص القصص بقوله (فرددناه) تصديقاً لقوله سبحانه: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ﴾^(١) .

فناسب استعمال (رجعناك) في طه و(رددناه) في القصص من كل وجه .

(١) البرهان ٢٣٧ .

وهناك أمر آخر حسن استعمال (رددناه) في القصص و(رددت) في الكهف فيما يثقل ، واستعمال (رجعناك) في طه و(رجعت) في فصلت فيما هو أخف ، ذلك أن لفظ (رددنا) أثقل من (رجعنا) ، و(رددت) أثقل من (رجعت) ، وذلك لمكان التضعيف في رددنا ورددت ، فإن التضعيف مستكره ثقيل على اللسان كما قرره علماء اللغة ، ولذلك كثيراً ما يبدل العرب التضعيف إلى حرف مد ، كما في (دسّاه) فإن أصله (دسّسها) ^(١) ، و(تسرّبت) فإن أصله (تسرّرت) ، و(تظنّيت) فإن أصله (تظننت) ^(٢) . و(ربّاه) فإن أصله (ربّبه) كل ذلك على تحويل التضعيف ^(٣) .

جاء في (شرح الرضي على الشافية) : «اعلم أنهم يستثقلون التضعيف غاية الاستثقال ، إذ على اللسان كلفة شديدة في الرجوع إلى المخرج بعد انتقاله عنه» ^(٤) .

وجاء في (تاج العروس) : «دسسه ودسّاه : الأخيرة على البدل كراهية التضعيف» ^(٥) .

فناسب بين ثقل اللفظ وثقل الأمر .

ومن أوجه الاختلاف في الاستعمال بين الفعلين (رجع) و(ردّ) أنه يستعمل (يرجعون) في فواصل الآيات دون (يردّون) نحو ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران : ٧٢] ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء : ٥٨] في آيات كثيرة .

(١) انظر لسان العرب (دسس) ، القاموس المحيط (دسس) .

(٢) لسان العرب (سرر) .

(٣) انظر لسان العرب (ريب) ، تاج العروس (ريب) .

(٤) شرح الرضي على الشافية ٢٣٩/٣ .

(٥) تاج العروس (دسس) .

ومن أوجه الاختلاف في الاستعمال بينهما أيضاً أنه يستعمل مضارع (رجع) بمعنى (تاب) و(أناب إلى ربه) ، بخلاف (رد) فإنه لم يستعمله في مثل هذا المعنى .

قال تعالى : ﴿ وَبَلَّوْنَهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأعراف :

[١٦٨].

وقال : ﴿ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم : ٤١].

وقال : ﴿ وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الزخرف : ٤٨].

أي يرجعون إلى ربهم فيتوبون .

الزوج - السيد :

يستعمل القرآن كلمة (الزوج) لزوج المرأة فيقال : (هو زوجها) ، ولزوج الرجل فيقال : (هي زوجه) كما يقال (هي امرأته) . قال تعالى : ﴿ أَمْسِكَ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ ﴾ [الأحزاب : ٣٧].

وقال : ﴿ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ﴾ [الأنبياء : ٩٠].

وقال : ﴿ وَأَمْرَأَتُهُ قَابِئَةُ فَضْحِكَتِ ﴾ [هود : ٧١].

وقال : ﴿ وَقَدْ بَلَغْنِي الْكِبَرَ وَأَمْرَأَتِي عَاقِرٌ ﴾ [آل عمران : ٤٠].

فهي في هذه الآيات بمعنى زوج الرجل .

وقال : ﴿ فَإِنْ طَلَقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ ﴾ [البقرة : ٢٣٠].

وقال : ﴿ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [البقرة :

[٢٣٢].

وهي هنا بمعنى زوج المرأة .

وقد وردت كلمة (سيد) بمعنى زوج المرأة أيضاً وذلك في موطن

واحد وهو قوله تعالى: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ﴾ [يوسف: ٢٥].

ولم يستعمل هذه اللفظة لهذا المعنى في موطن آخر. وذكر بعض أهل اللغة أن (سيدها) بمعنى (زوجها) ليست في كلام العرب وإنما هي بلسان القبط^(١). أي بلسان المصريين القدماء.

والطريف أنه استعمل هذه اللفظة في قصة يوسف ، أي بلسان من كان يستعملها في القديم.

وهذا من لطيف الاستعمال ، وهو نظير استعمال اليم في قصة موسى .

السَّنة - العام - الحِجَّة:

استعمل القرآن السنة والعام ، كما استعمل الحجج بمعنى السنين . وقد حاول أهل اللغة أن يفرقوا بين السنة والعام .

وأشهر ما قيل في التفريق بينهما أن السنة تستعمل في القحط ولمعنى الأزمة ، وأن العام يستعمل في عام الخصب والرخاء . قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٠] أي بالقحوط .

وقال: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْرِضُونَ﴾ [يوسف:

[٤٩].

جاء في (نظم الدرر) للبقاعي في قوله تعالى: ﴿فَلَيْتَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤].

«وعبر بلفظ (سنة) ذمّاً لأيام الكفر .

وقال (عاماً) إشارة إلى أن زمان حياته عليه الصلاة والسلام بعد إغراقهم كان رغداً واسعاً حسناً بإيمان المؤمنين وخصب الأرض»^(٢).

(١) الإتقان ١/٤٠١ .

(٢) نظم الدرر ٥/٥٤٣ .



ومما قيل في التفريق بينهما أيضاً أن السنة تكون: «من أي يوم عدده إلى مثله. والعام لا يكون إلا شتاء وصيفاً. فإذا عددت من اليوم إلى مثله فهو سنة يدخل فيه نصف الشتاء ونصف الصيف. والعام لا يكون إلا صيفاً وشتاء. فالعام أخص من السنة. فكل عام سنة وليس كل سنة عاماً»^(١).

ويبدو أن في هذا التفريق تكلفاً ، فقد استعمل القرآن العام فيما لا يدل على أنه شتاء وصيف وذلك كقوله تعالى: ﴿وَفِصْلُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ [لقمان: ١٤] ، وقوله: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ [التوبة: ١٢٦]. وغير ذلك من الاستعمالات.

لقد خالف القرآن بين السنة والعام في الاستعمال.

فقد استعمل العام للعام الواحد ، واستعمل العامين للمثنى ، واستعمله بعد العدد ، غير أنه لم يجمع كلمة العام ، فلم ترد في القرآن كلمة (أعوام).

قال تعالى: ﴿يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا﴾ [التوبة: ٣٧].

وقال: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ [التوبة: ٢٨].

وقال: ﴿وَفِصْلُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ [لقمان: ١٤].

وقال: ﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

فاستعمل العام للواحد ، والعامين للاثنين ، وبعد العدد (مائة عام) ، ولم ترد كلمة (أعوام).

أما السنة فلم يستعملها للمفرد ولم يستعملها في المثنى ، بل وردت كلها في الجمع بعد العدد أو من غير عدد نحو قوله: ﴿لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [البقرة: ٩٦] ، وقوله: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ [الكهف: ١١].

(١) تاج العروس (عام).

ولقد استعمل السنة بلفظ المفرد واستعملها مجموعة جمع مذكر سالماً ، قال تعالى : ﴿ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ﴾ [الإسراء : ١٢] .

وقال : ﴿ فَلَيْتَ فِي السَّجَنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ [يوسف : ٤٢] .

ولم يستعملها مجموعة جمع مؤنث سالماً .

أما (الحجة) بمعنى السنة فلم تأت بلفظ الأفراد وإنما جاءت مجموعة مرة واحدة وهو قوله : ﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ بِكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حَبِيبٌ ﴾ [القصص : ٢٧] .

وأصل معنى الحجة من الحج وهو القصد للزيارة ، واختص بالعبادة المعروفة ، والحج إنما يكون مرة واحدة في العام فصارت الحجة بمعنى السنة .

وقد استعملت في هذه الآية لفظ الحجج دون السنين مناسبة للمقام والسياق الذي وردت فيه ، ذلك أن موسى - كما ورد في هذا السياق - جاء فاراً من مصر إلى مدين ، وليس هو من أهل مدين ، فهو إذن زائر ولا بد أن يترك مزوره ويعود ، كالحاج إذا قضى حجه فإنه لا بد أن يعود .

ثم إنه ذكر أنه أصبح أجيراً لدى الرجل الصالح . وقد ورد لفظ الاستئجار والإجارة في هذا السياق ، قال تعالى : ﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَأَبَتِ اسْتَجِرْهُ إِنِّي خَيْرٌ مِمَّنْ اسْتَجَرَكَ الْفَوِيُّ الْآمِينُ ﴾ [القصص : ٢٦] .

وقال الرجل الصالح : ﴿ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ بِكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حَبِيبٌ ﴾ [القصص : ٢٧] .

والأجير يترك مستأجره إذا قضى أجله ، والإجارة إنما تكون لمدة متفق عليها ، فلما ذكر الإجارة والاستئجار ناسب ذكر الحجج ؛ لأن الحجة لا تناسب الإقامة من حيث معناها اللغوي . ولذلك قال بعدها :

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ﴾ [القصص: ٢٩] فناسب ذكر الحجج من جهتين :

من جهة أنه جاء المدينة فاراً وليس هو من أهل المدينة .

ومن جهة كونه مستأجراً في غير دار إقامته .

وقد تقول : ولكنه قال في سورة طه : ﴿ فَلَيْسَتْ سِينٍ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَمْوَسَىٰ ﴾ [طه: ٤٠] .

ولم يقل (لبثت حججاً) فما الفرق ؟ .

والجواب أنه لم يذكر في سورة طه فرار موسى إلى مدين ولا استجاره لصاحب مدين ولا قضاء الأجل ، فناسب ذكر الحجج في القصص دون طه والله أعلم .

الغرف - الغرفات:

الغرف والغرفات كلتاها جمع الغرفة ، غير أن الغرفات جمع قلة والغرف جمع كثرة .

وقد وردت الغرف في موطنين وهما قوله : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ [٥٨] الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿ [العنكبوت: ٥٨ - ٥٩] .

وقوله : ﴿ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّنْ فَوْقِهَا غُرْفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ الْمِعَادَ ﴾ [الزمر: ٢٠] .

ووردت الغرفات في موطن واحد وهو قوله : ﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴾ [سبا: ٣٧] .

فقد قال في آيتي العنكبوت والزمر: (غرف) وقال في سورة سبا:

(الغرفات) وذلك أن الجزاء في آيتي العنكبوت والزمر أعلى مما في سبأ .
فقد جاء في آية العنكبوت :

١ - بجمع الكثرة (غرف) .

٢ - وذكر أنها تجري من تحتها الأنهار .

٣ - وأنهم خالدون فيها .

وذلك لزيادة في صفات أصحابها فقد ذكر أنهم :

١ - آمنوا .

٢ - عملوا الصالحات .

٣ - وذكر أنهم عاملون ﴿ نِعَمَ أَجْرُ الْعَمَلِينَ ﴾ .

٤ - وأنهم صبروا .

٥ - وعلى ربهم يتوكلون .

وذكر في الزمر أنهم اتقوا ربهم ، فذكر أن لهم غرفاً وأنها تجري من تحتها الأنهار .

أما في سبأ فلم يذكر إلا من آمن وعمل صالحاً ، فجاء بالغرفات ولم يذكر أنها تجري من تحتها الأنهار . ولا شك أن المتقي أعلى من مجرد المؤمن ، فقد يكون الشخص مؤمناً ولكن غير متق . فكل متق مؤمن ولكن ليس كل مؤمن متقياً .

فلما زاد في الوصف زاد في الأجر .

فناسب كل تعبير موطنه .

وهناك أمر آخر حسن كل تعبير في موضعه . وهو أنه ذكر مع جمع الكثرة - أعني الغرف - (الذين آمنوا) و(الذين اتقوا) .

و(الذين) جمع الذي ، فهو نص في الجمع .

وذكر مع جمع القلة أعني - (الغرفات) - ﴿مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾
فجاء بـ (من) التي لفظها يفيد الإفراد ، وجاء بعدها بضمير المفرد (من
آمن وعمل) فناسب جمع القلة .

فناسب الجمع - أعني (الذين آمنوا) و(الذين اتقوا) - جمع الكثرة .

وناسب الإفراد أي (من آمن وعمل) جمع القلة .

الكفل - النصيب :

الكفل هو الحظ والنصيب والمثل .

والنصيب هو الحظ أيضاً .

قال تعالى : ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَعَةً
سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ [النساء : ٨٥] .

فقال في الشفاعة الحسنة (نصيب) وفي الشفاعة السيئة (كفل) . ذلك -
والله أعلم - أن من معاني الكفل (المثل) ^(١) أما النصيب فقد يكون قليلاً أو
كثيراً . فذكر أن للشفاعة الحسنة نصيباً منها للشافع ، ونصيب الحسنة كبير
لأن الحسنة بعشر أمثالها ، وذكر أن للشفاعة السيئة مثلها وذلك لأن السيئة
يجزى صاحبها مثلها ، قال تعالى : ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾
[النمل : ٨٩] ، وقال : ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [الأنعام : ١٦٠] .

أما ما ذكره بعضهم من أن الكفل إنما هو النصيب الرديء ، والنصيب
إنما هو للحظ الحسن فلا يصح ؛ لأن القرآن استعملهما كليهما في
الحسن والرديء ، قال تعالى : ﴿وَإِذْ يَتَحَاوَرُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ

(١) لسان العرب (كفل) .

لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ [غافر: ٤٧].

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفَايَيْنِ مِّن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الحديد: ٢٨].

جاء في (روح المعاني) في الكفل والنصيب: «وفرق بينهما بعض المحققين بأن النصيب يشمل الزيادة ، والكفل هو المثل المساوي . فاختيار النصيب أولاً لأن جزاء الحسنة يضاعف ، والكفل ثانياً لأن من جاء بالسئية لا يجزى إلا مثلها . ففي الآية إشارة إلى لطف الله تعالى بعباده» (١).

المهد - المهاد:

المهد هو مهد الصبي ، وهو موضعه الذي يهياً له لينام فيه ، قال تعالى: ﴿كَيْفَ نُنَكِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [مريم: ٢٩].

أما المهاد فهو الفراش . قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا﴾ [النبا: ٦] ، وقال: ﴿لَهُمْ مِّنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١].

جاء في (لسان العرب): «المهاد: الفراش . . . يقال للفراش مهاد لوثارته . وفي التنزيل ﴿لَهُمْ مِّنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ . . . الأزهري: المهاد أجمع من المهد كالأرض جعلها الله مهاداً للعباد . . .

المهد: مهد الصبي . ومهد الصبي موضعه الذي يهياً له ويوطأ لينام فيه . وفي التنزيل ﴿مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾» (٢).

لقد استعمل القرآن هاتين الكلمتين فقال تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ

(١) روح المعاني ٩٨/٥ .

(٢) لسان العرب (مهد).

الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ﴿٥٣﴾ ، وقال : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ﴾ [الزخرف : ١٠].

فاستعمل (المهد) للأرض .

وقال : ﴿ أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ مَهْدًا ﴾ [النبا : ٦].

فاستعمل لها المهاد .

فقال عن الأرض مرة إنها مهد وقال مرة إنها مهاد وذلك بحسب ما يقتضيه السياق .

فقال في المهد : ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ﴾ ﴿٥١﴾ قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ﴿٥٢﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى ﴿٥٣﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَمَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٥٤﴾ [طه : ٥١ - ٥٤].

وقال في الزخرف : ﴿ وَلَيْنَ سَأَلْنَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾ ﴿٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدِرُ فَأَنْشَرَنَا بِهِ بَلَدَهُ مَيْتًا كَذَلِكَ نُخْرِجُوهَا ﴿١١﴾ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ [الزخرف : ٩ - ١٢].

وقال في المهاد : ﴿ أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ مَهْدًا ﴾ ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْتُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبُلًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ [النبا : ٦ - ١٦].

فاستعمل في سياقي طه والزخرف (المهد) وفي النبا (المهاد) ، وذلك أنه لما كان المهد إنما هو للطفل وهو موضعه الذي يهيا له ويوطأ له لينام فيه ، والطفل لا يقوم بنفسه ولا يصلح نفسه بنفسه وإنما هو محتاج إلى

من يقوم عليه ويهيء له أسباب البقاء ذكر في سياق المهد أنه إنما هياً له
النعم وجعلها له فقال :

﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا ﴾ و ﴿ وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ﴾ فجعل الأرض
لهم مهداً والسبل لهم . وقال : ﴿ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ ﴾ فقد هياً ذلك لهم .

وقال في الزخرف : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا ﴾ و ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ
فِيهَا سُبُلًا ﴾ فجعل الأرض لهم وجعل السبل لهم . ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ
وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴾ فجعل الفلك والأنعام لهم .

ولما ذكر المهاد وهو ليس خاصاً بالطفل لم يذكر ذلك ، فلم يقل إنها
جعلها لهم . فقد قال ﴿ أَلَمْ يَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا ﴾ ولم يقل (لكم) وكذلك بقية
الآيات . فعدد مظاهر قدرته ولم يذكر أن ذلك لهم ، فلم يقل إنه أنزل
الماء لهم وأخرج الحب والنبات والجنات ليأكلوا منها . وإنما قال :
﴿ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴾ أي وقت طلب المعيشة ، وهذا يقوم به الراشد وليس
من في المهد .

فناسب كل من المهد والمهاد ما ورد في سياقه .

وقد تقول : ولم قال في طه : ﴿ وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ﴾ .

وقال في الزخرف : ﴿ وَجَعَلَ لَكُم فِيهَا سُبُلًا ﴾ .

والحق أن ذلك ليس هو الاختلاف الوحيد بين السياقين ، فهناك أكثر
من موطن اختلاف منها :

طه	الزخرف
سلك لكم فيها سبلاً	جعل لكم فيها سبلاً
وأنزل	والذي نزل (بزيادة الذي)
أنزل	نزل



بقدر

فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى

فأنشرنا به بلدة ميتاً

—

كلوا وارعوا أنعامكم

إن في ذلك لآيات لأولي النهى

وكذلك تخرجون

أما سبب ذلك - والله أعلم - فإن المقام في طه هو مقام التلطف والكلام اللين مع فرعون ، فقد قال تعالى لموسى : ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ [طه : ٤٤] بخلاف ما في الزخرف فإنه في مقام التقرير والتحذير وبيان قدرة الله البالغة ، فقد قال تعالى : ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴾ [٥] وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَّبِيِّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَنْعْنِي مِثْلَ الْأَوَّلِينَ ﴾ [الزخرف : ٥ - ٨] .

فالمقام مختلف فاختلف التعبير تبعاً لذلك :

١ - فقد قال في طه : ﴿ وَسَلِّكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ﴾ .

وقال في الزخرف : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ﴾ .

و(سلك) أيسر من (جعل) فقد ذلّلها لهم لسلوك سبلها وهو المناسب لمقام التلطف . ثم إن فعل السلوك ورد في طه ولم يرد في الزخرف .

وإن الفعل (جعل) ورد في الزخرف أكثر مما ورد في طه ، فقد ورد في طه ثلاث مرات وفي الزخرف (١٢) اثنتي عشرة مرة .

فناسب كل فعل موطنه من كل جهة . جاء في (ملاك التأويل) : «المراد بسلك وجعل ما خلق وذللّ سبحانه فيها . . .

إن آية طه مقصود بها التلطف بالدعاء إلى الله على ما تقدم من أمره تعالى لموسى وهارون عليهما السلام في قوله : ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا ﴾ فلما

بنى الكلام على هذا وأعقبه بقوله: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى ۖ كُلُّوْا وَارْعَوْا أَنْعَمَكُمْ﴾ ولا إشكال فيما في هذا من التلطف والرفق في الدعاء ، ناسب ذلك العبارة بسلك عما أنهج تعالى من السبل والطرق لمرافق العباد ومصالحهم وهي منبئة عما يعطيه (جعل) في الآية الأخرى مع زيادة الوضوح وكمال التهيئة ، فهي أنسب لما قصد في هذه السورة بقول منهج سالك ، أي واضح بيّن . ولو قلت مجعول لم يعط هذا المعنى من الوضوح .

أما آية الزخرف فمبنية على توبيخ من كفر من العرب وتقريعهم ، ألا ترى قوله سبحانه: ﴿أَفَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ ، وقوله: ﴿فَاهْلِكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا﴾ أي من هؤلاء الذين كذبوك يا محمد . فهذا كله من توبيخ الجاحدين والمعاندين . . .

وأيضاً فقد اكتنف لفظ (جعل) في الزخرف قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ وقوله بعدها: ﴿وَجَعَلْ لَّكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَمِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ فناسب هذا ذكر الجعل ، ولم يكن ليناسب هنا هذه المناسبة لفظ سلك^(١) .

وجاء في (البرهان) للكرمانى: «قوله تعالى: ﴿وَسَلَكْ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ وفي الزخرف ﴿وَجَعَلْ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ لأن لفظ السلوك مع السبل أكثر استعمالاً فخص طه به . وخص الزخرف بجعل ازدواجاً للكلام وموافقة لما قبلها وهو ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ وما بعدها ﴿وَجَعَلْ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ﴾ ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ﴾ ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً﴾^(٢) .

٢ - قال في طه ﴿وَأَنْزَلَ﴾ .

(١) ملاك التأويل ٢/ ٦٨٤ - ٦٨٥ .

(٢) البرهان ٢٣٧ .

وقال في الزخرف: ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ﴾.

بتكرار (الذي). ذلك أن الكلام في طه جواب عن سؤال عن القرون الأولى ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾.

﴿قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ ﴿٥٢﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ...﴾.

في حين كان السؤال في الزخرف عن الذي خلق السماوات والأرض ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ [الزخرف: ٩ - ١٢].

والجواب بـ (الذي) أنسب بالسؤال عن الخالق ، بخلاف ما في طه الذي هو في سياق الجواب عن القرون الأولى فلم يذكر (الذي).

فكان التصريح بـ (الذي) في الزخرف أنسب ، وعدم ذكره في طه أنسب. وهذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أن كلمة (الذي) تردت في سورة (طه) (٦) ست مرات ، وفي الزخرف (١٢) اثنتي عشرة مرة.

فكان كل تعبير في مكانه أنسب من جهة أخرى.

ومن المناسب أن نذكر ههنا أمراً آخر وهو أن قوله: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ في الزخرف مناسب لما ورد في آخر السورة وهو قوله: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [الزخرف: ٨٧].

وأن قوله في طه: ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ مناسب لما ورد في آخر السورة ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْكِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ

لَا يَلَيْتُ لِأَوَّلَى النَّهْيِ ﴿طه: ١٢٨﴾ ، ومناسب لقوله ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأَوَّلَى﴾ [١٣٣] .

فكان كل تعبير مناسباً في مكانه من كل ناحية .

٣- قال في طه : ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ .

وقال في الزخرف : ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ .

فقال في طه (أنزل) وفي الزخرف (نزل) .

و(نزل) يفيد المبالغة والتكثير .

فقال في طه : ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى﴾ .

وقال في الزخرف : ﴿فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ .

وما يقتضيه من الماء في الزخرف أكثر مما في طه ؛ لأنه قصره في طه على إخراج أزواج من النبات .

أما في الزخرف فذكر أنه نشور للبلدة الميتة ، وهذا لا يقتصر على النبات ، فإن النبات جزء من البلدة الميتة فهو نشور للنبات والحشرات والأنعام وغيرها من الأحياء التي تتغذى على النبات ومن يستفيد منها .

ومن ذلك أن يكون للشرب ، فذلك من نشور البلدة الميتة ، فإن لم يكن ماء يشرب منه الإنسان والأحياء هلك وهلك . فهو نشور لعموم البلدة الميتة بكل ما فيها . فافتضى ذكر ما يدل على المبالغة والتكثير .

ثم إنه قال في طه : ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى﴾ .

وقال في الزخرف : ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ .

فذكر الأزواج كلها .

فما في الزخرف أكثر .



ثم إنه قال في طه: ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ﴾ فجعل الماء للأكل ورعي الأنعام.

أما في الزخرف فلإنشار البلدة الميت فكان ما في الزخرف أكثر. فناسب ما في (طه) أنزل.

وناسب ما في (الزخرف) نزل.

ثم إن (أنزل) ورد في طه ثلاث مرات ولم يرد في الزخرف.

وأما (نزل) فورد مرة في كلتا السورتين.

فناسب (أنزل) ما في طه من جهة أخرى.

٤ - ناسب قوله في طه: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى﴾ قوله: ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ﴾.

وناسب قوله في الزخرف: ﴿فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلَدَةً مَّيْتًا﴾ قوله: ﴿كَذَلِكَ نُخْرِجُكَ﴾.

٥ - قال في الزخرف: ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدَرِ﴾.

ولم يقل في طه (بقدر).

ذلك أن القدر أو المقدار جار في سورة الزخرف في أكثر من موطن ، فقد قال: ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ [الزخرف: ٣٣].

أي إنما يفعل ذلك بقدر.

وقال: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [٣٢].

أي إنما يفعل ذلك بقدر.

وقد عاب على المسرفين أي الذين لا يفعلون بقدر ، قال تعالى :
﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴾ [الزخرف: ٥].
فناسب قوله (بقدر) جو السورة . والله أعلم .

* * *



من خواص الاستعمال القرآني

استعمل القرآن الكريم قسماً من المفردات أو التعبيرات لمعنى معين أو خصّها بمعنى من بين معاني المفردة أو التعبير ، وذلك نحو ما ذكر في الريح والرياح ، والأعين والعيون ، وما إلى ذلك .

وسنذكر قسماً من هذه المفردات أو التعبيرات وهو من باب التمثيل وليس من باب الاستقصاء . وذلك مما يدل على أن التعبير القرآني إنما هو تعبير مقصود . وأود أن أشير إلى أن كثيراً من خواص الاستعمال ذكرناه في باب المفردات والصفات ، وأشرنا أيضاً إلى اقتران قسم من أسماء الله الحسنى ببعضها كاقتران (الغفار) بـ (العزیز) دون غيره من أسماء الله الحسنى ، واقتران (القهار) بـ (الواحد) دون غيره . وغير ذلك .

كما أشرنا إلى طرف من خواص الاستعمال عند عرضنا للتعبير القرآني في كتبنا المتعددة .

وسنذكر طرفاً من ذلك ههنا وهو كما ذكرت من باب التمثيل .
فمن ذلك :

١ - أنه استعمل (الإقامة) لما يقابل الظعن والسفر ، وخص استعمال (الإقام) بالصلاة نحو (إقام الصلاة) .

٢ - استعمل القرآن الكريم الفعل (جاء) ماضياً ولم يستعمل منه غير الماضي ، فلم يأت منه بمضارع ولا أمر ولا اسم فاعل ولا اسم مفعول .

بخلاف (أتى) فقد ورد منه ذلك .

٣ - وردت كلمة (عام) مفردة ومثناة في القرآن ولم ترد مجموعة ، فإنه لم ترد فيه كلمة (أعوام) .

ووردت كلمة (سنة) مفردة ومجموعة جمع مذكر سالماً ، ولم ترد مثناة ولا مجموعة جمع مؤنث سالماً .

٤ - لم يستعمل غير (يا) من حروف النداء .

٥ - لم يرد التعبير (يغفر لكم ذنوبكم) أي من دون ذكر (من) في غير الأمة المسلمة أمة محمد ﷺ .

أما ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ فقد ورد في غيرها من أمم الأنبياء السابقين .

وورد أيضاً على لسان الجن الذين آمنوا بمحمد ﷺ في قولهم لقومهم ﴿يَقُومَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَءَامِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ [الأحقاف: ٣١] .

٦ - كل المواطن التي اجتمع فيها اسما الله العظيم (الغفور) و(الرحيم) قدم فيها (الغفور) على (الرحيم) إلا موطناً واحداً وهو قوله في سبأ: ﴿وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ .

٧ - كل الحروف جاءت فواصل للقرآن إلا حرف الخاء .

٨ - قوله تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ لم يرد إلا في سورة البقرة ، وقد ورد فيها أربع مرات .

٩ - لم يرد إسناد إرادة السوء أو الضر إلى (الرب) بل يسند ذلك إلى الله سبحانه ، وأقصد بذلك إسناد الفعل (أراد) ، وذلك نحو قوله: ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ يَقُومِ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ﴾ [الرعد: ١١] ، وقوله: ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ [الفتح: ١١] .

أما غير فعل الإرادة فقد يسند ذلك إلى الرب كالعقوبات وغيرها نحو قوله: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢] ، وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ [الفجر: ٦] .

١٠ - لم يرد الإعطاء مع غير (الرب) من أسماء الله الحسنى .

١١ - ورد الدعاء كثيراً مع لفظ (الرب) ولم يرد مع (اللهم) وحدها إلا في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِّنْ عِنْدِكَ فَآمِطْ رِّعَانَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢] .

ولا يناسب ذكر الرب ههنا لأنه دعاء بالعذاب على أنفسهم فلا يصح طلب ذلك من ربهم الذي هو متولي أمرهم ومربيهم والقيم على أمرهم ورازقهم .

وقد اقترن لفظ (الرب) مع (اللهم) في قوله تعالى: ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [المائدة: ١١٤] .

وأما قوله سبحانه في أهل الجنة: ﴿دَعَوْهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ [يونس: ١٠] فليس دعاء ، إذ ليس فيه طلب شيء ولا مسألة حاجة .

١٢ - خص كلمة (الصوم) بمعنى الصمت ، ولم يرد بمعنى العبادة المعروفة .

ولم يرد للعبادة المعروفة إلا (الصيام) .

١٣ - استعمل (البررة) للملائكة فقط ولم يستعملها للبشر .

ولم يستعمل للمكلفين إلا (الأبرار) .

١٤ - خص لفظ (القاعدين) جمع قاعد بالقيود عن الجهاد ، ولم

يستعمل للقعود نقيض القيام إلا (القعود) جمع قاعد وذلك نحو قوله : ﴿ قِيَمًا وَفُئُودًا ﴾ .

١٥ - خص لفظ (القائمين) جمع قائم بالقيام بأوامر الله ، ولم يستعمل للقيام نقيض القعود إلا (القيام) جمع قائم .

ولعل من أسباب ذلك الدلالة على القلة والكثرة النسبية . فإن الجمع السالم الأصل فيه أن يكون للقلة كما هو معلوم . ولا شك أن القاعدين عن الجهاد أو القائمين بأمر الله أقل بكثير من الذين يقومون ويقعدون بمعنى القيام والقعود الحقيقي .

فاستعمل الجمع السالم للقلة ، وجمع التكسير الدال على الكثرة للكثرة والله أعلم .

١٦ - لم يستعمل (الموتى) جمع (ميت) إلا لمن مات حقيقة .

وأما (الأموات) فاستعملها عامة لمن ماتوا أو لغيرهم .

وأما (الميتون) فاستعملها لمن لم يميت بعد .

١٧ - لم يستعمل (الحمير) جمع حمار إلا للحمير الأهلية ، وأما (الحمُر) فاستعملها للحمير الوحشية .

١٨ - لم يستعمل الفعل (سلك) في الآخرة إلا للدخول في النار ، ولم يستعمله للدخول في الجنة .

أما الدخول فإنه يستعمله في الجنة والنار .

١٩ - لم يستعمل في أصحاب الجنة إلا (خالدين) بالجمع ولم يستعمل فيهم (خالداً) بالافراد وذلك لزيادة الأنس مع الجمع .

وأما في أصحاب النار فاستعمل المفرد والجمع .

٢٠ - لم ترد (المساكن) في الجنة إلا مع (عدن) ولعل من أسباب ذلك



أن العدن هو الإقامة ، وهي بها حاجة إلى المسكن .

٢١ - لم يرد الفعل (عبد) متعدياً إلى (من) بل إلى (ما) نحو قوله تعالى : ﴿ لِمَ تَعْبُدُونَ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ ﴾ [مريم : ٤٢] ، وقوله : ﴿ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ [المائدة : ٧٦] .

٢٢ - استعمل (الكفران) لما يقابل الشكر .

٢٣ - خص كلمة (عالم) بعلم الغيب مفرداً فيقول : ﴿ عَلِمِ الْغَيْبِ ﴾ أو ﴿ عَلِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ .

وخص كلمة (علام) بالغيوب وهو جمع الغيب مناسبة للمبالغة .
وأما كلمة (عليم) فاستعملها مطلقة .

٢٤ - استعمل القرآن الكريم مع الوزن لفظ (القسط) ولم يستعمل العدل .

٢٥ - إن كلمة (العاقبة) حيث جعل لها الفعل بلفظ التذكير نحو : ﴿ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ فهي بمعنى العذاب .

وحيث جعل لها الفعل بلفظ التأنيث نحو ﴿ تَكُونُ لِمُعَقِّبَةِ الدَّارِ ﴾ فهي بمعنى الجنة . فناسب بين اللفظ والمعنى .

٢٦ - استعمل (الغيث) في الخير ، و(المطر) في العقوبات والشر .

واستعمل (الودق) في غير ذلك وذلك نحو قوله تعالى : ﴿ فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ﴾ [النور : ٤٣ ، الروم : ٤٨] .

٢٧ - إذا ذكر الإحسان إلى الأب والأم والبر بهما أو الدعاء لهما فإنه يذكر ذلك بلفظ (الوالدين) ولا يذكره بلفظ (الأبوين) .

٢٨ - ورد في القرآن قوله : ﴿ رَحْمَةً مِنَّا ﴾ و﴿ نِعْمَةً مِنَّا ﴾ . ولم يستعمل ﴿ رَحْمَةً مِنَّا ﴾ إلا خاصة بالمؤمن .

وأما ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ فاستعملها عامة للمؤمن والكافر .

٢٩ - ونحو ذلك قوله: ﴿نِعْمَةً مِّنَّا﴾ و﴿نِعْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ فخص ﴿نِعْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ بالمؤمن . واستعمل ﴿نِعْمَةً مِّنَّا﴾ للمؤمن والكافر .

٣٠ - كل سورة أسند فيها الفعل (وعد) إلى (الله) لم يرد فيها اسم (الرحمن) وإن كانت طويلة كسورة النساء والمائدة والتوبة وغيرها .

٣١ - كل ما أسند فيه الوعد إلى لفظ الجلالة (الله) فهو مخصص سواء بالمؤمنين أم بالكافرين فيقول مثلاً: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أو ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ﴾ .

أما إذا أسند فيه الوعد إلى (الرحمن) فهو وعد عام للعباد وذلك نحو قوله تعالى: ﴿جَنَّتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ﴾ [مريم: ٦١] .

٣٢ - معنى ﴿حَقَّ الْقَوْلُ﴾ في القرآن (ثبت العذاب) .

٣٣ - لم يرد في القرآن نحو قوله: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ، وقوله: ﴿وَمَا يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في المؤمنين ، وإنما ورد ذلك في الكافرين أو لعموم الخلق .

وأما ذكر الجزاء مع الباء نحو ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧] فيكون للمؤمن والكافر .

٣٤ - إذا عبر الله سبحانه عن نفسه بضمير الجمع فلا بد أن يتبعه أو يسبقه بما يدل على الأفراد لإفادة أن المقصود بذلك إنما هو الله وأن هذا الضمير للتعظيم ولئلا تكون في الذهن شائبة شرك .

٣٥ - إذا ورد فعل التسبيح معدى باللام نحو (سبح الله) استعمله ربنا مع العاقل وغير العاقل نحو قوله: ﴿تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ [الإسراء: ٤٤] ، وقوله: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ ﴿٦١﴾ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ



وَلَا يَبِيعُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴿النور: ٣٦-٣٧﴾.

وإذا ورد معدى بنفسه خصه بالعاقل فلا يستعمله مع غير العاقل وذلك نحو قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ (الأحزاب: ٤١-٤٢).

٣٦ - كل سورة افتتحت بالتسبيح بالفعل الماضي نحو ﴿سَبِّحَ لِلَّهِ﴾ جرى فيها ذكر للقتال.

وأما التي تفتتح بالفعل المضارع أي (يسبح لله) فلا يذكر فيها القتال.

٣٧ - كل آية تكررت فيها (ما) بعد فعل التسبيح نحو قوله: ﴿سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أعقب ذلك بالكلام على أهل الأرض.

وإذا لم يكرر (ما) نحو قوله: ﴿سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فلا يعقبها بالكلام على أهل الأرض.

٣٨ - كل ما ورد في الجنة من الأنهار إنما جاء بالجمع إلا في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ الْفُتَيْنِ فِي جَنَّتٍ وَنَهْرٍ﴾ [القمر: ٥٤] جاء بالمفرد ، ومما فسر به النهر هنا: السعة والضياء إضافة إلى النهر المعروف.

٣٩ - إذا ذكرت (الأنهار) في الجنة وصفت بالجريان فيقول: ﴿تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أو نحو ذلك إلا ما ورد في قوله تعالى في سورة محمد: ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾ [محمد: ١٥].

ولما لم توصف بالجريان وكان ذلك مظنة الأسون قال: ﴿غَيْرِ آسِنٍ﴾ ليزيل هذا الظن.

٤٠ - لم يناد موسى بني إسرائيل بقوله: (يا بني إسرائيل) وإنما يناديهم بـ ﴿يَقَوْمٍ﴾.

ولم يناد عيسى بني إسرائيل بـ (يا قوم) بل ﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ﴾ لأنه ليس له نسب فيهم .

٤١ - لم يرد في القرآن (إن لنا الدنيا والآخرة) أو (الآخرة والدنيا) بل كل ما ورد في نحو هذا ذكر (الأولى) مع الآخرة وذلك نحو: ﴿فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى﴾ و﴿وَإِنَّا لِلْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ .

٤٢ - لم يرد في القرآن إسناد الفعل (أعدّ) إلى الضمير (نا) ، فإنه لم يرد فيه (أعددنا) كما لم يرد الفعل (أعتد) مسنداً إلى الله إلا بضمير التعظيم أي ﴿أَعْتَدْنَا﴾ .

٤٣ - ورد في القرآن ﴿مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ ونحوه كثيراً .

ولم يرد فيه ﴿هِيَ مَوْلَانَكُمْ﴾ إلا في سورة الحديد - الآية ١٥ .

٤٤ - لم يرد في القرآن (عليه الله) بكسر الهاء أو ضمها في (عليه) إلا في سورة الفتح في قوله: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِصْرُوتِهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ .

٤٥ - لم يرد ضمير الغيبة في فعل مكسوراً وقبله كسرة وقبلهما حركة أي ثلاث حركات متوالية على النحو الآتي:

حركة + حرف مكسور + ضمير الغيبة مكسوراً .

وجاء قوله: ﴿وَيَتَّقِهِ﴾ [النور: ٥٢] وقياسه أن يكون كذلك ، غير أنه ورد بسكون القاف .

٤٦ - لم يرد في سورة البقرة (إن ربك غفور رحيم) بل كل ما ورد فيها ﴿إِنَّكَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ونحوه .

ولم يرد في سورة الأنعام (إن الله غفور رحيم) ، وإن كل ما ورد فيها ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ونحوه .



٤٧ - لم يرد في سورة الأنعام نحو قوله : (عليم حكيم) بتقديم العليم على الحكيم بل كل ما ورد فيها ﴿حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ بتقديم الحكيم على العليم.

ولم يرد في سورة يوسف إلا ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ بتقديم العليم على الحكيم.
وغير ذلك وغيره.

* * *



التوكيد

من المعلوم أن التوكيد يكون في الكلام بحسب الحاجة إليه ، فإن لم يكن بالكلام حاجة إلى التوكيد لا يؤكد ، وإن كان به حاجة إلى ذلك فعلى قدر الحاجة . فإن كان يحتاج إلى مؤكد واحد أكد بمؤكد واحد ، وإن احتاج إلى أكثر من ذلك أكد بحسب ذلك .

وهذا واضح في التعبير القرآني . فقد يأتي التعبير فيه خالياً من التأكيد وقد يأتي مؤكداً بمؤكد واحد أو أكثر . ونريد أن نوضح هنا شيئاً من ذلك :

١ - قال تعالى في سورة المرسلات : ﴿ كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴾ [المرسلات : ١٨] من دون تأكيد .

وقال في الصافات : ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴾ [الصافات : ٣٤] بالتوكيد بـ "إنا" .

وذلك أن الكلام على المجرمين في سورة المرسلات في ثلاث آيات وهي قوله : ﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ﴾ [١٦] ثُمَّ نُنَبِّئُهُمُ الْآخِرِينَ ﴿ كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴾ [المرسلات : ١٦ - ١٨] .

في حين كان الكلام على المجرمين في سورة الصافات في عشرين آية تبدأ من قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ [الصافات : ١٩] إلى قوله : ﴿ إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴾ [٣٨] .

وقد أفاض في ذكر صفاتهم وعذابهم فاستحق ذلك التأكيد في

الصفات ، بخلاف ما في المرسلات فإنه لم يذكر شيئاً عن صفاتهم وعقوباتهم .

فناسب عدم التوكيد في آية المرسلات والتوكيد في الصفات .

٢ - جاء في الشورى قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴾ [الشورى : ١٩] .

وجاء في سورة هود : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴾ [١٦] وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِئَرِهِمْ جَثِيمِينَ ﴿ ١٧ ﴾ كَانُوا لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا إِلَّا إِنَّا نَعْتَدُ كَافِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا بُعْدًا لِمُعْتَدٍ ﴾ [هود : ٦٦ - ٦٨] .

فقد قال في الشورى : ﴿ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴾ من دون تأكيد .

وقال في هود : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴾ بالتوكيد بـ (إن) مع ضمير الفصل .

وذلك أن المقام في هود مقام عقوبة للكافرين ونصر للمؤمنين .

أما في الشورى فمقام لطفه بالعباد ورزقه من يشاء منهم وليس مقام عقوبة ، فأكد قوته وعزته في المقام الذي يقتضي ذلك .

٣ - قال تعالى : ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ [١٧] فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿ ١٨ ﴾ [النمل : ١٢ - ١٣] .

وقال : ﴿ وَإِذَا نُنَادِيٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بِيْنَتٍ قَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ [الأحاف : ٧] .

وقال : ﴿ وَإِذَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ يَلِ إِلَهِ رَسُولِ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ

مِنَ النَّوْرِ وَمُبَشِّرًا رَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي أَسْمُهُ أَحْمَدٌ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٦﴾ [الصف: ٦].

فقال في هذه الآيات: ﴿هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ من دون تأكيد.

في حين قال: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [يونس: ٧٦].

بالتوكيد بآن واللام. وهذه هي الآية الوحيدة المؤكدة من بين نظائرها في القرآن الكريم.

ذلك أن الكلام في يونس على السحر والسحرة وقد كرر ذكرهما عدة مرات ، بخلاف الآيات الأخرى فقد قال: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِنَا عِمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَنْتَوِي بِكُلِّ سَحِيرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُّلقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحَرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [يونس: ٧٥-٨١].

فأنت ترى أنه تردد ذكر السحر في أكثر من موضع :

١- ﴿إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

٢- ﴿أَسِحْرٌ هَذَا﴾.

٣- ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾.

٤- ﴿أَتَنْتَوِي بِكُلِّ سَحِيرٍ عَلِيمٍ﴾.

٥- ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا﴾.



٦ - ﴿ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ ﴾ .

في حين لم يرد في سياق الآيات الأخرى في ذكر السحر إلا آية أو جزء من آية .

فقد قال في النمل : ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ ءَايُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ ولم يذكر الآيات ولم يرد ذكر للسحر في هذه القصة في غير هذه الآية .

وكذلك في الأحقاف فقد قال : ﴿ وَإِذَا نُتِيَ عَلَيْهِمْ ءَايُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ .

ولم يرد شيء عن السحر غير هذه .

وكذلك في آية الصف فقد قال : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَحْيَىٰ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ النُّورَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتٍ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ .

فهي جزء من آية ولم يرد شيء في ذلك غير هذا .

فلما فصل وأطال في يونس في ذكر السحر والسحرة ناسب ذلك التوكيد والإطالة . فإن قوله : ﴿ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ أكد وأطول من قوله (هذا سحر مبين) فقد زاد عليه بأن واللام .

فوضع كلاً فيما يناسبه .

٤ - قال تعالى في أربعة مواضع من القرآن الكريم : ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [المائدة : ١٠٨ ، التوبة : ٢٤ ، ٨٠ ، الصف : ٥] من دون توكيد .

وقال في موضع واحد ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [المنافقون : ٦] بالتوكيد بـ (إن) .

ومن النظر في الآيات وسياقها يتضح سبب ذلك .

فقد قال في المائدة : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهْدَةٌ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ

الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ أَثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ . . . فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ . . . ذَلِكَ آدَمُ أَن يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهَيْهَا أَوْ يَخَافُوا أَن تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ آيْنِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَسْمِعُوا اللَّهَ لَا يَهْدِيَ الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٠٦-١٠٨﴾.

وقال في التوبة: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسْكَنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

وقال فيها أيضاً: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿٧٩﴾ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٧٩-٨٠].

وقال في الصف: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَنْقُومُ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعَلَّمْتُمُ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف: ٥].

فلم يؤكد في آية منها .

في حين قال: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ ﴿١﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا فُطِيعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ﴿٣﴾ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسْنَدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ فَنَلَّهْمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ ﴿٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ ﴿٥﴾ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ



إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُوا وَلِلَّهِ خَزَايِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَيْنَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ... ﴿٨﴾ [المنافقون: ١ - ٨].

ومن النظر في الآيات في سورة المنافقون يتبين الفرق بينها وبين الآيات الأخرى ، فإنها أشد الآيات المذكورة تبكيتاً وذمّاً ، فقد حملت على المنافقين وأفاضت في ذكر سوءاتهم والتحذير منهم وفصل في ذلك ما لم يفصله في الآيات الأخرى ، فقد ذكر :

١ - أنهم كاذبون .

٢ - وأنهم اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله .

٣ - وأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم .

٤ - وأنهم جنباء يحسبون كل صيحة عليهم .

٥ - وأنهم هم العدو فاحذرهم .

٦ - قاتلهم الله أنى يؤفكون .

٧ - وأنهم يصدون وهم مستكبرون .

٨ - وأنهم يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله .

٩ - وأنهم يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل .

وغير ذلك فناسب ذلك التوكيد هنا دون الآيات الأخرى .

وأما آيتا المائدة والتوبة ٢٤ فهما في المسلمين ، فلا تحتاجان إلى

مثل هذا التوكيد .

وآية الصف في قول موسى لقومه وهم مؤمنون به . فالسياق في هذه

الآيات مختلف ، فكان التوكيد في مكانه أنسب .

٥ - قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

وقال في سورة النحل: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

فأكد آية العنكبوت بمؤكدين (إن) واللام ﴿وَلِإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾. وأكد آية النحل بمؤكد واحد وهو (إن) ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾.

ذلك أن السياق في العنكبوت في الجهاد فاقتضى تأكيد المعية.

أما في النحل فليس في ذلك وإنما هي في الصبر والمعاقبة بالمثل من دون بغي، وفي النهي عن الحزن، قال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ (١٢٦) وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٦-١٢٨].

والفرق واضح بين الأمرين، فذلك جهاد وهذا صبر أو معاقبة لمن أساء إليه، ولا شك أن موطن الجهاد يقتضي تأكيد المعية أكثر مما في النحل.

ثم لننظر من ناحية أخرى كيف قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ فجاء بالاتقاء بالفعل. ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ بالاسم.

ذلك أن المعاقب ينبغي أن يقف عند عقوبة المثل ولا ينبغي على خصمه، وهذا من باب التقوى وليس من باب الإحسان. فمن عاقب بمثل ما عوقب به فقد اتقى، ومن زاد على ذلك فليس بمتق.

وأما الصبر على ذلك فهو من باب الإحسان وهو أعلى وأفضل ولذلك قال: ﴿وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ فجاء بالأفضل والأمثل بالصيغة



الاسمية الدالة على الثبوت . وبالصفة التي دونها في الفضل بالفعل .

ثم إنه من الملاحظ أنه لم يقل : (إن الله مع الذين اتقوا ومع الذين هم محسنون) لئلا يفهم أنهما صنفان مختلفان .

ولم يقل : (إن الله مع الذين اتقوا وهم محسنون) لئلا يفهم أنهم صنف واحد وأن الله لا يكون إلا مع من جمع التقوى والإحسان .

فهو مع من جمع التقوى والإحسان ومع من لم يجمع بينهما .

٦ - قال تعالى في سورة البقرة : ﴿ وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة : ١٤٥] .

وقال في يونس : ﴿ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [يونس : ١٠٦] .

فقال في البقرة : ﴿ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ بالتوكيد بإن واللام .

وفي يونس : ﴿ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ بالتوكيد بإن دون اللام ، وذلك أن آية البقرة في التحذير من اتباع أهواء الذين أوتوا الكتاب من بعد ما جاءه من العلم ، أي بعد نزول الوحي عليه بالرسالة . ولا شك أن الرسول إذا خالف أوامر ربه واتبع الأهواء فإن ظلمه أكبر ومعصيته أشد .

أما في آية يونس فقد قال له : ﴿ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ﴾ ولم يقل له : (من بعد ما جاءك من العلم) . ولا شك أن معصية الرسول لو حصلت أعظم من معصية غيره ، فكان التوكيد في البقرة أكثر مما في آية يونس .

وأنت تلحظ هذا في بناء كل من الآيتين .

١ - فقد قال في آية البقرة (لئن) باللام الموطئة للقسم .

وقال في يونس (فإن) .

ولا شك أن (لئن) أكد من (فإن) لما وطأت اللام من القسم .

٢ - ثم قال : ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ ﴾ فجاء بـ (من) الدالة على ابتداء الغاية ، أي اتبع أهواءهم بعد نزول الوحي عليه مباشرة ولم يترث . وهذا يعني أنه أسرع إلى المعصية ، وهو أمر أدعى إلى وصفه بالظلم وتوكيده .

فإن قوله : ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ أشد نكراً وظلماً مما لو قال : (بعدما جاءك من العلم) لما فيه من الإسراع إلى المعصية .

٣ - قال : ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ أي بعد إبلاغه بالرسالة ونزول الوحي . وهو أدعى لتوكيد الظلم .

فاستحق ذلك الزيادة في التوكيد على ما في آية يونس والله أعلم .

٧ - قال تعالى في سورة الحجر في امرأة لوط عليه السلام : ﴿ إِلَّا أَمْرَاتُهُ قَدْ رَأَىٰ أَنَّهُمَا لَمَنِ الْغَيْرِيبَ ﴾ [الحجر : ٦٠] .

وقال في سورة النمل : ﴿ قَدْ رَأَىٰ هُمَا لَمَنِ الْغَيْرِيبَ ﴾ [النمل : ٥٧] .

فقال في الحجر : ﴿ قَدْ رَأَىٰ أَنَّهُمَا لَمَنِ الْغَيْرِيبَ ﴾ بالتوكيد بإن واللام .

وقال في النمل : ﴿ قَدْ رَأَىٰ هُمَا لَمَنِ الْغَيْرِيبَ ﴾ من دون توكيد .

وسبب ذلك يتضح من النصين .

قال تعالى في الحجر : ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ۖ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ۚ ۞٥٨ إِلَّا ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمَنْجُوهُمْ أَجْمَعِينَ ۚ ۞٥٩ إِلَّا أَمْرَاتُهُ قَدْ رَأَىٰ أَنَّهُمَا لَمَنِ الْغَيْرِيبَ ۚ ۞٦٠ فَلَمَّا جَاءَ ءَالَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ۚ ۞٦١ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّكَرُونَ ۚ ۞٦٢ قَالُوا بَلْ جِئْتَنَا بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ۚ ۞٦٣ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ۚ ۞٦٤ فَاسْرِبْ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْنِفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ۚ ۞٦٥ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمَرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ۚ ۞٦٦ وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ۚ ۞٦٧ قَالَ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ۚ ۞٦٨



وَأَقْوُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَوْلَمْ نَنْهَكْ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَنَّا لَعْنَكَ إِنَّمَا لَفِيَ سَكْرَتِهِمْ يَوْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حَبَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَلسَّبِيلِ مَقِيمٌ ﴿٧٦﴾ [الحجر : ٥٧ - ٧٦].

وقال في النمل : ﴿ وَلَوْ طَآءَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَلْحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ ﴿٥٤﴾ أَيْنَكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ ﴿٥٥﴾ ﴿ فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ أَلْ لُوطُ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْفُسٌ يَنْطَهَرُونَ ﴾ ﴿٥٦﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴾ [النمل : ٥٤ - ٥٨].

ومن النظر في النصين يتضح ما يأتي :

أ - إن القصة في سورة الحجر أطول مما في النمل فهي عشرون آية ، من الآية السابعة والخمسين إلى السادسة والسبعين .

أما في النمل فهي خمس آيات ، من الآية الرابعة والخمسين إلى الثامنة والخمسين .

وقوله : ﴿ قَدَرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ أطول من ﴿ قَدَرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ لما في الأول من ذكر إن واللام .

فناسب طول الآية طول القصة في الحجر ، وناسب إيجازها في النمل الإيجاز في القصة .

قال في آل لوط في الحجر : ﴿ إِنَّا لَمُنْجُوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ بالتوكيد بإن واللام ، وبـ (أجمعين) وبصيغة الاسم (منجوهم) الدالة على الثبوت ، فناسب ذلك التوكيد في قوله : ﴿ إِنَّا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ .

ولم يسبق الآية في النمل توكيد ، فقد قال قبلها: ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَأَتَهُ ﴾ حتى إنه لم يقل (وأهله أجمعين). فناسب ذلك عدم التوكيد في قوله: ﴿ قَدَرْنَاهَا مِنَ الْغَدِيرِ ﴾ .

٣- إن المؤكدات في قصة الحجر أكثر بكثير مما في قصة النمل . فقد جاء فيها: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا ﴾ ﴿ لَمُنْجُوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ﴿ إِنَّا لَمِنَ الْغَادِرِينَ ﴾ ﴿ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مَّتَكْرُونَ ﴾ ﴿ وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ ﴾ ﴿ أَأَنْتَ دَايِرٌ هَهُنَا مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ ﴾ ﴿ إِنْ هَؤُلَاءِ ضِيفِي ﴾ ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ ﴿ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ ﴾ ﴿ وَإِنَّا لَبَسِيلٌ مُّقِيمٌ ﴾ .

أما المؤكدات في النمل فهي ﴿ أَيْنَكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً ﴾ ﴿ إِنَّهُمْ أَنْفَاسٌ يَنْطَهَرُونَ ﴾ فقد ورد التوكيد في الحجر في عشرة مواضع ، وفي كل موضع قد يكون أكثر من توكيد .

أما في النمل فلم يرد إلا في موضعين .

فناسب كل تعبير موضعه .

٤- وصف قوم لوط في الحجر بصفات أسوأ مما هي في النمل ، فقد وصفهم بأنهم مجرمون ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ ثَمُودَ ﴾ والمجرم يستحق العقوبة .

ووصفهم في النمل بالجهل: ﴿ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ بِتَهْلُوتَ ﴾ وليس بالضرورة أن يكون الجاهل مجرماً أو مستحقاً للعقوبة .

هذا إضافة إلى ما ذكره في قوم لوط من أمور سيئة في الحجر ، حتى أن رب العزة أقسم بحياة الرسول ﴿ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ مما لم يرد نحوه في النمل .

٥- إن موقف لوط من قومه وبرمه منهم كان أشد في الحجر مما في

النمل . فقد قال : ﴿ قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴾ (٦٨) وَانْقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزَوْنَ ﴿٦٩﴾ . . . قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٧١﴾ .

٦ - ذكر دفاعه عن ضيفه في الحجر مما لم يرد نحوه في النمل .

٧ - كان التوعد بالعقوبة في الحجر أشد مما في النمل : ﴿ فَاسْرِ يَا هَٰلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْنِفْتَ مِنْكُمُ أَحَدٌ وَأَمْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾ (٦٩) وَفَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمَرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٧١﴾ .

ولم يرد مثل ذلك في النمل .

٨ - إن العقوبة ذكرت في الحجر أشد مما في النمل مناسبة لما ذكر كل في موضعه .

فقد قال في الحجر :

أ - ﴿ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴾ - ولم يقل مثل ذلك في النمل .

ب - ﴿ فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمْ سَافِلَهَا ﴾ - ولم يقل مثل ذلك في النمل .

ج - ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ .

وقال في النمل : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَّطَرًا ﴾ والمطر قد يكون ماء ، فما ذكر في الحجر أشد ، وهو المناسب لما ذكره من إجرامهم وسوء صفاتهم .

فناسب كل تعبير موضعه من كل ناحية .

والله أعلم .

٨ - قال تعالى في سورة هود : ﴿ لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسَرُونَ ﴾

[هود : ٢٢] .

وقال في سورة النمل : ﴿ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسَرُونَ ﴾ [النمل : ٥] .

فأكد الخسران بـ (أن) و(لا جرم) التي معناها حقاً. وقيل: هي بمعنى القسم للتأكيد^(١)، وليس كذلك في سورة النمل.

وسياق كل من الآيتين يوضح ذلك.

قال تعالى في هود: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾ أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن أَوْلِيَاءٍ يَضْعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسَرُونَ﴾ [هود: ١٨ - ٢٢].

وقال في سورة النمل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْآخَسَرُونَ﴾ [النمل: ٤ - ٥].

ومن النظر في السياقين يتبين سبب الاختلاف بين التعبيرين.

فإنه لم يزد في النمل على أن هؤلاء (لا يؤمنون بالآخرة).

أما في هود فقد ذكر:

١ - أنهم افتروا على الله كذباً فلا أظلم منهم.

٢ - أن عليهم لعنة الله.

٣ - أنهم يصدون عن سبيل الله.

٤ - ويبغونها عوجاً.

(١) انظر معاني القرآن ٨/٢، الرضي على الكافية ٢/٢٨٩.

٥ - وهم بالآخرة هم كافرون .

٦ - وذكر أنهم يضاعف لهم العذاب .

فقد ذكر ما ذكره في النمل من صفاتهم وزاد عليه ، فناسب ذلك
الزيادة في التوكيد ، هذا إضافة إلى التفضيل في صفاتهم وسوء أعمالهم ،
فناسب ذلك توكيد خسranهم أكثر مما في النمل .

* * *



الذكر والحذف

إن الذكر والحذف في القرآن الكريم بحسب ما يقتضيه المقام والسياق ، فإذا اقتضى المقام الذكر ذكر وإلا لم يذكر . ومن ذلك على سبيل المثال :

١ - قوله تعالى في البقرة: ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ (١٧) صُمْ بِكُمْ عُتَىٰ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ [البقرة: ١٧ - ١٨] .

وقوله في الأنعام: ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ (٣٨) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمْ وَبُكُمْ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَاءُ اللَّهُ يُضِلُّهُ وَمَنْ يَشَاءُ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [الأنعام: ٣٨ - ٣٩] .

فقد قال في البقرة: ﴿ صُمْ بِكُمْ عُتَىٰ ﴾ من دون واو ، وقال في الأنعام: ﴿ صُمْ وَبُكُمْ فِي الظُّلُمَاتِ ﴾ فذكر الواو .

والفرق بينهما أن قولنا (هؤلاء صم وبكم) بالواو يحتمل معنيين :

أن بعضهم صم وبعضهم بكم ، ويحتمل أنهم صنف واحد جمع الصَّمَم والبُكَم .

أما قولنا: (هؤلاء صم بكم) من دون واو فلا يحتمل إلا معنى واحداً وهو أنهم جمعوا الوصفين ، فهم صم بكم ، فهم صنف واحد .

إن آية البقرة في قوم هم أشد كفراً وضلالاً مما في الأنعام ، ذلك أنها في المنافقين ، وقد ذكر فيهم ثلاث عشرة آية (من الآية الثامنة إلى الآية العشرين). تبدأ بقوله : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَيَأْتِيَوْمَ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (٨) يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهَدٰىٰ فَمَا رِيحَتْ بِحَدْرَتِهِمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمٰتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ ضُمُّ بَيْكُم عَنِّي فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمٰتٌ وَرَعْدٌ وَنُقُرٌّ يُجْعَلُونَ أَصْبَعُهُمْ فِي ءَاذَانِهِمْ مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿[البقرة : ٨ - ٢٠].﴾

أما ما جاء في الأنعام فهي آية واحدة أو جزء من آية في قوم قال فيهم : ﴿ وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِعٰثِرَتِنَا صُتُّوا فِي الظُّلُمٰتِ ﴾ .

فقد زاد في البقرة على التكذيب الذي ذكره في الأنعام الكذب والمخادعة والإفساد والسفه والاستهزاء والضلال .

فلما جمعوا في البقرة كل هذه الصفات جمع لهم الصمم والبكم والعمى وأنه تركهم في ظلمات لا يبصرون ، بخلاف آية الأنعام .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أنه قال في الأنعام : ﴿ صُتُّوا فِي الظُّلُمٰتِ ﴾

أَظْلَمْتُ ﴿١٧٦﴾ ولم يقل إنهم عمي . أما في البقرة فقد ذكر أنهم عمي . وهذا أشد من وصفهم أنهم في الظلمات ؛ ذلك لأن الذي في الظلام إذا خرج منه فإنه قد يبصر ، أما الأعمى فهو لا يبصر على كل حال سواء كان في ظلام أم في ضياء .

هذا إضافة إلى أنه زاد في البقرة على العمى أنه تركهم في ظلمات فقال : ﴿ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ .

وقد تقول : ولكن قال تعالى في سورة الإسراء : ﴿ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ يُنْشِرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيَائًا وَبِكُمُ أَوْصِيَاءُ مَاؤَنَهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴾ [الإسراء : ٩٧] .

أليس ذلك يدل على أنهم صنف واحد مع المجيء بالواو ؟ .

فنقول : لقد قلنا إن هذا التعبير يحتمل معنيين ، بخلاف الأول ، ومع ذلك فإن آية الإسراء تحتمل أنها في صنف واحد ، كما تحتمل أنهم أصناف ؛ وذلك أن ربنا أخبر عن صنف أنه يحشر أعمى ولكنه ليس بأكبر ولا أصغر ، فقد قال : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ﴾ [١٧٨] قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٧٩﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيْنَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴿١٨٠﴾ [طه : ١٢٤ - ١٢٦] .

فذكر أنه حشر هذا الصنف أعمى ولكنه يسمع ويتكلم بدليل المحاورة قال : ﴿ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴾ وجواب الحق له سبحانه .

وذكر عن صنف آخر أنهم لا يسمعون ، فقد قال : ﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٠] .

نعوذ بالله من ذلك كله .

٢ - قال في سورة الأنعام : ﴿ قُلْ يَتَقَوَّمُ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ

﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَقِيبَةُ الدَّارِ إِنَّهُمْ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾
[الأنعام: ١٣٥].

وقال في سورة الزمر: ﴿ قُلْ يَنْقُومِ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانِكُمْ إِنِّي عَمِلٌ ﴿٣٩﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٣٩﴾ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴾
[الزمر: ٣٩ - ٤٠].

بالفاء مع (سوف) ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾.

في حين قال في سورة هود: ﴿ وَيَنْقُومِ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانِكُمْ إِنِّي عَمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾ [هود: ٩٣].

فقال (سوف) من دون فاء ، وذلك أن التهديد في آيتي الأنعام والزمر من الله ، وأمره بتبليغهم ، فهو أكد وأشد ، فجاء بالفاء (قل يا قوم . . .) .
وأما في آية هود فإنه قول شعيب ولم يكن قولاً لله ، فكان التهديد في الأنعام والزمر أشد . والتهديد إنما يكون على حسب من توعده وهدد ، فإن كان المتوعد عظيماً قادراً كان أشد . جاء في (كشف المعاني): « قوله تعالى: ﴿ إِنِّي عَمِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ هنا وفي الزمر . وفي قصة شعيب في هود: ﴿ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ بغير فاء .

وجوابه: أن القول في آيتي الأنعام والزمر بأمر الله تعالى بقوله: (قل) فناسب التوكيد في حصول الموعود به بفاء السببية . وآية هود من قول شعيب فلم يؤكد ذلك»^(١).

قد تقول: ولكنه قال في موطن آخر من سورة هود على لسان سيدنا نوح عليه السلام: ﴿ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴾ [هود: ٣٨ - ٣٩].

(١) كشف المعاني ١٦٧ .

فقال: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ بالفاء ، فما الفرق بينه وبين قول شعيب؟ .
والجواب أن التهديد والتوعد على لسان سيدنا نوح أشد مما جاء على
لسان سيدنا شعيب ، فقد توعدهم بأنه سيسخر منهم كما يسخرون منه ،
وأنه سيأتيهم عذاب يخزيهم ويحلّ عليهم عذاب مقيم .
وأما تهديد شعيب فلم يزد على قوله: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ
عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ .

فنوح زاد على ذلك بقوله: ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ والسخرية منهم .
فلما زاد في التهديد والتوعد زاد الفاء لذلك .

والفاء قد تكون للتوكيد ، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ
اللَّهِ ثُمَّ لَا يَتَّبِعُونَ مِمَّا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ
وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٢] . فقال ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ من دون فاء .

في حين قال: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْإِثْلِ وَالْتِهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً
فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:
٢٧٤] فقال: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ بالفاء ، وذلك لما ذكر الإنفاق بالليل
والنهار سرًّا وعلانية ، فكان الأجر أكد .

ونحوه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَّنْ تَقْبَلَ
تُوبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٠] فقال: ﴿لَّنْ تَقْبَلَ تُوبَتُهُمْ﴾
من دون فاء .

في حين قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ
الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ أَفْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ﴾
[آل عمران: ٩١] .

فقال: ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ﴾ بالفاء ، وذلك أنه ذكر عنهم أنهم

ماتوا وهم كفار فلم يبق مجال لقبول التوبة ، بخلاف الأولين .

فأكد في الموطن الذي يستحق التوكيد .

٣ - قال تعالى في سورة الدخان: ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾ [الدخان : ٤٨] .

وقال في سورة الحج: ﴿يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ [الحج : ١٩] .

فقال في الدخان: ﴿فَوْقَ رَأْسِهِ﴾ من دون ذكر (من) ، وقال في الحج: ﴿مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمْ﴾ بذكر (من) .

والفرق بينهما أن (من) تفيد ابتداء الغاية ، أي أن الحميم في آية الحج يصب فوق الرؤوس مباشرة من دون مسافة فاصلة .

أما في الدخان فلم يذكر (من) ، وهذا يحتمل المسافة القريبة والبعيدة بين صب الحميم والرأس . فالعذاب في آية الحج أشد .

قال تعالى في الدخان: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الرَّقْمِ ٤٢ طَعَامُ الْأَثِيمِ ٤٤ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ٤٥ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ٤٦ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ٤٧ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ٤٨ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ٤٩ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ [الدخان : ٤٣ - ٥٠] .

وقال في الحج: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ أَخَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ١٩ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ٢٠ وَلَهُمْ مَقْلِعٌ مِنْ حَدِيدٍ ٢١ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الحج : ١٩ - ٢٢] .

ومن النظر في السياقين يتضح أن سياق آيات الحج أشد عذاباً .

أ - فقد ذكر في الدخان طعام أهل النار: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الرَّقْمِ ٤٢ طَعَامُ الْأَثِيمِ﴾ .

وذكر في الحج لباسهم : ﴿ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ ﴾ .
والثياب أدوم من الطعام ؛ لأنها دائمة تكسو صاحبها . أما الطعام فإنه
في وقت دون وقت .

٢ - ذكر أن الثياب من نار .

٣ - ذكر في الدخان أن الطعام يغلي في البطون كغلي الحميم .
وذكر في الحج أنه : ﴿ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴾ .

وهو أشد ؛ لأن ذلك يغلي ، وهذا يصهر ما في بطونهم والجلود .

٤ - أضاف الجلود إلى ما في البطون .

٥ - ذكر في الحج أن لهم مقامع من حديد ، ولم يذكر مثل ذلك في
الدخان .

٦ - ذكر ما يفعله الحميم في الحج من أنه يصهر به ما في بطونهم
والجلود .

ولم يذكر ما يفعله الحميم في الدخان ، وإنما ذكر صفة الطعام .

٧ - قال في الحج : ﴿ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ ، ولم يقل مثل ذلك في
الدخان .

٨ - قال في الحج إنهم كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها .

ولم يقل مثل ذلك في الدخان .

فتبين أن العذاب في الحج أشد . وهو ما يتناسب مع ذكر (من) فيها .

٤ - قال تعالى في سورة النحل : ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا
وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ
وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ [النحل : ٧٢] .

وقال في سورة العنكبوت: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا مِمَّا وَبِئْسَ خَطْفُ النَّاسِ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

فقال في آية النحل: ﴿وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ بذكر (هم).

وقال في آية العنكبوت: ﴿وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ من دون ذكر (هم).

إن في آية النحل تأكيداً وتخصيصاً ، وذلك لإسناد الجملة الفعلية إلى الضمير المتقدم ، وليس كذلك التعبير في آية العنكبوت .

وذلك أن سياق كل من الآيتين يوضح ذلك .

فإن آية النحل وقعت في سياق النعم العامة على العباد ، بل إن سورة النحل جرى فيها ذكر النعم بصورة مفصلة ، حتى إنها تسمى سورة النعم .

أما آية العنكبوت فهي في قريش خاصة ، وجو السورة فيها يختلف أيضاً عن جو سورة النحل .

قال تعالى في سياق آية النحل: ﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ (١٥) وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً تَسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ (١٦) وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ نَتَخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٧) وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (١٨) ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١٩) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يُوَفِّقُكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَعْدَالِ الْعُمُرِ لَكُمْ لَا يَعْلَمُ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٢٠) وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٢١) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ [النحل: ٦٥ - ٧٢].

فهي في سياق ذكر النعم .

بل إن السورة جرى فيها ذكر النعم من ابتدائها ، قال تعالى : ﴿وَالْأَنْعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دَفٌّ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ٥ ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ ٦ ﴿وَتَحْمِلُ أُنْفُسُكُمُ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بِلِغْيِهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ ٧ ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ٨ . . . ﴿ ويستمر الكلام في النعم من الآية الخامسة إلى الآية الثامنة عشرة .

والنعم التي ذكرها عامة ومتعددة .

وأما آية العنكبوت فلم تقع في سياق النعم ، فإن قبلها : ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْأُفْكَ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ ٢٥ ﴿يَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَهُمْ وَلِيَتَمَنَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ ٢٦ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا مِمَّا . . .﴾ الآية [العنكبوت : ٦٥ - ٦٧] .

وبعدها : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ .

هذا علاوة على أن سورة العنكبوت ليس فيها تعداد للنعم ، وإنما هي في الفتن والمحن والمجاهدة ابتداء من أولها وهو قوله : ﴿الَّذِينَ أَحْسَبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ ٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ إلى آخرها : ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ .

فناسب ذلك ذكر (هم) في النحل زيادة في الإنكار على من يكفر بعد كل تلك النعم التي أنعم الله بها عليهم .

هذا إضافة إلى أنه تردد ذكر لفظ (النعمة) في النحل أكثر مما في العنكبوت . فقد ورد في النحل (٩) تسع مرات ، وورد في العنكبوت مرة واحدة .

وكلمة (هم) وردت في النحل (١٧) سبع عشرة مرة ، ووردت في العنكبوت (٦) ست مرات .

٥ - قال تعالى في سورة السجدة : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [السجدة : ٢٥] .

وقال في سورة الحج : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِغِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [الحج : ١٧] .

فقال في السجدة : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ ﴾ بذكر (هو) .

وقال في الحج : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ ﴾ من دون (هو) .

وهو نحو ما ذكرناه في آيتي النحل والعنكبوت السابقتين . وقد ذكرنا أن ذكر الضمير في نحو هذا يفيد التوكيد أو التخصيص .

وذلك أنه لما ذكر الاختلاف في آية السجدة فقال : ﴿ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ جاء بضمير الفصل أو ضمير المبتدأ ، وكلاهما يفيد التوكيد والقصر ، وذلك لأن الاختلاف ينبغي فيه الفصل ، ولم يذكر الاختلاف في آية الحج ، وإنما ذكر الشهادة على كل شيء ، فاقضى توكيد الفصل وقصره في آية السجدة دون آية الحج .

ومن الملاحظ أيضاً أنه قال في آية السجدة : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ ﴾ بذكر الرب مضافاً إلى ضمير المخاطب ، وقال في آية الحج : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ ﴾ بذكر اسمه العلم . ذلك - والله أعلم - أن كلمة (رب) وردت في سورة السجدة أكثر مما وردت في الحج مع أن سورة الحج أطول بكثير من سورة السجدة ، فقد وردت في السجدة عشر مرات ، ووردت في الحج ثلاث مرات .

وأن كلمة (الله) وردت في الحج أكثر مما في السجدة ، فقد وردت في سورة الحج (٧٦) سِتًّا وسبعين مرة ، ووردت في السجدة مرة واحدة ، فناسبت كل لفظة موضعها .

ولعل هناك أمراً آخر في اختيار هاتين الكلمتين ، فقد ذكر في آية الحج عموم أهل الأديان من الذين آمنوا واليهود والنصارى والصابئين والمجوس والذين أشركوا ، فذكر اسمه العلم (الله) ولم يقل (ربك) مضافاً إلى ضمير الخطاب ؛ لأن أهل ملته من بينهم ، فذكر اسمه العلم غير مضاف إلى أحد من هؤلاء الأصناف ؛ لأنه ينبغي أن يكون القاضي متجرداً ليس له علاقة بأحد المتخاصمين أو المختلفين ولا ينتسب إليه .

وأما آية السجدة فليست في نحو ذلك ، وإنما هي في الفصل بين ملل أخرى ليس بينها ملة الإسلام ، فلا ضير أن يكون الذي يفصل هو (ربه) .

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْ لِّقَائِهِٗ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ ۖ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۚ ﴾ [السجدة: ٢٣ - ٢٥] .

ومما يقوي هذا المعنى أنه لم يرد في القرآن (إن ربك يحكم بينكم يوم القيامة) بإضافة الرب إلى ضمير المخاطب ؛ لأن المخاطب من بين المتحاكمين ، وإنما يرد ذلك باسمه العلم فيقول : ﴿ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾ [الحج: ٦٩] .

غير أنه يقول : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾ [النحل: ١٢٤] لأن المخاطب ليس معهم ، فلا ضير من الإضافة إلى ضمير المخاطب .

وهو نظير ما نحن فيه ، وذلك من عجائب التعبير .

فناسب وضع كل مفردة في موضعها من كل ناحية والله أعلم .
 وثمة سؤال يعرض في آية الحج ، وهو أنه قال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى . . . ﴾ بنصب (الصابئين) .
 وقال في سورة المائدة : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ ءَامَرَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [المائدة : ٦٩] .

برفع (الصابئين) .

وقد قيل إن سبب الرفع في آية المائدة هو أن الصابئين أبعد المذكورين ضلالاً ، فكان توكيدهم أقل من غيرهم^(١) . فلماذا لم يفعل مثل ذلك في آية الحج ؟ .

والجواب أن المقام في الحج - كما ذكرنا - مقام فصل وقضاء ، وفي موقف الفصل والقضاء ينبغي أن يعامل الجميع معاملة واحدة ، فلا يجوز انتقاص واحد وتعظيم آخر مهما كانت ملة المتقاضي أو منزلته .
 ولذلك سوى بين الجميع .

وليس السياق في المائدة كذلك ، وإنما هو في الدعوة إلى الإيمان بالله واليوم الآخر . ولا شك أنه في مجال الدعوة إلى رأي أو معتقد تبين مزايا ما يدعو إليه الداعي وعيوب الجهة الأخرى والمآخذ عليها .
 فاختلف المقامان .

فكان كل تعبير أنسب في مكانه .

٦ - ورد في القرآن الكريم نحو قوله : ﴿ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ أي بحذف

(١) ينظر معاني النحو ١/ ٤٢٢ - ٤٢٣ ، والتفسير الكبير ١١/ ٥١ .

الموصوف في أكثر من عشرين موضعاً ، وذلك نحو قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّبِيَّانَ مَن ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ ﴾ [البقرة: ٦٢] .

وقوله : ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ﴾ [طه: ٨٢] .

والتقدير في نحو ذلك ﴿ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا ﴾ .

وورد نحوه قوله : ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا ﴾ [الفرقان: ٧٠] .

بذكر الموصوف وهو (العمل) مرتين ، وهما آية الفرقان هذه ، وقوله تعالى في (الكهف) : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ١١٠] .

وبالنظر في سياق هذه الآيات يظهر أن ما ذكر فيه الموصوف وهو (العمل) إنما هو في سياق ذكر الأعمال ، بخلاف ما حذف فيه العمل فإنها ليست في سياق الأعمال .

لقد ذكرنا أن ما ذكر فيه الموصوف ورد في موطنين وهما قوله في الفرقان : ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾ [الفرقان: ٧٠] وهي في سياق الأعمال ، فقد ذكر ما يفعله عباد الرحمن وما لا يفعلونه ، فقد ذكر أنهم يبيتون لربهم سجداً وقياماً ، وأنهم ينفقون ، وأنهم لا يدعون مع الله إلهاً آخر ، ولا يقتلون النفس المحرمة إلا بالحق ، ولا يزنون ، وغير ذلك من الصفات التي ذكرها الله فيهم ، فناسب ذلك قوله : ﴿ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا ﴾ .

وكذلك آية الكهف ، فإنها في سياق الأعمال ، فقد تقدمها قوله : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴾ [الكهف: ١٠٣ - ١٠٤] ، ثم قال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ

لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ [الكهف: ١٠٧] فقد وقعت الآية في سياق الأعمال .

هذا علاوة على أن سورة الكهف ابتدأت بالأعمال الصالحة وختمت بها ، فقد قال سبحانه في بدايتها: ﴿ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٦﴾ مَكْتَبِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴾ وفي خاتمتها قوله تعالى: ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ بخلاف الآيات التي لم يذكر فيها الموصوف ، فإنها ليست في سياق الأعمال .

فآية البقرة مثلاً: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا... ﴾ لم تقع في سياق الأعمال ، وإنما هي في سياق بني إسرائيل ، فإن قبلها ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَهُودُ لَنْ نُّضَيِّرَ عَلَى طَعَامٍ وَاجِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ... ﴾ وما بعدها: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ... ﴾ . ومثلها آية المائدة ٦٩ ، وكذلك آية طه ٨٢ . ونحوها آية المؤمنون ٥١ .

وهكذا عموم الآيات التي لم يذكر فيها الموصوف ، فإنها ليست في سياق الأعمال .

٧ - ورد في القرآن الكريم نحو قوله: ﴿ وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ في مواطن عدة من القرآن الكريم ، أي بحذف الموصوف ، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأنفال: ٤٥] ، وقوله: ﴿ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الجمعة ١٠] .

وقوله: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١] .

والتقدير في نحو ذلك: ﴿ اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾ .

وورد مرة واحدة بذكر الموصوف وهو قوله: ﴿ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿١١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٤١ - ٤٢] .

ومن النظر في الآيات الواردة في ذلك وسياقها يظهر أنه ذكر الموصوف في سياق الذكر والعبادة دون ما لم يكن كذلك .

فإن آية الأنفال مثلاً: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيْتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥] إنما هي في سياق القتال وليست في سياق الذكر أو مقامه .

وإن قوله: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ ءَآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١] إنما هو في سياق غزوة الأحزاب .

وإن قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾ [الشعراء: ٢٢٧] إنما هو في سياق ذكر الشعراء .

وإن قوله: ﴿وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الجمعة ١٠] إنما هو في الانصراف من صلاة الجمعة والابتغاء من فضل الله .

وهكذا عموم ما ورد من نحو ذلك ، حتى أن قوله: ﴿وَمَسْجِدٌ يُذَكَّرُ فِيهَا اِسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج: ٤٠] ليست في سياق العبادة والذكر ، وإنما هو في سياق القتال ودفع الله الناس بعضهم ببعض وهدم الصوامع والبيع والصلوات والمساجد وليس في سياق العبادة ، بخلاف الآية التي ذكر فيها الموصوف وهي قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذَكَرًا كَثِيرًا﴾ ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ فإنها في مقام الذكر والتسبيح ، ألا ترى إلى طلب الله من المؤمنين أن يذكروه ذكراً كثيراً ، وأن يسبحوه بكرة وأصيلًا ، ما لم يرد مثله في الآيات الأخرى .

قد تظن أن قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَرِ﴾ [آل عمران: ٤١] إنما هو في الذكر والتسبيح . والحق أنه ليس كذلك ،

وإنما هو أمر لنبي الله زكريا أن يفعل ذلك لمدة ثلاثة أيام ، وذلك عندما بشره بيحيى عليه السلام . فأين ذلك من الطلب من عموم المؤمنين وليس من شخص واحد لمدة محدودة؟ .

وهذا نظير ما مر في النقطة السابقة في قوله تعالى : ﴿ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ وقوله : ﴿ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا ﴾ والله أعلم .

٨ - قال تعالى في سورة طه : ﴿ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى ﴾ [طه : ٥٣] ، وقال في سورة النبأ : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴾ [١٤] لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿ ١٥ ﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴾ [النبأ : ١٤ - ١٦] .

فزاد في سورة النبأ في وصف الماء وقال إنه ثجاج ، ولم يذكر مثل ذلك في طه .

والثجاج هو شديد الانصباب ، وثجّ الماء : سال وانصبّ .

فلما ذكر أنه ثجاج زاد فيما يخرج من الأرض على ما في طه ، فقد قال في طه : ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى ﴾ .

أما في النبأ فقد ذكر أنه يخرج به حباً ونباتاً وجنات ملتفة ، فزاد في النبات وأنواعه لما زاد في الماء .

٩ - يذكر القرآن الكريم الخلود لأهل الجنة ولأهل النار فيقول عنهم أحياناً : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ فيذكر الأبد ، وفي مواطن أخرى يذكر الخلود ولا يذكر الأبد .

وذلك كقوله تعالى في سورة التوبة في جزاء الكافرين والمنافقين : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنُهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ [التوبة : ٦٨] .

وقوله في جزاء المؤمنين فيها : ﴿ يُبَشِّرُهُم رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ

وَجَنَّتْ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾
[التوبة: ٢١ - ٢٢].

وفي القرآن الكريم خط واضح للتعبير بنحو هذا وهو أمران :

١ - إنه إذا كان الكلام فيه تبسط وتفصيل في وصف أي من الفريقين أو جزائه ذكر الأبد . وإن لم يكن كذلك أوجز فلم يذكره .

٢ - إذا كان التهديد بالعذاب أو الوعد بالجنة بالغاً كبيراً ذكر الأبد وإلا لم يذكره .

فمن ذلك قوله تعالى في آيتي التوبة اللتين ذكرناهما .

فقد قال في المنافقين والكفار الآية التي ذكرناها وهي قوله : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَّ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ [التوبة: ٦٨].

ولم يذكر شيئاً يتعلق بجزاء هؤلاء قبل هذه الآية أو بعدها ، فأوجز فلم يذكر (أبداً) كإيجازه في الكلام عليهم وعلى جزائهم .

في حين قال : ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتْ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾
[التوبة: ٢٠ - ٢٢].

ففصل في صفات المؤمنين وجزائهم وتبسط في ذلك ، فذكر الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، وذكر أنهم يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم .

فلما فصل في ذلك وزاد في وعدهم بالنعيم زاد في وصف خلودهم فقال : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ .

ونحو ذلك قوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنُومُ لَعْنَا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الأحزاب: ٦٤ - ٦٨].

فصل في عذابهم وجزائهم.

في حين قال بعد ذلك: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [٧١]. واكتفى بذلك.

فلما فصل في جزاء الكافرين قال عنهم إنهم خالدون فيها أبداً. ولم يذكر مثل ذلك في جزاء المؤمنين.

ونحو ذلك ما جاء في سورة الجن ، فقد قال في الكافرين: ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضَعُفٌ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾ [الجن: ٢١ - ٢٤]. وقال مرة أخرى: ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ [الجن: ١٧].

فتوعد الكافرين وعيداً شديداً ، حتى إنه لم يذكر في السورة جزاء المؤمنين ، وإنما ذكر جزاء الكافرين على الخصوص ، فقد قال: ﴿وَأَنَّا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَمِنَ الْفَاسِقِينَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴿١٥﴾ وَأَمَّا الْفَاسِقُونَ فَكَانُوا أَلْجَافًا حَبَابًا﴾ [الجن: ١٤ - ١٥].

فلم يقل إن من أسلم له الجنة. فلما هدد وتوعد الكافرين وكرر جزاءهم ذكر الأبد.

وكذلك ما جاء في سورة البينة ، فإنه توسع في ذكر المؤمنين

وجزائهم ، بخلاف الكافرين ، فإنه لم يزد على القول في الكفرة والمشركين : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴾ [البينة : ٦] .

في حين قال في المؤمنين : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴾ ﴿٧﴾ جَزَّأُوهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾ [البينة : ٧ - ٨] .

فاتضح ما قلناه .

١٠ - قال في سورة الحج : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ﴾ [الحج : ٦٦] .

وقال في الزخرف : ﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ ﴾ [الزخرف : ١٥] .

فزاد في آية الزخرف (مبين) على (كفور) ؛ ذلك أنه لم يذكر في الحج معتقدات الكافرين وأقوالهم . فإن قبلها قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَأَلْفَلَكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ ﴿١٥﴾ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ﴾ .

وبعدها قوله : ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنْزِعُ عَنْكَ فِي الْأَمْرِ وَاذْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُسْتَقِيمٌ ﴾ .

فليست الآية في سياق ذكر معتقدات الكافرين وأقوالهم كما ترى .

وأما في الزخرف فقد فصل في أقوال الكافرين ومعتقداتهم ، قال تعالى : ﴿ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَنَكُمْ بِالْبَنِينَ ﴾ ﴿١٦﴾ وَلِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا صَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوْ مِنْ يُنْشَأُ فِي الْحُلِيِّةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَدُ الرَّحْمَنِ أَنْثَىٰ أَشْهَدُوا

خَلَقَهُمْ سَكَنَ شَهَدَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ أَلَيْسَتْ لَهُمْ كُتُبًا مِّن قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ ... ﴿[الزخرف: ١٦ - ٢٥].

بل حتى الآية التي ذكرناها ذكرت معتقد الكافرين ، فقد قال :
﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا ... ﴾ فزاد كلمة (مبين) في الزخرف لسبين :
الأول : إنه ذكر معتقداتهم الباطلة وأقوالهم .

والثاني : إنه فصل في ذكرها .

واختار كلمة (مبين) لأنهم أبانوا عن كفرهم ومعتقداتهم وأظهروه ،
ولأن الله أيضاً أبان عن ذلك وذكره . فالله أبان عن معتقدهم وبينه ، وهم
أبانوا عن ذلك .

فناسب ذكر كلمة (مبين) في الزخرف دون الحج .

١١ - ونحو ما ذكرناه في النقطة السابقة قوله تعالى في سورة التوبة :

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ [التوبة : ١١٤] .

وقوله في سورة هود : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴾ [هود : ٧٥] .

فزاد في وصف إبراهيم بقوله : (منيب) وذلك أنه لم يذكر في سورة
التوبة عن إبراهيم إلا آية واحدة وهي قوله : ﴿ وَمَا كَانَتْ أَسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ
لِأَيِّهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ
لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ [التوبة : ١١٤] وليس قبلها أو بعدها شيء يتعلق بذكر إبراهيم .

في حين فصل في ذكر قصة إبراهيم في سورة هود وذكر شأنه مع
الملائكة . قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ
سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿١٩﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكَّرَهُمْ
وَأَوَّجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أَزْهَلْنَاكَ بِقَوْمٍ فُورٍ لُّوطٍ ﴿٢٠﴾ وَأَمْرُهُ فَاتِحَةٌ

فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَتُوبَلَىٰ ۖ أَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَنْعَجِينَ مِنَ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكْنَاهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَتَابَرَهُمُ الْغُرُوحُ عَنْ هَذَا إِنَّهُمْ قَدْ جَاءُوا أَمْرًا رِيكًا وَإِنَّهُمْ لَكَاثِبِينَ عَذَابٌ عَظِيمٌ دُودِرُ ﴿[هود: ٦٩ - ٧٦].

فلما زاد في الكلام على إبراهيم زاد في وصفه .

وقدم الحلم في سورة هود ؛ لأنه ذكر حلمه بقوم لوط ومجادلته الملائكة ليدفع عنهم العذاب ، مع أنهم آذوا لوطاً وأسأوا إليه وإلى من يأتيه فإنهم قوم سوء .

وهذا من الحلم .

وقدّم الأواه في سورة التوبة لما ذكر استغفاره لأبيه ، والأواه أنسب مع الاستغفار ، كما أن الحلم أنسب في باب العقوبات . فكانت الزيادة في مكانها المناسب ، والتقديم في مكانه المناسب .

١٢ - ونحو مما جاء في المثاليين السابقين قوله تعالى في سورة الحجر : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ [الحجر: ٧٤] .

وقوله في سورة هود : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ ﴾ ﴿٨٢﴾ مَسْؤَمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ [هود: ٨٢ - ٨٣] .

فذكر في هود أن السجيل منضود ، ولم يذكر مثل ذلك في الحجر ، وذلك أنه لما زاد في وصف الحجارة في هود فقال : ﴿ مَسْؤَمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ ، زاد في الوصف فقال (منضود) .

ثم إنه لما قال إن مثلها يمكن أن يكون للظالمين جاء بـ (منضود) ، وهو الذي نضد بعض فوق بعض ، أي وضع بعضه فوق بعض للدلالة على

الكثرة ، فإن ذلك - كما ذكر - غير مختص بقوم لوط وإنما هي لعموم الظالمين .

هذا أمر ، والأمر الآخر أنه ذكر في سورة الحجر أن الإمطار كان على القوم فقال: ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ .

وذكر في سورة هود أن الإمطار كان على المدينة فقال: ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً ﴾ ذلك أن الكلام على القوم في الحجر أشد مما في هود ، وقد وصفهم بصفات أسوأ مما في هود ، وذكر أموراً تتعلق بهم أكثر مما في هود:

١ - فقد قال في الحجر على لسان الملائكة: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ ثَجْرِ مِيثَاقًا ﴾ [الحجر: ٥٨] .

وقال في هود: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ﴾ [هود: ٧٠] .

فوصفهم بالإجرام في الحجر ولم يصفهم به في هود .

٢ - قال في الحجر: ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴾ [الحجر: ٦٦] .

ولم يقل مثل ذلك في هود ، وإنما ذكر أن عذاباً آتاهم غير مردود . والعذاب قد لا يؤدي إلى الاستئصال .

فما في الحجر أشد .

٣ - أقسم بحياة الرسول في الحجر إنهم لفي سكرتهم يعمهون فقال: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَّعْمَهُونَ ﴾ [الحجر: ٧٢] .

ولم يقل مثل ذلك في هود .

٤ - ذكر آل لوط في الحجر فقال: ﴿ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الحجر: ٥٩] .

ولم يذكر ذلك في هود. وآل لوط من قوم لوط.

هـ - قال في الحجر: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴾ [الحجر: ٦١].

ولم يذكرهم في هود وإنما قال: ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ﴾ [هود: ٧٧].

فناسب في الحجر أن يذكر أن الإمطار عليهم.

١٣ - قال في سورة الإسراء: ﴿ مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ [الإسراء: ١٥].

فذكر جواب شرط الهداية والضلال بذكر فعلهما فقال: ﴿ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي ﴾ و﴿ فَإِنَّمَا يَضِلُّ ﴾.

وقال في سورة الزمر: ﴿ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ [الزمر: ٤١].

فحذف الفعل من جواب شرط الهداية فقال (فلنفسه) وذكره في جواب شرط الضلال فقال: ﴿ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾.

وقال في فصلت: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت: ٤٦].

فحذف الفعل من جواب الشرط في الأمرين: في العمل الصالح والإساءة.

فأنت ترى أنه قد يذكر الفعل في الأمرين ، وقد يحذف الفعل من أحدهما ، وقد يحذفهما من الأمرين ، بحسب ما يقتضيه السياق .

فإذا كان السياق في الكلام على الأمرين ذكر الفعل فيهما ، وإن كان السياق في أحدهما ذكر الفعل فيه وحذفه من الآخر ، وإن لم يكن السياق فيهما حذف الفعل منهما معاً .

وأيضاح ذلك أنه قال في الإسراء: ﴿مَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [الإسراء: ١٥].

فذكر الفعل في الصنفين ؛ ذلك لأن السياق في المهتدين والضالين ، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ وَيَدْعُ الْإِنْسَانَ بِالْشَّرِّ دُعَاءُهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ٩ - ١١].

ثم قال بعد ذلك: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُمِدُّ هَهُنَا وَلَهُنَّ عَطَاءُ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ١٨ - ٢٠].

فأنت ترى أن السياق في الصنفين: المهتدين والضالين ، في المؤمنين الذين يعملون الصالحات ، والكافرين الذين لا يؤمنون بالآخرة، فذكر الفعل في جواب الشرطين ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِي﴾ ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ﴾.

وقال في آية الزمر: ﴿فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ [الزمر: ٤١].

فذكر الفعل في جواب الشرط في الضالين ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ وحذفه في المهتدين فقال (فلنفسه) ولم يقل (فإنما يهتدي لنفسه) ذلك أن السياق في الضالين ولم يذكر المهتدين.

قال تعالى: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِيَ بِرَحْمَةٍ هَلْ هِيَ مُمْسِكَةٌ رَحْمَتِي قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَتَّقُوا اللَّهَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ

عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿٤١-٣٨﴾ [الزمر: ٤١-٣٨].

ثم قال بعدها: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أُولَٰئِكَ لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٣ - ٤٥].

فلما كان السياق في الضالين ذكر الفعل فيهم .

وقال في (فصلت) ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦] فلم يذكر الفعل في جواب شرط كل من الصنفين ، ذلك أن الآية لم تكن في سياق أي من الصنفين المذكورين ، بل هي ليست في سياق الأعمال ، فليس قبلها ولا بعدها ما يتعلق بذكر العمل ، فقد قال قبلها: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْ لَا كَلِمَةُ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾ [فصلت: ٤٥].

وقال بعدها: ﴿إِلَيْهِ يُرْدُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا يَعْلَمُهُ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ آيُنْ شُرَكَائِي قَالُوا أَدْنَاكَ مَا مِنْنا مِنْ شَهِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٧].

فلم يذكر فعلاً في جواب شرط أي منهما .

١٤ - قال تعالى في سورة الأحقاف: ﴿بَلَّغْ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

والتقدير (هذا بلاغ) فحذف المبتدأ .

وقال في سورة إبراهيم: ﴿هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ ۖ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَلِيَذْكُرُوا وَلِئَلَّا يُؤَلَّفُوا الْآلِبَابَ﴾ [إبراهيم: ٥٢].

فذكر المبتدأ (هذا).

ذلك أن المقام في الأحقاف مقام إيجاز ، وأما المقام في إبراهيم
فمقام تفصيل .

فقد قال في الأحقاف : ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ [٣٤] فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعِزِّ مِنْ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلِّغْ فَهَلْ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [الأحقاف : ٣٤ - ٣٥].

وأما المقام في إبراهيم فمقام تفصيل ، فإن البلاغ يبدأ من قوله تعالى :
﴿ وَلَا تَحْسَبْ أَنَّ اللَّهَ غَفْلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾ [إبراهيم : ٤٢] ويستمر إحدى عشرة آية ، إلى قوله تعالى : ﴿ هَذَا بَلِّغْ لِلنَّاسِ . . . ﴾ [إبراهيم : ٥٢].

ثم إن آية البلاغ تختلف في كل من الموضعين :

فقد قال في الأحقاف : (بلاغ).

وقال في إبراهيم : ﴿ هَذَا بَلِّغْ لِلنَّاسِ ﴾.

فذكر المبتدأ (هذا) وذكر (للناس). ولم يقل (للناس) في الأحقاف .

وذكر علل البلاغ في إبراهيم فقال : ﴿ وَلِيُنذِرُوا بِهِ ﴾ ﴿ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ ﴾ ﴿ وَلِيَذْكُرُوا لَوْلَا أَلَّا تَبْ ﴾.

ولم يذكر مثل ذلك في الأحقاف .

ففصل في سياق البلاغ في إبراهيم ما لم يفصله في الأحقاف .

ففي سياق آية إبراهيم ذكر إحدى عشرة آية ، وفي سياق الأحقاف ذكر آيتين .

وفصل في آية البلاغ في إبراهيم ما لم يفصله في آية الأحقاف ،

فناسب ذكر المبتدأ في إبراهيم وحذفه في الأحقاف .

١٥ - قال تعالى في سورة الطور: ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [الطور:

١١].

بذكر الفاء في (فويل).

وقال في سورة المرسلات: ﴿ وَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [المرسلات: ١٩].

من دون فاء في (الويل).

وسبب ذلك - والله أعلم - أنه جاء بالفاء في آية الطور ؛ لأن التهديد أشد والتفصيل في عذابهم أكثر . فقد أقسم بالطور وما بعده على وقوع العذاب وعدم دفعه فقال: ﴿ وَالطُّورِ ١ ﴾ وَكَتَبَ مَسْطُورِ ٢ ﴿ فِي رَقٍّ مَنْشُورِ ٣ ﴾ وَالْيَتِّبِ الْعَمُورِ ٤ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ٥ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ٧ ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ دَافِعٍ ٨ ﴾ . ثم ذكر مشهداً من مشاهد يوم القيامة فقال: ﴿ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ٩ ﴾ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ١٠ ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ .

ثم فصل في صفة المكذبين وعذابهم فقال: ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ ١١ ﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ١٢ يَوْمَ يَدْعُوتُ إِلَى نَارٍ جَهَنَّمَ دَعَاً ١٣ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ١٤ أَفَسِحْرُ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ١٥ أَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُحْزَنُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الطور: ١١ - ١٦].

في حين لم يفصل مثل هذا التفصيل في المرسلات ، وإنما أقسم بالمرسلات وما بعدها على وقوع وعده فقال: ﴿ وَالْمُرْسَلَتِ عُرْفًا ١ ﴾ فَالْعَصْفَتِ عَصْفًا ٢ وَالنَّشْرِتِ نَشْرًا ٣ فَالْفَرْقَتِ فَرْقًا ٤ فَالْمُلْقِيَتِ ذِكْرًا ٥ عَذْرًا أَوْ نَذْرًا ٦ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ٧ ﴾ .

فأقسم على وقوع الوعد لا على وقوع العذاب . والوعد يشمل وعد أهل الجنة وأهل النار .

ثم قال: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ ولم يذكر شيئاً عن المكذبين ولا عن عذابهم. وإنما قال بعدها ﴿أَلَمْ تَهْلِكِ الْأُولَىٰ﴾ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نَتَّبِعُهُمُ الْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾.

فجاء بالفاء فيما هو أكثر تفصيلاً وأشد تهديداً. فناسب المجيء بالفاء في سياق التفصيل.

هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى أنه لما ذكر العذاب ووقوعه في الطور ناسب ذكر الفاء الدالة على السبب والتعقيب. فإن العذاب سبب الويل.

ولما لم يذكر العذاب في المرسلات وإنما ذكر الوعد لم يذكر الفاء؛ لأن الويل ألصق بالعذاب، بخلاف الوعد الذي قد يكون سعادة وقد يكون عذاباً.

فناسب ذكر الفاء في آية الطور من كل وجه والله أعلم.

* * *



التقديم والتأخير

من المعلوم أن التقديم والتأخير إنما يكونان بحسب الأهمية .

والأهمية لا تعني الأفضلية . فقد يقدم المفضول على الفاضل والمتأخر على المتقدم أو العكس بحسب ما يقتضيه المقام والسياق ، قال تعالى : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفُتَّتْ صُلُوبُهُمْ وَأَسْفَلَتْ السَّمَاوَاتُ بِالثَّقَلِينِ ﴾ [الحج : ٤٠] فأخر المساجد وهي أفضل الأماكن المذكورة . وقال : ﴿ وَاللَّيْنِ وَالزَّيْتُونِ ﴾ [طور سين : ٦] وهذا البلد الأمين ﴿ فأخر القسم بالبلد الأمين وهو أفضل المذكورات ، بل هو أفضل بقاع الأرض وأحب أرض الله إلى الله .

وقال : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهُ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَى ﴾ [الحاقة : ٤] فقدم ثمود على عاد مع أن عاداً أسبق من ثمود ، قال تعالى في ثمود على لسان نبيهم صالح : ﴿ وَادْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ ﴾ [الأعراف : ٧٤] .

وقدم عاداً على ثمود في مواطن أخرى ، قال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ﴾ [التوبة : ٧٠] .

وعلى هذا فالتقديم والتأخير إنما يكونان بحسب ما يقتضيه المقام ، فقد يقدم لفظاً في مكان ويؤخره في مكان آخر بحسب ما تقتضيه البلاغة .
والآن نذكر أمثلة من هذا الباب :

١ - فمن ذلك تقديم السمع على البصر ، والبصر على السمع ، فإنه كثيراً ما يقدم السمع على البصر في القرآن الكريم وذلك نحو قوله تعالى :

﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢]. قالوا لأن السمع أفضل وهو أهم في مجال الدعوة والتبليغ ؛ لأن الأصم أبعد عن الفهم من الأعمى ، أو لأسباب أخرى^(١).

وقد يقدم البصر على السمع إذا اقتضى المقام ذلك ، ومن ذلك قوله تعالى في أصحاب الكهف: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَيْسُوا لَهُ غِيبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصَرَ بِهِ، وَأَسْمِعَ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ، مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٦].

فقدم البصر على السمع ، وذلك أن الكلام على أصحاب الكهف ، وأصحاب الكهف فروا من قومهم ولجؤوا إلى الكهف لثلا يراهم أحد ، لكن الله سبحانه وتعالى يراهم وهم فارّون من قومهم ، ويراهم في ظلمة الكهف ، ويرى تقلبهم ذات اليمين وذات الشمال ، وهذا كله في مجال الرؤية لا في مجال السمع .

وحتى حين بعثوا من نومهم طلبوا من صاحبهم أن يتلطف فلا يراه قومهم وقالوا: ﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكَ يَرْجُمُوكُمْ﴾.

فاقتضى المقام تقديم الإبصار على السمع .

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢].

فقدم البصر على السمع ﴿أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ وذلك لأكثر من سبب ، منها:

١ - إنه قال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ فذكر الرؤية ، والرؤية مرتبطة بالإبصار لا بالسمع .

٢ - إنهم قالوا ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ ذلك أنهم في الدنيا كانوا

(١) انظر كتابنا (التعبير القرآني) ٦٨ .

يسمعون عن جهنم وعذابها وعن الآخرة ، أما الآن فهم أبصروا ذلك وعاینوه ، فقدم حالتهم التي هم فيها .

٣ - إن الإبصار والمشاهدة هنا أهم من السمع ؛ لأن السمع قد يدخل في باب الظن والشك ، أما الإبصار والمشاهدة فهما حال يقين . ولذلك قالوا : ﴿ إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ وهذا إنما يكون عند الإبصار لا عند السماع .

فقوله : ﴿ إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ يقتضي تقديم الإبصار ؛ لأنه الداعي إليه ، كما قال تعالى : ﴿ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۖ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾ [التكاثر: ٦ - ٧] فجعل عين اليقين عن طريق الرؤية .

٤ - من المعلوم أن ليس السماع كالمعينة ، وقد قيل (فما راء كمن سمعا) وإنهم كانوا يسمعون ويكذبون أو لا يقدرّون الأمر حق قدره ، أما الآن فقد رأوا ما لم يكونوا يحتسبون ، فطلبوا الرجعة ليعملوا صالحاً .

فالرؤية ههنا أهم من السمع ، فقدمها لذلك .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ أَلْهَمَّ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا ۚ أَمْ لَهُمْ آيْدٌ يَبْطِشُونَ بِهَا ۚ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا ۚ أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنْظَرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٩٥] .

فقدم الأعين على الآذان وذلك لاقتضاء السياق ذلك ، فإنه قال قبل هذه الآية : ﴿ أَيْشُرُّونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ ۖ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ۖ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَالِمُونَ ۖ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أَثَالِكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۖ أَلْهَمَّ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا ۚ أَمْ لَهُمْ آيْدٌ يَبْطِشُونَ بِهَا ۚ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا ۚ أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ ﴾ [الأعراف: ١٩١ - ١٩٥] .

فإن المقام مقام الدفاع والانتصار ، فذكر أن آلهتهم التي اتخذوها من

دون الله لا يستطيعون أن يدفعوا عنهم أو ينصروهم ، كما أنهم لا يستطيعون أن ينصروا أنفسهم . والدفع والنصر يحتاجان أول ما يحتاجان إلى مشي وبطش .

ثم إن الدفع والبطش يحتاجان إلى البصر قبل الحاجة إلى السمع ليتفادى الضربة إذا وجهت إليه ، أو ليطش في المكان المناسب ، فهو أهم من السمع في هذا المجال ، فإن المبصر يتمكن من الدفاع عن نفسه وغيره ، بخلاف الأعمى فإنه لا يستطيع تعيين مكان العدو ، ولهذا كان البصر مقدماً في هذا المقام .

فلما كان المقام مقام النصر والدفع قدم ما هو أولى بالتقديم ، وهو الأرجل ثم الأيدي ثم البصر ثم السمع .

ولما قدم نصر الغير على نصر النفس قدم الأرجل ؛ وذلك لأن نصر الغير يحتاج إلى الحركة والذهاب إلى المكان الذي يقتضي ذاك .

ومما زاد ذلك اقتضاء لهذا التقديم أنه ختم الآية بقوله : ﴿ قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنْظَرُونَ ﴾ فهو قد تحداهم ليكيدوه ولا يمهلهوه ، وهذا كله يحتاج منهم إلى مشي وبطش وبصر وسمع .

فقوله : ﴿ قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ﴾ يعني ادعوهم ليأتوا إليكم لينصروكم وينزلوا بي العذاب والأذى . فافتضى المقام هذا التقديم من كل وجه .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَأَلْفِ نَعِيدٍ لَهُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٧٩] .

فقدم الأعين على الآذان ؛ وذلك أنه شبه هؤلاء المذكورين بالأنعام .

ومن المعلوم أن الفارق الرئيس بين العقلاء من الجن والإنس وبين

الحيوان هي القلوب التي يفقهون بها أو العقول كما يقول المفسرون .
فالحيوان لا يفقه ، فنفى عنهم ما به التفرقة بين الحيوان والعقلاء ، وهو القلب الفاقه .

ثم إن القلب والعقل مداه أرحب وأوسع من مدى البصر لما فيه من التفكير والخيال والاستنباط . وإن البصر مداه أرحب وأوسع من السمع . فتدرج من الرحب الواسع إلى ما دونه ، فبدأ بالقلب الفاقه ثم البصر ثم السمع .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أنه قال : ﴿أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ والضلال أنسب مع الإبصار ؛ لأنه يقال : (ضل الطريق) ، وكثيراً ما يقترن الضلال مع السبيل في القرآن الكريم . قال تعالى : ﴿ءَأَنُتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِيَ هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ [الفرقان : ١٧] ، وقال : ﴿وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾ [النساء : ٤٤] ، وقال : ﴿وَمَن يَتَّبِدِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [البقرة : ١٠٨] ، وقال : ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل : ١٢٥] ، وقال : ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَن أَهْتَدَى﴾ [النجم : ٣٠] .

وفاقد الإبصار مظنة أن يضل الطريق أكثر من الأصم المبصر ، فناسب تقديم الإبصار من كل وجه .

ومما زاد ذلك حسناً أنه تقدم هذه الآية قوله : ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدَىٰ وَمَن يُضِلِّ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ فذكر الهداية والإضلال ، وهما متناسبان مع السبيل أيضاً .

أما الضلال فقد ذكرنا مناسبته للسبيل ، وأما الهداية فهي نقيض الضلال .

وكما اقترن الضلال بالسبيل اقترنت الهداية به أيضاً ، قال تعالى :

﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ ، وقال : ﴿ قُلْ إِنِّي هَدَيْتَنِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [الأنعام: ١٦١] ، وقال : ﴿ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ﴾ [إبراهيم: ١٢] ، وقال : ﴿ قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة: ١٤٢] ، وقال : ﴿ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ [غافر: ٢٩].

وهداية السبيل والضلال عنه مرتبطان بالإبصار أكثر من السمع ، فناسب تقديم البصر على السمع من كل وجه .

قد تقول : ولكنه قدم السمع على البصر في مثل هذه الآية ، وهي قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [البقرة: ٦-٧] فقد قدم السمع على البصر ، والآيتان متشابهتان .

والحق أن المقام مختلف ؛ ذلك أنه قال في آية البقرة : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ والإنذار يحتاج إلى سماع أولاً فقدم السمع لذلك ، فالمقام مختلف .

٢ - ومن ذلك تقديم الضلال على التكذيب في سورة الواقعة في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَنْتَآ الصَّآلُونَ الْمَكْذِبُونَ ﴾ [الواقعة: ٥١-٥٢] .

وتقديم التكذيب على الضلال في أواخر السورة ، فقد قال : ﴿ وَمَا إِنْ كَانَ مِنَ الْمَكْذِبِينَ الصَّآلِينَ ﴾ [الواقعة: ٩٢-٩٣] .

أما تقديم الصآلين على المكذبين في قوله : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَنْتَآ الصَّآلُونَ الْمَكْذِبُونَ ﴾ فلأنه تقدم في الآيات التي قبلها ذكر أصحاب الشمال ، وذكر أنهم كانوا قبل ذلك مترفين ، وأنهم كانوا يصرون على الحنث العظيم ، وهذا من الضلال . ثم ذكر بعد ذلك تكذيبهم بيوم البعث فقال : ﴿ وَكَأَنُوا

يَقُولُونَ أَيَّدَا مِنَّا وَكُنَّا ثُرَابًا وَعِظْلًا أَيْنَا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوْ أَبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾
[الواقعة: ٤٧ - ٤٨].

فناسب تقديم الضالين على المكذبين .

وأما قوله في آخر السورة: ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ﴾ بتقديم المكذبين على الضالين فلأن الآية وقعت في سياق التكذيب ، فقد ورد قبلها ذكر التكذيب ، قال تعالى: ﴿أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُذْهِبُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكْذِبُونَ﴾ [الواقعة: ٨١ - ٨٢].

ومن معاني الإدهان: التكذيب والغش وإظهار خلاف ما يضمّر . جاء في (معاني القرآن) للفراء: ﴿أَنْتُمْ مُذْهِبُونَ﴾ مكذبون وكافرون ، كلّ قد سمعته^(١) .

وجاء في (لسان العرب): «والمداهنة والإدهان: المصانعة واللين... والإدهان: الغش... وأدهن أي أظهر خلاف ما أضمر ، فكأنه بين الكذب على نفسه»^(٢) .

فناسب تقديم المكذبين على الضالين وهنا .

٣ - قال تعالى: ﴿لَوْ أَطْلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمَلِئْتَ مِنْهُمْ رُعبًا﴾ [الكهف: ١٨] .

بتقديم الفرار على الرعب . والمشاهد تقديم الرعب على الفرار ، فإن الإنسان يخاف ثم يهرب .

فما سبب هذا التقديم؟

نود أن نذكر أولاً أن الواو لا تفيد الترتيب . فلا تفيد الواو أن الرعب

(١) معاني القرآن ٣/ ١٣٠ .

(٢) لسان العرب (دهن) .

كان متأخراً عن الفرار . وأما التقديم والتأخير فإنما يكونان بحسب الأهمية كما ذكرنا . والفرار من هؤلاء الفتية أهم من الرعب ، فإن هؤلاء الفتية خرجوا فارين من قومهم وأووا إلى الكهف لثلاث يراهم أحد ، فآلمهم إذن ألاّ يتملّى فيهم الرائي ويتفرس في وجوههم فيعرفهم . وقد أراد ربك أن يحفظهم ويحميهم ويحجبهم عن عيون الناظرين ، فقدم الفرار منهم على الرعب .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أن الفرار قد يكون أسبق من الرعب ، فإن الشخص لو دخل في كهف ملتجئاً ورأى فيه نفرأ مفتحة أعينهم وهم يتقلبون قد يفرّ منهم ؛ لأنه لا يعرف من هؤلاء ، فلعلهم لصوص أو قطاع طريق أو قتلة أو أنهم طالبون له فيهرب على الفور . ثم يتذكر مشهدهم وتدور في نفسه أمور وأوهام فيمتلئ بالرعب فيشتد في الفرار .

ومن ناحية ثالثة أن الرعب لا يستدعي الهرب دائماً ، فإن الخوف الشديد قد يوقف صاحبه فلا يدعه يهرب . وقد قرأنا في التاريخ أن التتار عندما فتحوا بغداد وامتأ سكانها منهم خوفاً ورعباً قد يوقف أحدهم شخصاً من أهل بغداد في الطريق ويقول له : امكث في مكانك حتى أجيء بسكين فأذبحك . ويبقى واقفاً في مكانه لا يتحرك ، إلى أن يأتي التتاري فيقتله .

ومن المعروف في عالم الحيوان أن الفريسة أحياناً تشاهد السبع فتقف في مكانها فلا تتحرك حتى يفرسها .
فقدم ما هو أهم .

٤ - قال تعالى على لسان موسى عليه السلام حين سأله عما في يمينه : ﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَهَسُّبَا عَلَى غَنَمِي ۚ ﴾ .

فقدم مصلحة نفسه على الغير فقال : ﴿ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا ۚ ﴾ ، ثم ذكر بعد

ذلك الهش على الغنم . فما السبب ؟ .

والجواب أنه قدم مصلحة نفسه على مصلحة الحيوان ؛ لأن الحيوان هو المسخر للإنسان ، وليس الإنسان مسخراً له ، وهذا هو الأمر الطبيعي .

ثم إنه في حالة سفر ، فهو يهبط ودياناً ويصعد مرتفعات ، والعصا هي التي تعينه في سفره ، متوكئاً عليها ، ومستعيناً بها ، وهو يطرد بها الوحوش ، وما إلى ذلك من مآرب يحفظ بها نفسه وغنمه . وفي حفظ مصلحته حفظ لمصلحة الحيوان أيضاً ، فإذا عجز الراعي أو هلك في السفر هلكت غنمه .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أن معنى الهش على الغنم أن يضرب بعصاه أوراق الشجر فتساقط لتأكل غنمه . والغنم ترعى مما تنبت الأرض أولاً ، وأما الهش فقد يكون مساعداً لها ، فليست العصا للهش على الغنم أصلاً ، وإنما هي للتوكؤ والاستفادة منها في أمور أخرى مهمة ، فناسب تقديم التوكؤ عليها والله أعلم .

٥ - قال تعالى : ﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النور : ٢٧] .

فقدم الاستئناس على السلام ، والأصل تقديم السلام على الاستئذان ، فما سبب هذا التقديم ؟

والجواب من أوجه :

أ - إن الواو لا تفيد ترتيباً ولا تعقيماً ، ولذا لا يكون تقديم الاستئناس في الآية مفيداً لتقديمه على السلام .

٢ - إن الاستئناس أهم من السلام ، فإن السلام إنما يكون لغرض الاستئناس ، فقدم ما هو أهم . فهو من باب تقديم الغرض على الوسيلة .

٣- الاستئناس واجب ، والسلام سنة ، والواجب مقدم على السنة .

٤- إن معنى الاستئناس في الأصل من الأنس ، وهو نقيض الاستيحاش ، وهو يعني فيما يعنيه اختيار الوقت المناسب ، وأن أهل البيت غير مشغولين بأمر مهم يصرفهم عن الرغبة في اللقاء . فإن أهل البيت إذا كانوا مشغولين بأمر أهم من اللقاء ، أو أن الوقت غير مناسب للزيارة فستكون وحشة في اللقاء والاجتماع ولا يكون أنس بالزائر . ولذا يكون الاستئناس مقدماً على السلام أصلاً .

٥- إن قسماً من السلام إنما يكون بعد الدخول .

٦- إن القرآن استعمل كلاً من الاستئذان والاستئناس ، وقد استعمل الاستئذان لمن كان حاضراً مع المستأذن ولم يرد في غير ذلك .

قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا أَسْتَأْذِنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنَ لِمَن شِئْتَ مِنْهُمْ ﴾ [النور: ٦٢] .

وقال : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ﴾ [النور: ٥٨] .

وقال : ﴿ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ [النور: ٥٩] .

وقال : ﴿ وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذِنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾ [التوبة: ٨٦] .

وغير ذلك من الآيات . وعلى هذا فالاستئناس غير الاستئذان . ولا يصح استبدال إحدى اللفظتين بالأخرى على الدوام ، فإنه لا يحسن أن يقال مثلاً : (استأنسك أولو الطول منهم) بدل (استأذنك) ، ولا (فإذا

استأنسوك لبعض شأنهم) بدل (فإذا استأذنوك) فدلّ على أن اللفظتين ليستا متطابقتين .

٦ - تقديم الإنفاق على المال وتأخير عنه :

من الملاحظ في القرآن الكريم أنه إذا قدم الإنفاق على الأموال نحو ﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾ فالسياق في الإنفاق والدعوة إليه والحض عليه . وإذا قدم الرزق على الإنفاق نحو ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ فليس المقام في الإنفاق ، وإنما في تعداد جملة من صفات المؤمنين . وهذا أمر مطرد في القرآن الكريم ، فحيث قدّم الإنفاق فالمقام في سياق الإنفاق .

قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفْعَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤] .

وقال : ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبِعُونَ مِمَّا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٢٦٢] .

وقال : ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ﴾ [إبراهيم: ٣١] .

وقال : ﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [المنافقون: ١٠] .

وقال : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْطَعِمُكُمْ مِنْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ [يس: ٤٧] .

وحيث قدم الرزق على الإنفاق فليس المقام في الإنفاق وإنما في تعداد جملة من صفات المؤمنين .

قال تعالى : ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا

أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿البقرة: ٢-٤﴾.

فقال: ﴿وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يُفْقُونَ﴾ فقدم الرزق على الإنفاق ، والسياق -

كما ترى - في ذكر جملة من صفات المتقين ، وليس السياق في الإنفاق .

ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ

وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ

الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٢-٤].

فقدم الرزق على الإنفاق . والسياق كما ترى ليس في الإنفاق وإنما في

ذكر جملة من صفات المؤمنين .

ونحوه قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ

وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمُ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [الحج: ٣٤-٣٥].

وقال: ﴿الَّذِينَ ءَايَنَهُمُ الْكُتُبَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٦﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا

ءَامَنَّا بِهِ ءَ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٦﴾ أُولَٰئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا

صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ

أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ [الفصل: ٥٢-٥٥].

وقال: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ

رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ نَتَجَافَىٰ جُنُوبَهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا

وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴿١٧﴾

[السجدة: ١٥-١٧].

وقال: ﴿وَالَّذِينَ يَخْنَبُونَ كِبِيرَ الْإِيمَانِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٢٧﴾

وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ إِذَا

أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْصَرُونَ﴾ [الشورى: ٣٧-٣٩].

وكلها - كما ترى - ليست في سياق الإنفاق وقد قدم فيها الرزق على

الإنفاق .

والملاحظ أيضاً أنه حيث ذكر الإنفاق مع الرزق جاء بمن التبعيضية فيقول (مما رزقناهم). وأما مع الأموال فالتعبير مختلف ؛ ذلك أن الرزق لا يعني الأموال فقط ، فإن الأموال جزء من الرزق ، فما يأكله الإنسان يسمى رزقاً ، وما يأكله الحيوان يسمى رزقاً ، قال تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ﴾ [العنكبوت: ٦٠] ، وقال : ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ [هود: ٦] والمطر رزق ، قال تعالى : ﴿ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ [الجاثية: ٥] .

والعلم رزق ينبغي أن ينفق منه ، والجاه رزق . جاء في (المفردات) للراغب في قوله تعالى : ﴿ وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْمَوْتُ ﴾ [المنافقون: ١٠] «أي من المال والجاه والعلم ، وكذلك قوله : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾» (١) .

أما ذكر الإنفاق مع غير الرزق فمختلف ، فإنه قد يذكر (من) وقد لا يذكرها والكثير أنه لا يذكرها وخصوصاً مع الفعل المضارع . قال تعالى : ﴿ لَن نَّأْلُوا الْإِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٩٢] فذكر (من) .

وقال : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَنَابِلَ ﴾ [البقرة: ٢٦١] .

وقال : ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْإِثْلِ وَالْتِهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ [البقرة: ٢٧٤] .

وقال : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٦٥] .

(١) المفردات (رزق) ٢٠٠ .

فلم يذكر (من) ، وذلك أن قولنا (ينفق ماله) لا يعني بالضرورة أنه ينفق ماله كله ، بل هو محتمل لذلك ولغيره ، بل الأظهر أنه لا يعني كل المال ، وخصوصاً مع الفعل المضارع .

ودليلنا على ذلك أمران :

الأول : أن زمن الفعل المضارع يدلّ على الحال والاستقبال فزمنه غير منقضى ، والإنفاق يكون في هذا الزمن المتصل ، فلا يزال لديه قسم من المال ينفقه في هذا الزمن غير المنقطع .

فإذا أنفد ماله فقد أنفقه وأصبح الزمن ماضياً فلا نقول : هو ينفقه .

والثاني : الاستعمال الفصيح ، فإن قولنا : (هو ينفق ماله في شراء الكتب) لا يعني أنه ينفق ماله كله ، بل لا يزال عنده قسم من المال ينفقه في ذلك وغيره .

وكذلك في غير الإنفاق ، فإنك إذا قلت : (هو يأكل أموال الناس بالباطل) لا يعني أنه يأكل جميع أموال الناس . قال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِشَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [النساء : ٣٨] وهذا لا يعني أن الذي يفعل ذاك ينفق جميع ماله .

وقال : ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ [التوبة : ٣٤] ولا يعني أنهم يأكلونها جميعها .

ففرق بين الرزق والأموال في الإنفاق .

٧ - تقديم الرحمة على مؤتيها وبالعكس :

قد يقدم الرحمة على مؤتيها أو بالعكس ، فقد يقول : ﴿وَأَتَنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ﴾ بتقديم الرحمة على (من عنده) المشتمل على ضمير مؤتيها ، أو يقول : ﴿وَأَتَنِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾ بتقديم الجار والمجرور على الرحمة ، وذلك

بحسب ما يقتضيه السياق .

فإذا كان الكلام على الله قدم ما دل عليه ، وإذا لم يكن الكلام على الله أو كان الكلام على الرحمة قدمها .

وذلك نحو قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَتَقَوَّمُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ يَدَيْنِ مِّن رَّبِّي وَعَلَيْ رَحْمَةٍ مِّنْ عِنْدِهِ فَعُيِّتَ عَلَيْكُمْ أَنْزِلُكُمْ مَّكُوهًا وَأَنْتُمْ هَاهُنَا كَذِرْهُونَ ﴾ [هود : ٢٨] .

فقد قدم الرحمة على قوله ﴿ مِّنْ عِنْدِهِ ﴾ ؛ وذلك لأن الكلام عليها ، فقد قال ﴿ فَعُيِّتَ عَلَيْكُمْ ﴾ يعني الرحمة ، وقال : ﴿ أَنْزِلُكُمْ مَّكُوهًا ﴾ ﴿ وَأَنْتُمْ هَاهُنَا كَذِرْهُونَ ﴾ فالكلام كما ترى على الرحمة فقدمها .

في حين قال : ﴿ قَالَ يَتَقَوَّمُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ يَدَيْنِ مِّن رَّبِّي وَعَلَيْ رَحْمَةٍ مِّنْ عِنْدِهِ فَعُيِّتَ عَلَيْكُمْ أَنْزِلُكُمْ مَّكُوهًا ﴾ [هود : ٦٣] .

فقدم ضمير المؤتي المجرور بالحرف فقال : ﴿ وَعَلَيْ رَحْمَةٍ مِّنْ عِنْدِهِ ﴾ وذلك لأن الكلام عليه لا على الرحمة ، فقد قال ﴿ فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ ﴾ .

فقدم كلاً بحسب ما يقتضيه السياق .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكْفُرُ بِكَفُورٍ ﴾ [هود : ٩] .

بتقديم (منا) على الرحمة .

وقوله : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْتَهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَّسَّتْهُ لَيَكْفُرَنَّ هَذَا إِلَى ﴾ [فصلت : ٥٠] .

بتقديم الرحمة على (منا) ، وذلك بحسب ما يقتضيه السياق .

فقد قدم الجار والمجرور (منا) على الرحمة في هود ؛ لأن الكلام على الله ، فقد قال : ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾ وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا

رَبِّكُمْ ثُمَّ تَوَبُّوا إِلَيْهِ يُعْطِكمُ مَنَّاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٢﴾ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ أَلَا إِنَّهُمْ يَنْتُونِ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ ذَاتُ الصُّدُورِ ﴿٥﴾ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨﴾ وَلَئِنْ أَدْقْنَا الْإِنْسَانَ مِثْرًا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ ﴿هود: ٢-٩﴾ .

في حين أن الكلام في فصلت على الإنسان فقال: ﴿لَا يَسْمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَكْشُ فَنُوطٌ﴾ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَدْقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لِلْحُسْنِ﴾ [فصلت: ٤٩-٥٠] .

فقدم الرحمة على المؤتي .

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا إِذَا أَدْقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾ [الشورى: ٤٨] .

بتقديم (منا) على الرحمة .

وقوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَىٰ لِلْأُولَىٰ الْأَلْبَبِ﴾ [ص:]

[٤٣] .

بتقديم الرحمة على (منا) ؛ وذلك أنه قدم الجار والمجرور (منا) على الرحمة في الشورى ؛ لأن الكلام على الله ، فإن قبلها ﴿وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ﴾ ﴿٤٦﴾ أَسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ

قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُم مِّنْ مَّلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّكِيرٍ ﴿الشورى: ٤٦ - ٤٧﴾ ثم تأتي الآية ، وبعدها ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ .

في حين أن الكلام في سورة (ص) على أيوب ورحمة الله به ، قال تعالى : ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ارْكُضْ بِجِئِكَ هَذَا مُغَسِّلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاصْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ﴾ .

فناسب تقديم كل فيما يناسبه .

٨ - قال تعالى في سورة المؤمنون : ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ﴾ [المؤمنون: ٢٤] .

بتقديم ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ على ﴿مِن قَوْمِهِ﴾ .

وقال في السورة نفسها في آية أخرى : ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنَ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِيقَاءِ الْآخِرَةِ وَأُتِرْفَنَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٣] .

بتقديم ﴿مِن قَوْمِهِ﴾ على ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ، وذلك لأكثر من سبب :

منها أنه لو أخر (من قومه) في الآية الثالثة والثلاثين لأصبح الكلام (وقال الملأ الذين كفروا وكذبوا ببقاء الآخرة وأترفناهم في الحياة الدنيا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم) ولاحتمل أن يكون الجار والمجرور مرتبطاً بقوله : (وأترفناهم) دون غيره من المعطوفات فيكون قيداً له ، فيكون المعنى : وقال الملأ الذين كفروا وكذبوا ببقاء الآخرة عامة ، سواء كانوا من قومه أم من غيرهم ، وقال الذين أترفناهم في الحياة الدنيا من قومه : ما هذا إلا بشر مثلكم . فيكون التنقيص على من أترفهم من قومه دون غيرهم ، وهذا لا يصح .

ومنها أن قوله تعالى: ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ﴾ فيه أن (الذين كفروا) وصف للملأ وليس للقوم.

وأما في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا ﴾ فإن (الذين كفروا) وصف للقوم وليس للملأ على الأرجح. ومعنى ذلك أن الكفر في الآية الثانية أعم وأشمل، فإنه وصف للقوم عامة.

أما الآية الأولى فإن القائل هم الملأ الكافر من القوم، ومعنى ذلك أن في القوم من ليس كافراً.

إن الآية الأولى في قوم نوح عليه السلام، وأما الآية الأخرى ففي قوم آخرين أشد كفراً، يدل على ذلك تتابع الصفات الذميمة فيهم. فقد وصفهم بأنهم كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفهم في الحياة الدنيا، ولم يصف قوم نوح بذلك كله.

ثم إنه ذكر في قصة نوح ناجين من الغرق فقال: ﴿ فَاسْأَلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تَخْطِطِ بِنِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴾ [المؤمنون: ٢٧] ولم يذكر ناجين في القصة الأخرى، وإنما قال: ﴿ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴾ ١ فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غشَاءً بَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [المؤمنون: ٤٠-٤١].

فدل على أن هؤلاء أشد كفراً فناسب أن يقول فيها: ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ بوصف القوم بأنهم كفروا، بخلاف القصة الأولى.

٩ - قال تعالى: ﴿ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ ﴾ [النحل: ٣١].

بتقديم الجار والمجرور (فيها) على (ما يشاءون).

وقال: ﴿ قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ

جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَتْ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا ﴿١٦﴾
[الفرقان: ١٥-١٦].

بتقديم الجار والمجرور أيضاً (فيها) على (ما يشاءون).

في حين قال: ﴿أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٤-٣٥].

بتقديم (ما يشاءون) على (فيها).

وذلك - والله أعلم - أنه لم يذكر في آتي النحل والفرقان من صفات أهل الجنة إلا أنهم متقون.

قال في النحل: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَبِيرٌ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [النحل: ٣٠-٣١].

وقال في الفرقان: ﴿قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ ﴿١٥﴾ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴿١٦﴾ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَتْ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا﴾ [الفرقان: ١٥-١٦].

في حين توسع في ذكر صفات أهل الجنة وتعدادها في (ق) فقال: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣٦﴾ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٧﴾ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴿٣٨﴾ أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴿٣٩﴾ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣١-٣٥].

فذكر من صفة من هو من أهل الجنة في (ق):

١ - أنه متق ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾.

٢ - أواب.

٣ - حفيظ.

٤ - خشي الرحمن بالغيب .

٥ - ذو قلب منيب .

فلما أفاض في ذكر صفات أهل الجنة قدم مشيئتهم على ضمير الجنة . ولما لم يفض في صفاتهم قدم ما يتعلق بالجنة وآخر مشيئتهم ؛ لأنهم دون المذكورين في (ق) . ولا يناسب وضع أحدها مكان الآخر .

١٠ - تقديم العمل على البصر وبالعكس :

قد يقدم العمل على البصر فيقول : ﴿ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ ، وقد يقدم البصر على العمل فيقول : ﴿ بَصِيرٌ يَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ وذلك بحسب ما يقتضيه السياق .

فإذا كان السياق في العمل قدم العمل ، وإذا لم يكن السياق في العمل ، أو إذا كان السياق على الله وليس على الإنسان وعمله قدم صفته تعالى وهو البصر على العمل .

فمن باب تقديم العمل على البصر قوله تعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [البقرة : ١١٠] .

فلما ذكر العمل من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وما يقدم الإنسان من خير قدم العمل فقال : ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ .

ونحو ذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيْتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَتَأْتَتْ أَكْطُلُهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِيبْهَا وَابِلٌ فَطُلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [البقرة : ٢٦٥] .

وقال : ﴿ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لِيُوفِيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَلَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [هود : ١١١-١١٢] .

فلما كان الكلام في العمل قدم العمل على الخبرة وقدمه على البصر ، فقال في الآية الأولى : ﴿ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ ، وقال في الآية بعدها : ﴿ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ .

وقال : ﴿ أَنْ أَعْمَلْ سَبِغْتِ وَقَدِّرِ فِي السَّرِّ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنْ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [سبا : ١١] .

وقال : ﴿ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [فصلت : ٤٠] .

وكلها في سياق الكلام على العمل .

ومنه قوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الحديد : ٤] .

فلما قال : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ﴾ ناسب أن يقدم عملهم ، فإن هذا يدل على أنه معهم . هذا إضافة إلى أنه ذكر عملهم فيما بعد فقال : ﴿ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُتَسَخِّلِينَ فِيهِ فَأَلْزَيْنَاكُمُ مِنْكُمْ وَأَنْفِقُوا لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ [الحديد : ٧] . فإن الآية قد تكون تعقيباً على أمر سابق أو تأسيساً لأمر آت ، فناسب تقديم عملهم .

فإن لم يكن الكلام في العمل ، أو إذا كان الكلام على الله ، فإنه يقدم صفته سبحانه .

قال تعالى : ﴿ وَلَنَجْذِثَنَّهُمْ أَخْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَوةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرَحِّزٍ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة : ٩٦] .

فأنت ترى أنه ليس السياق في العمل فقدم البصر عليه .

ونحوه قوله تعالى : ﴿ وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةً فَعَمُوا وَصَمُوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [٦١] لَقَدْ

كَفَرُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ... لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ﴿٧١﴾ [المائدة: ٧١ وما بعدها].

وهي كما ترى ليست في سياق العمل .

ونحوه قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الحجرات: ١٨] .

فلما ذكر أن الله يعلم غيب السماوات والأرض ناسب تقديم صفته فقال : ﴿ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

ونحو هذا التقديم والتأخير ما يكون في العمل والخبرة ، فقد يقدم العمل على الخبرة ، أو الخبرة على العمل ، بحسب ما يقتضيه المقام .

فإنه إذا كان السياق في عمل الإنسان قدم عمله فيقول : ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ ، وإذا كان السياق في غير العمل ، أو كان في الأمور القلبية ، أو كان الكلام على الله سبحانه ، قدم صفته فيقول : ﴿ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٧١] والكلام كما هو ظاهر في الصدقات ، وهي من العمل .

ونحوه قوله تعالى : ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيَّكَ أَعْظَمَ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلَوْا وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [الحديد: ١٠] .

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٣٤] .

فالكلام على الإنسان وعلى العمل ، يدل على ذلك قوله : ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ .

وقوله : ﴿ زِعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِمَا عَمِلُوا وَكَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [التغابن : ٧ - ٨] .

فالكلام على الإنسان وعمله وليس الكلام على الله ، فقدم ما يتعلق بالإنسان .

في حين قال : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُفْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [النور : ٥٣] .

والكلام على المنافقين ، والنفاق أمر قلبي ، وهو يحتاج إلى خبرة لمعرفة أصحابه ، فقدم وصفه سبحانه لذلك .

ونحوه قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ [النمل : ٨٨] .

فليس السياق في العمل ، ثم إن الكلام على الله سبحانه ، فقدم وصفه على الفعل .

ونحو قوله : ﴿ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مِمَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الحشر : ١٨] .

والتقوى أمر قلبي ، فقدم الخبرة . والله أعلم .

ونحو هذا التقديم والتأخير ما يكون في العلم والعمل ، فإذا كان السياق في العمل قدمه ، وإذا كان في العلم قدمه .

ونحو ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَنَّ مَقْبُوضَةً فَإِنْ أَتَى بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمْنَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا

الشَّهَادَةُ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ إِثْمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿البقرة: ٢٨٣﴾ .

والسياق كما هو واضح في العمل ، فقدم ما يتعلق به فقال : ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ فقدم عملهم على العلم .

ونحوه قوله تعالى : ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّهَا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون : ٥١] .

فقدم العمل لما قال قبله : ﴿وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ والكلام أيضاً إنما هو على الرسل فقدم ما يتعلق بهم .

ونحوه قوله تعالى : ﴿فَإِنْ لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [النور : ٢٨] . وهو نظير ما مر .

في حين قال : ﴿الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ فَأَلْفَوْا سَلَامًا مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل : ٢٨] .

فإنهم نفوا أن يكونوا عملوا سوءاً في الدنيا ، والله نفى قولهم وأثبت أنهم كانوا يفعلون السوء فقال : ﴿بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ . ومن المعلوم أن الإثبات هو الذي يحتاج إلى العلم والدليل . فناسب ذلك تقديم العلم والله أعلم .

وقال : ﴿وَمَا يَتَّبِعْ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [يونس : ٣٦] .

فلما نفى العلم عنهم بأنهم يتبعون الظن أثبت العلم له فقال : ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ .

فناسب تقديم العلم . والله أعلم .

١١ - قال تعالى في سورة عبس: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ [عبس: ٤٠ - ٤٢].
أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ

فقدم الكفرة على الفجرة، بخلاف ما ورد في سورة نوح في قوله: ﴿وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاكِراً كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٧]. وقد ذكرنا في مبحث الصفات آية نوح.

أما تقديم الكفرة على الفجرة هنا فمما يقتضيه السياق:

١ - فقد قال قبل ذلك: ﴿قَدْ آلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُوا﴾ فتعجب من كفره.

٢ - وقال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ أي مغطاة مجللة بالغبار والسواد.

ومن معاني الكفر التغطية والستر، فكما غطوا إيمانهم وستروه بالكفر غشى الله وجوههم بالغبار والقتام والسواد.
وهذا الوصف مناسب لمعنى الكفر.

٣ - إن هؤلاء المذكورين إنما هم من الكفار. وهذه صفة وجوه الكفار في ذلك الوقت، فلما ذكر وصفهم بدأ بهم. أما الفاجر فقد يكون مؤمناً وقد يكون كافراً. فالفاجر قد يكون مؤمناً غير أنه منبعث في المعاصي، وقد يكون كافراً.

أما هؤلاء المذكورون فقد جمعوا إلى الكفر الفجور فناسب تقديمهم. والله أعلم.

١٢ - قال تعالى في سورة هود: ﴿إِنِّي لَكُرْهُمُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ [هود: ٢].

بتقديم النذير على البشير.

وقال في سورة الأحزاب: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾ [الأحزاب: ٤٥].

بتقديم المبشر على النذير .

وذلك أن الكلام في سورة هود موجه إلى الكافرين ، قال تعالى :
﴿الرَّ كُنْتُ أَحْكَمَ عَيْنُهُ ثُمَّ فُضِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَإِنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبُّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُغْفِرْ لَهُمْ مَنَعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٥﴾﴾
[هود: ١-٥] .

ثم إنه كرر وصف الإنذار فقال : ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [هود: ١٢] ولم يذكر التبشير .

ثم إن جو السورة تشيع فيه عقوبات الأمم البائدة كقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط ومدين وغيرهم ، وهذا ما يستدعي تقديم الإنذار .

ومما ناسب ذلك أيضاً أنه قال في السورة : ﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [هود: ٢٤]
فقدّم من هم أولى بالإنذار وهم الذين مثل لهم بالأعمى والأصم .

ثم إنه ذكر عذاب الآخرة فقال : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ﴾
ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١١٠﴾ وَمَا تُؤْخَرُہُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدُّودٍ ﴿١١١﴾
يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ [هود: ١٠٣-١٠٥] .

فذكر عذاب الآخرة - وهو تخويف - يستدعي تقديم الإنذار .

وقدم الأشقياء على السعداء فقال : ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ والأشقياء أولى بالإنذار .

ثم إنه قال في أواخر السورة : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ

وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ [هود: ١١٩].

وقال: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَانظُرُوا إِنَّا مُنظَرُونَ﴾ [هود: ١٢١ - ١٢٢].

فالكلام موجه لغير المؤمنين . فناسب تقديم الإنذار من كل وجه .

وأما سياق آية الأحزاب فالكلام فيه موجه إلى المؤمنين ، فقد قال :
﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ الَّذِي يُصَلِّيٰ عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيَا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤١ - ٤٦].

وقال بعد ذلك: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُمْ مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٧] ولم يقل (وانذر الكافرين). فناسب تقديم التبشير ههنا ، كما ناسب تقديم الإنذار ثم .

١٣ - قال تعالى في سورة سبأ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ [سبأ: ١ - ٢].

بتقديم الرحيم على الغفور ، وهذا هو الموطن الوحيد الذي تقدم فيه (الرحيم) على (الغفور) فيما اجتمع فيه هذان الاسمان الكريمان .

وأما المواطن الأخرى فكلها بتقديم (الغفور) على (الرحيم) .

وذلك أنه لم يتقدم الآية ما يتعلق بالمكلفين ، وإنما تقدمها أمر عام مما يلج في الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها .

وقد تأخر ذكر المكلفين إلى ما بعدها فقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِنَا

السَّاعَةَ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عِلْمُ الْغَيْبِ ﴿٣﴾ [سبأ: ٣] والمكلفون هم الذين بهم حاجة إلى المغفرة. وأما الرحمة فأمر عام تعم المكلفين وغيرهم. فهي كما تشمل المكلفين تشمل البهائم وسائر الأحياء الأخرى.

فلما كان ما تقدم الآية أمراً عاماً قدم الرحمة التي هي أعم من المغفرة. ولما أخرج ذكر المكلفين آخر المغفرة لأنها تخصهم. يدل ذلك على أن جميع المواطن التي تقدم فيها اسمه (الغفور) على (الرحيم) تقدم فيها ذكر المكلفين وذلك نحو قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٣].

وقوله: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٩٩].

وقوله: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٤].

وقوله: ﴿قُلْ يٰٓعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

فاتضح ما قلناه. والله أعلم.

* * *



التشابه والاختلاف

قد يتشابه تعبيران في القرآن الكريم مع شيء من الاختلاف في التعبير وذلك لأغراض يقتضيها السياق والمقام ، فيكون كل تعبير أنسب في مكانه ، ومن ذلك على سبيل المثال :

١ - قوله تعالى في سورة الكهف : ﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْصِراً ﴾ [الكهف : ٤٣] .

وقوله في سورة القصص في قارون : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴾ [القصص : ٨١] .

فقال :

في القصص	في الكهف
فما كان له	ولم تكن له
من فئة	فئة
وما كان من المنتصرين	وما كان منتصراً

إن آية الكهف وقعت في سياق حوار بين شخصين : أحدهما : يملك جنتين مشمرتين بينهما نهر ، غير أنه مشرك بالله ولا يؤمن بيوم الحساب ، وكان يقول : ﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴾ [الكهف : ٣٦] .

والآخر : مؤمن فقير .

ثم انتهى الأمر إلى أن أرسل الله على الجنتين ما أهلكهما وأبادهما

فأخذ بعض أصبعه من الندم ويتحسر على ما فات ويقول: ﴿يَلَيِّنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ [الكهف، الآيات ٣٢-٤٤].

وأما آية القصص فهي في سياق قصة قارون الذي آتاه الله من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة ولكنه بغى على قومه، فخرج على قومه في زينته وتمنى جمع ممن رأوه أن يكون لهم مثل ما أوتي، ورد عليهم آخرون أن ثواب الله خير من ذلك. وانتهى الأمر إلى أن خسف الله به وبداره الأرض، فذهل من كانوا يتمنون مكانه بالأمس وحمدوا الله على نجاتهم من مثل هذا المنقلب (الآيات من ٧٦-٨٢).

ومن ذلك يتبين ما يأتي:

١ - أن آية الكهف وقعت في سياق حوار بين شخصين ﴿وَأَصْرَبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ... فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ... قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾.

أما آية القصص فهي في سياق حوار بين مجموعتين:

﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَلِيتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قُتُورُونَ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الْصَّابِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانِ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ﴾ [القصص: ٧٩-٨٢].

٢ - في سياق آيات الكهف كان الهلاك للجنتين، أما الفرد فنجا ﴿وَأُحِيطَ بِشَرِّهِ فَأَصْبَحَ يَقْلُبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَلَيِّنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٢].

وأما في القصص فكان الإهلاك للمال وصاحبه ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾ [القصص: ٨١].

ومن هذا يتضح أن العقوبة في القصص أشد ، فاختلف التعبير تبعاً لذلك :

أ - فقال في القصص (فما كان) .

وقال في الكهف (لم تكن) .

و(ما كان) أكد وأقوى من (لم تكن) ؛ ذلك أن (ما كان) نفي لـ (لقد كان) ، أما (لم تكن) فنفي لـ (كانت) . فإن (ما فعل) نفي لـ (لقد فعل) ، و(لم يفعل) نفي لـ (فعل) ^(١) .

والنفي بـ (ما) مع الماضي يفيد التوكيد ^(٢) ؛ وذلك لأنها جواب لقسم مقدر . جاء في (كتاب سيبويه) : « وإذا قال (لقد فعل) فإن نفيه (ما فعل) لأنه كأنه قال : (والله لقد فعل) فقال : (والله ما فعل) » ^(٣) .

وهو المناسب لشدة العقوبة .

ب - قال في القصص (من فئة) بزيادة (من) الاستغراقية المؤكدة .

وقال في الكهف (فئة) من دون (من) .

فما في القصص أكد وأدلّ على الاستغراق ، فناسب ذلك شدة العقوبة .

ج - لما كان المنتصر في الكهف واحداً وهو المؤمن ، إذ الحوار دار بين شخصين ، قال : ﴿ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴾ .

ولما كان المنتصرون في القصص هم قوم موسى ، ولم يك قارون واحداً منهم ، قال : ﴿ وَمَا كَانَتْ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴾ .

د - وهناك أمر آخر حسن ذكر التبعض في القصص : ﴿ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴾

(١) انظر كتاب سيبويه ١/ ٤٦٠ .

(٢) انظر الإتيان ١/ ١٧٦ .

(٣) كتاب سيبويه ١/ ٤٦٠ .

وهو أنه جرى في السورة ذكر التبعض كثيراً ، فقد ورد فيها (١٥) خمس عشرة مرة .

قال تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ كَأَنَّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ ﴿ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ﴿ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ ﴿ فَأَخْرَجَ إِيَّيْكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ ﴿ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ ﴿ إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِينَ ﴾ ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ مِنَ الْكَذِبِينَ ﴾ ﴿ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴾ ﴿ وَمَا كُنْتُ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ ... إلخ .

وليس في الكهف شيء من ذلك .

٢ - قال تعالى في سورة يونس : ﴿ وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَاْمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَاْمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس : ٩٠] .

وقال في سورة طه : ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى ﴾ ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ ﴿ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى ﴾ [طه : ٧٧ - ٧٩] .

فقال في سورة يونس : ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ ﴾ بواو العطف .

وقال في سورة طه : ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ ﴾ بالباء .

فما دلالة كل تعبير؟ وما سر هذا الاختلاف؟

إن الواو تفيد العطف ، فهي تدل على أن فرعون كان مع جنوده متبعاً لموسى وقومه .

أما الباء فهي لا تفيد ذاك نصّاً ، وإنما هي تحتل أنه كان متبعاً لهم بنفسه ، كما تحتل أنه لم يتبعهم بنفسه ، وإنما أرسل جنوده لاتباع موسى وقومه ولم يذهب معهم ، كما تقول : (أتبع الرئيس الجيش بخمسة

٤ - ودعوا ربهم ألا يجعلهم فتنة لفرعون وقومه فقالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [٨٥].

٥ - دعا موسى على فرعون فقال: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأْتَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُصَلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [٨٨].

٦ - قال في يونس: ﴿فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا﴾ فزاد البغي والعدو زيادة في الدلالة على تصميم فرعون على استئصال بني إسرائيل وسحقهم ، وزيادة في ذمه . ولم يقل مثل ذلك في طه . بل إنه في طه لم يذكر فتنة فرعون لبني إسرائيل .

ففرعون في سياق آيات يونس باطش جبار مسرف في نفسه ومحاربه بني إسرائيل ، فاقترضى السياق أن يكون على رأس جنده في اتباع موسى وقومه ليردهم ويفتنهم ، واقتضى أن يستحق العقاب ، ولذا اختلف السياق في يونس عما في طه ، وذلك أنه :

أ - قال في يونس: ﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ﴾ فأسند المجاوزة إلى نفسه سبحانه (جاوزنا) فتولَّى ربنا ذلك بنفسه لينجي بني إسرائيل وليبطش بفرعون .

في حين قال في طه: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي﴾ .

فالله هو الذي جاوز ببني إسرائيل البحر في يونس .

وفي طه موسى هو الذي أسرى بهم .

ب - ذكر عاقبة فرعون وغرقه في يونس ولم يذكر غرق جنده .

في حين ذكر غرق الجند في طه ولم يخص فرعون بذكر .

فقد قال في يونس: ﴿حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٩١) ءَاكُنْ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ ءَايَةً﴾ [يونس : ٩٠ - ٩٢] .

فالكلام كما ترى على فرعون .

في حين قال في طه : ﴿ فَعَشِيَهُمْ مِّنَ اللَّيْلِ مَا عَشَوُاْ ﴾ ثم قال : ﴿ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ ﴾ [طه : ٧٩] .

فكان هذا التعقيب أنسب شيء ، فقد كان فرعون في طه موجهاً فأضلهم وغييهم في البحر .

وكان في يونس متبعاً بنفسه فغرق .

فكان كل تعبير مناسباً لسياقه .

ج - إن إيمان فرعون حين أدركه الغرق بقوله : ﴿ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ ﴾ كان كأنه استجابة لدعاء موسى : ﴿ رَبَّنَا أَطْمِسْ عَلَيَّ أَمْوَالِهِمْ وَاسْدُدْ عَلَيَّ قُلُوبَهُمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [يونس : ٨٨] .

وقد ذكر ربنا أنه أجابه الدعوة فقال : ﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَتِ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يونس : ٨٩] .

٣ - قال تعالى في سورة النحل : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَحْزِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [النحل : ٦١] .

وقال في سورة فاطر : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهِمَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴾ [فاطر : ٤٥] .

ومن النظر في النصين نلاحظ ما يأتي :

١ - إنه قال في النحل : ﴿ يَظْلِمِهِمْ ﴾ .

وقال في فاطر : ﴿ بِمَا كَسَبُوا ﴾ .

٢ - قال في النحل : ﴿ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ ﴾ .

وقال في فاطر: ﴿مَاتَرَكْ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾.
 ٣- ختم آية النحل بقوله: ﴿لَا يَسْتَخْرِجُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾.
 وختم آية فاطر بقوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾.
 وسبب هذا الاختلاف - والله أعلم -:

أ - أنه قال في آية النحل: (بظلمهم) ؛ لأنه تقدم ذلك وأد البنات ، وهو ظلم ؛ لأنه قتل لنفس بريئة بلا سبب . قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَبِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [النحل: ٥٨ - ٥٩].

ولم يتقدم في فاطر نحو ذلك ، وإنما ذكر أعمال الأمم السابقة وعمل الكافرين فقال: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ اسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أُولَٰئِكَ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُونَ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴿٤٤﴾﴾ [فاطر: ٤٢ - ٤٤].

فكان ذكر الظلم أنسب بالأولين ، وذكر الكسب أنسب بالآخرين .
 جاء في (ملاك التأويل):

«إن آية النحل تقدمها قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَبِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ﴿٥٩﴾﴾ [النحل: ٥٨ - ٥٩] فإشارة الآية إلى وأدهم البنات ، وهو أعظم الظلم وأشنع ، إذ لم يتقدم للموؤودة جريمة ولا شبهة يتعلق بها قاتلها .
 فناسب هذا ذكر الظلم ؛ فقال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهِمْ مِنْ دَابَّةٍ﴾ والضمير من (عليها) للأرض يفهمه سياق الكلام ، فناسب ما أشير إليه من عظيم ظلمهم التصريح بذكر الظلم في قوله (بظلمهم).

ولما لم يتقدم في آية سورة الملائكة إفصاح بلفظ الظلم ، بل تقدمها قوله : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نِفُورًا ۖ أَسْكَبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ ﴾ فأشير إلى اجتراحاتهم وسيء اكتسابهم لنفورهم ومكرهم السيء فناسب ذلك قوله ﴿ بِمَا كَسَبُوا ﴾ ^(١) .

ب - قال في آية النحل : ﴿ مَا تَرَكَ عَلَيْنَا مِنْ دَابَّةٍ ﴾ .

وقال في آية فاطر : ﴿ مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ ﴾ .

ذلك أن قوله : (عليها) أعم وأشمل من قوله : (على ظهرها) وإن كان المقصود ب (على ظهرها) : (عليها) .

فإن (الظهر) جزء من كل ، وقوله : (على ظهرها) من باب المجاز المرسل ، وهو يعني (عليها) ، ولكن من حيث التعبير أن قوله : (عليها) أشمل وأعم من (على ظهرها) وهو المناسب للظلم ، فإن الظلم أسوأ من الكسب ؛ ذلك لأن الظلم لا يكون إلا سيئاً ، وأما الكسب في أصل المعنى فإنه يكون للخير والشر ، قال تعالى : ﴿ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ﴾ [الأنعام: ١٥٨] ، وقال : ﴿ بَكَّى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَاطِئَتُهُ ﴾ [البقرة: ٨١] فكانت العقوبة العامة الشاملة أنسب مع الظلم ، بخلاف الكسب .

ج - قال في النحل : ﴿ يَظْلِمُهُمْ ﴾ بالمصدر .

وقال في فاطر : ﴿ بِمَا كَسَبُوا ﴾ بالفعل الماضي . والمصدر هو الحدث المجرد من الزمن ، أما الفعل فهو مقيد بالزمن الماضي . فالمصدر أعم من الفعل ، فناسب المصدر العموم وهو قوله (عليها) ، وناسب المقيّد الذي هو الفعل ذكر الخاص وهو الظهر .

د - قال في النحل : ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَحْزِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ .

(١) ملاك التأويل ٢/٦٠٧ .

وقال في فاطر: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَاتَّخَذَ اللَّهُ كَانَ يَعْبَادِهِ بِصِيرًا﴾.

فذكر الأجل في النحل دون فاطر؛ وذلك لأن الكلام في النحل على الآجال في الدنيا. وأما في فاطر فقد ذكر أنه في يوم القيامة، فناسب قوله: ﴿فَاتَّخَذَ اللَّهُ كَانَ يَعْبَادِهِ بِصِيرًا﴾. وجاء في (روح المعاني) في آية فاطر: «قال: ﴿وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وهو يوم القيامة... ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَاتَّخَذَ اللَّهُ كَانَ يَعْبَادِهِ بِصِيرًا﴾ [فاطر: ٤٥] فيجازي المكلفين منهم عند ذلك بأعمالهم إن شراً فشر وإن خيراً فخير»^(١).

وهناك أمر آخر حسن ختام كل آية بما ختمت به، وهو أن آية فاطر في سياق الكلام على الله وصفاته، فناسب ختامها بصفته تعالى وهو قوله: ﴿فَاتَّخَذَ اللَّهُ كَانَ يَعْبَادِهِ بِصِيرًا﴾. قال تعالى في سياق آية فاطر: ﴿إِنَّكَ اللَّهُ عَزِيزٌ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾^(٢٨) هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا^(٣٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ نَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا فهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّنْهُ بَلْ إِنِّي بِغَدِ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا^(٤٠) إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا^(٤١)... وَمَا كَانِ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُمْ كَانِ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٣٨ - ٤٤].

وأما السياق في النحل ففي الكلام على الإنسان وصفاته، فناسب ختامها بالكلام على الإنسان. قال تعالى في سياق آية النحل: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَشُعْلَنَ عَمَّا كُتِبَ تَفْتَرُونَ﴾^(٥٦) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ^(٥٧) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ^(٥٨) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوِيٍّ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا

(١) روح المعاني ٢٢/٣٠٨ - دار الفكر للطباعة بيروت ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَحْزِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذْبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ ﴿النحل: ٥٦ - ٦٢﴾.

هـ - قدم تأخير الأجل على تقديمه ؛ لأن تأخير الآجال هو مراد الناس ، وهو أحب إليهم من تقديمه ، فنفى ما يطمعون فيه . والله أعلم .

٤ - قال تعالى في يحيى عليه السلام : ﴿ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴾ ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿مريم: ١٣ - ١٥﴾ .

وقال في عيسى عليه السلام : ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾ ﴿٣١﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣٢﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٣﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿مريم: ٣٠ - ٣٣﴾ .

ومن النظر في النصين نرى ما يأتي :

أ- أنه قال في يحيى : ﴿ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ﴾ .

وقال عيسى : ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾ .

فقال في يحيى : ﴿ وَلَمْ يَكُنْ ﴾ وقال عيسى : ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْنِي ﴾ ولم يقل (ولم أكن جباراً) كما قال في يحيى .

ب - قال في يحيى : ﴿ عَصِيًّا ﴾ .

وقال عيسى : ﴿ شَقِيًّا ﴾ .

ج - قال في يحيى : ﴿ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ ﴾ بتنكير السلام .

وقال عيسى: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ﴾ بتعريف السلام.

د - قال عيسى: ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۖ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا... وَبَرًّا﴾ ولم يقل: (وجعلني برًّا).

هـ - قال: (عصيًا) بالمبالغة، ولم يقل: (عاصيًا).

ولعل من أسباب ذلك والله أعلم:

أ - أن الكلام على يحيى إخبار من الله تعالى عنه.

وأما عيسى فكلامه هو عن نفسه وليس إخباراً من الله.

فلما كان الكلام على يحيى إخباراً من الله قال: ﴿وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾.

ولما كان كلام عيسى كلامه هو نسب النعمة والفضل إلى الله فقال:

﴿آتَيْنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۖ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا... وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ ولم يقل: (ولم أكن جباراً شقياً) اعترافاً بالنعمة والفضل لربه وهو أدب الكلام.

فكان كل تعبير في مكانه أمدح وأنسب.

ثم من ناحية أخرى لا يصلح الكلام إذا قال عيسى عن نفسه: (ولم أكن جباراً شقياً) لأن هذا القول بعد الولادة مباشرة وليس له ماضي في الدنيا قبل ذلك.

كما لا يصلح أن يقول: (ولا أكون جباراً شقياً) لأن ذلك في المستقبل وهو غيب لا يعلمه إلا الله.

ب - قال في يحيى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ وكأن ذلك كان استجابة لدعوة أبيه زكريا ﴿وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾.

وقال عيسى: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ ولم يقل: (ولم أكن جباراً

شقيًّا) ، اعترافاً بنعمة الله عليه أن لم يجعله ذاك . ولم يقل : (ولم أكن جباراً شقيًّا) ، بنسبة الفضل إلى نفسه ، فربه هو الذي جعله ذاك .

ولما ذكر أنه جعله نبياً وجعله مباركاً ناسب ذلك عدم الشقاء ولم يقل (ولم يجعلني جباراً عصياً) لأن النبي لا يكون عصياً . وليدل على أنه لا يرضى بادعاء أتباعه بأنه الله أو ابن الله فيشقى ، ولو رضى بذلك لكان جباراً شقيًّا .

وخالف بين الخاتمتين ، أعني خاتمة يحيى وخاتمة عيسى للإفادة أن الجبار عصي وشقي .

ج - قال في يحيى : ﴿وَسَلَّمَ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ﴾ بالتنكير .

وقال عيسى : ﴿وَالسَّلَامُ عَلَى يَوْمِ وُلِدْتُ﴾ بالتعريف .

قيل : إنه عرّف السلام تعريضاً بلعنة متهمي مريم وأعدائها من اليهود ، أي السلام عليه لا عليكم ، نظير قوله : (والسلام على من اتبع الهدى) ^(١) ، فقد قالوا في أمه بهتاناً عظيماً كما قال تعالى : ﴿وَيَكْفُرْهُمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ [النساء : ١٥٦] .

هذا من ناحية .

ومن ناحية أخرى أن (السلام) معرفة ، و(سلام) نكرة ، والنكرة أعم وأشمل ، يدل على ذلك أن تحية أهل الجنة هي (سلام) بالتنكير الدال على الشمول والعموم . والرحمن يحييهم بذلك ، والملائكة يحيونهم بذلك ، ولم ترد تحية أهل الجنة بالتعريف .

(١) الكشف ٥٠٨/٢ ، البحر المحيط ٢٥٩/٧ ، روح المعاني ١٦/١٣٠ .

قال تعالى : ﴿ سَلَّمَ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعَمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ [الرعد: ٢٤].

وقال : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٤٤].

وقال : ﴿ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ ﴾ [يس: ٥٨].

وذلك ما سلم به تعالى على عباده المرسلين أيضاً : ﴿ وَسَلَّمَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الصفات: ١٨١].

وهو ما تركه على أنبيائه ورسله أيضاً : ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴾ ﴿ ٧٨ ﴾ ﴿ سَلَّمَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴾ [الصفات: ١٠٩] ﴿ سَلَّمَ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ ﴾ [الصفات: ١٢٠] ﴿ سَلَّمَ عَلَى آلِ يَاسِينَ ﴾ [الصفات: ١٣٠].

ولم يسلم ربنا بالتعريف .

والسلام على يحيى هو تحية ربنا عليه فقال : ﴿ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ ﴾ وهو نظير ما حيّا به أنبياءه ورسله .

وسلام عيسى تحيته على نفسه : ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَى يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ ﴾ .

وتحية الله أعلى من تحية عيسى وأكمل . فالله سلم على يحيى بالتنكير لإفادة العموم والشمول كما حيّا به المرسلين .

وعيسى سلم على نفسه ، غير أنه لم يسلم على نفسه بالشمول أدباً وتواضعاً .

لكن عيسى دخل في تحية ربه حين قال : ﴿ وَسَلَّمَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴾ فشملة ذاك .

فالتعريف أفاد التعريض ، والتنكير أفاد العموم .

وقد تقول : ولكن عيسى أفضل من يحيى ، فينبغي أن تكون تحيته

أفضل أيضاً ، فنقول : إن ذلك حق لو كان المحيّي واحداً ، فإنه إذا كان المحيّي واحداً فربما حيّا كلاّ منهما على حسب الفضل ، ولكن المحيّي مختلف . فالذي سلّم على يحيى هو الله ، والذي سلّم على عيسى هو عيسى نفسه ، فتواضع عيسى بالسلام على نفسه بالتعريف ، وأفاد مع ذلك التعريض بلعنة متهمي أمه . ولا شك أن التواضع هو أكمل وأتم .

والله أعلم .

د - قال عيسى : ﴿ وَبَرّاً بِوَالِدَيْ ﴾ ولم يقل : (وجعلني برّاً) مع أنه على تقدير ذلك . وذلك لأنه ذكر أموراً هي بجعل الله حصراً ، فقد قال : ﴿ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً ﴾ وهذا ليس من الأمور الكسبية وليس من فعل العبد . وقال : ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنْتُ ﴾ وهذا بجعل الله حصراً ، فهو الذي يجعل الشخص مباركاً .

أما البر بالوالدين فهو عمل كسبي يفعله الشخص ، وهو مأجور على فعله معاقب على تركه ، ولذلك لم يجعله بمنزلة ما قبله فقال : ﴿ وَبَرّاً بِوَالِدَيْ ﴾ فإنه وإن كان كسبياً إلا أنه جعله من نعمة الله عليه وتفضله وتوفيقه ولطفه . فلم يذكر الجعل مع أنه على تقديره ليفيد أمرين :

الأول : أنه ليس بمنزلة ما تقدم مما هو من جعل الله حصراً ، وإنما هو من فعل العبد .

والآخر : هو الاعتراف بأن ذلك مما أنعم الله عليه فوفقه لعمل الخير وهو البر بالوالدة ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ [النحل : ٥٣] .

ففرق بين ما يكون من جعل الله حصراً وما يكون بتوفيق الله ولطفه مما هو من فعل العبد .

هـ- قال تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾.

فقال (عصياً) بصيغة المبالغة ولم يقل (عاصياً).

وقد نقول: أكان عاصياً؟ فهو نفى عنه كثرة المعصية ولم ينف المعصية على وجه العموم ، فإنك إذا قلت: (إنه لم يكن ظالماً) فإنك لم تنف أنه كان ظالماً، وإنما نفيت عنه كثرة الظلم. وإذا قلت (لم يكن شريفاً للخمير) فأنت لم تنف عنه شرب الخمر ، ولكنك نفيت المبالغة في ذلك . فنقول: إن الجبار هو عصي وليس عاصياً فقط . فالجبار بالمبالغة هو عصي بالمبالغة.

ولو قال: (ولم يكن جباراً عاصياً) لأفاد أن الجبار ليس مبالغاً في المعصية وهو لا يصح .

٥ - قال تعالى في سورة العنكبوت: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِ دَعَاُ اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا بَجَحْتُهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَنَّوْا فُسُوفَ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥ - ٦٦].

وقال في سورة الروم: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَاُ رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا آذَاهُمْ مِنْهُ رَحْمَةٌ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ فَتَمَنَّوْا فُسُوفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٣ - ٣٤].

فقال في سورة العنكبوت: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَنَّوْا فُسُوفَ يَعْلَمُونَ﴾ بتهديد الغائب.

وقال في سورة الروم: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ فَتَمَنَّوْا فُسُوفَ تَعْلَمُونَ﴾ بالالتفات إلى تهديد المخاطب.

فما سبب هذا الاختلاف؟

وهنا نود أن نذكر شيئاً قد يعيننا في بيان السبب:

١ - إن تهديد المخاطب أشد من تهديد الغائب ، فإنك إذا واجهت شخصاً بتهديدك فإن ذلك أقوى من أن تهدده وهو ليس بحاضر . فإذا قلت : سأفعل بك كذا وكذا وأعاقبك ، كان ذلك أدل على تمكنك منه وعلى استحقاقه من أن تقول : سأفعل به كذا وكذا . فإنه إذا حضر فقد تعدل عن ذلك ولا تفعل ما ذكرت ، بل قد تلين له في الكلام ، وهو ما نراه في حياتنا اليومية .

٢ - إن الذي لا يشكر النعمة بعد إسائها له أحق بالتهديد من غيره ، وكلما كانت النعمة أكبر كان أحق بالتهديد .

وسننظر في التعبيرين المذكورين بمقتضى هذين الأمرين :

أ - ذكر في آية الروم أنهم أصابهم ضرر فدعوا ربهم منيبين إليه . ولم يذكر في العنكبوت أنهم أصابهم ضرر أو أصابهم ريح أو ما شابه ذلك ، وإنما هي حالة خوف طبيعي تعترى راكب البحر . فالنجاة مما هم فيه في آية الروم أهم ؛ لأنه مسهم ضرر فنجاهم منه ، فالنعمة عليهم أكبر .

ب - قال في آية الروم أنهم أذاقهم رحمة بعد الضرر ، ولم يقل في العنكبوت أنه أذاقهم رحمة ، وإنما هي نجاة إلى البر من غير ضرر أصابهم .

فالمذكورون في آية الروم أحق بالتهديد من جهتين :

الجهة الأولى : أنه أصابهم ضرر .

والجهة الأخرى : أنه أذاقهم منه رحمة فالتفت إلى تهديدهم فقال :

﴿ فَتَمَنَّوْاْ فَسَوْفَ تَعْلَمُوْنَ ﴾ .

فكان كل تعبير أنسب في مكانه .

٦ - قال تعالى في سورة البقرة : ﴿ وَءَامِنُواْ بِمَا أُنزِلَتْ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ

وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا بِإِيمَانِكُمْ ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِنِّي فَاتَّخُوْنَ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْسِنُوا
الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْنُتُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿البقرة: ٤١ - ٤٢﴾.

وقال في سورة الصف: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُورُ لِمَ تُوذُونَنِي وَقَدْ
تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ [الصف: ٥].

فقال في البقرة: ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

وقال في الصف: ﴿وَقَدْ تَعْلَمُونَ﴾.

فقدم في البقرة المبتدأ على الخبر الفعلي ؛ ذلك أن هذا التقديم يفيد
القصر والاهتمام. فالمخاطبون - وهم بنو إسرائيل - يعلمون حصراً أن
محمدًا رسول الله ، فهم يجدون ذلك مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل
(الأعراف: ١٥٧) وأنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم (البقرة: ١٤٦ ،
الأنعام: ٢٠) فناسب هذا الأمر التقديم لإفادة القصر والاهتمام. وليس
هذا مما يعلمه غيرهم إلا من اطلع على كتبهم.

أما آية الصف فهي في مخاطبة موسى لقومه فقال لهم: ﴿وَقَدْ
تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ بالتوكيد من دون تقديم ؛ لأن القصد
هو تحقيق أنهم يعلمون أن موسى رسول الله إليهم دون نفي العلم عن
غيرهم. فإن غيرهم ممن اطلع على الآيات التي جاء بها موسى قد يعلم
أنه رسول الله وذلك كالسحرة الذين آمنوا به ، والمؤمن من آل فرعون أو
غيرهم. فهو لا يريد أن يقصر العلم عليهم ، بل أراد أن يقول إنهم يعلمون
أنه رسول الله يقيناً. فناسب كل تعبير موضعه.

٧ - قال تعالى في آل عمران: ﴿وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ
مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطَّلِينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ
اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا
تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُم إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٤٩].

وقال في سورة المائدة: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ قَالَوْا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ﴾ [١٠٩] إِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَلَدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ مَخْلُقٌ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْحَرٌ مُّبِينٌ ﴿[المائدة: ١٠٩ - ١١٠].

نريد أن نذكر وجهين من الاختلاف في التعبير بين هذين النصين دون الاختلافات الأخرى هما:

١ - أنه قال في آل عمران ﴿فَأَنْفُخُ فِيهِ﴾ بضمير التذكير في (فيه).

وقال في المائدة: ﴿فَتَنْفُخُ فِيهَا﴾ بضمير التأنيث في (فيها).

٢ - قال في آل عمران: ﴿وَأُخِي الْمَوْتَى﴾.

وقال في المائدة: ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى﴾.

فذكر لفظ الإحياء في آل عمران ، ولفظ الإخراج في المائدة.

ومن الظاهر أن آية آل عمران وردت في سياق تبشير الملائكة لمريم بعيسى عليه السلام ، ولم يكن بعد قد وجد في رحم أمه . وهذا الكلام كله من التبشير بصفات الم بشر به : ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ يَبْشُرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ . . .﴾ [آل عمران: ٤٥].

وأما آية المائدة فهي في سياق ذكر مشهد من مشاهد الآخرة يوم يجمع الله الرسل فيقررهم قائلًا: ﴿مَاذَا أَجَبْتُمُ﴾ . ثم يخاطب عيسى مذكرًا له بنعمه عليه والآيات التي أيده بها في الدنيا قائلًا: ﴿يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَلَدَتِكَ . . .﴾ .

ونعود إلى الوجهين اللذين ذكرناهما :

أ - أما بالنسبة إلى قوله في آل عمران : ﴿ أَتَىٰ أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ ﴾ ، فإنه أعاد الضمير على الكاف في (كهية) أي أنفخ في المثل ، والكاف هنا بمعنى (مثل) فأعاد الضمير بالتذكير لأن المثل مذكر .

وأما في آية المائدة فقد قال : ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ يَازِّنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا ﴾ ، فأعاد الضمير على الهيئة^(١) وهي مؤنثة .

ومنع بعضهم عود الضمير على الهيئة ؛ لأنها ليست من خلقه ولا من نفخه في شيء^(٢) .

وليس هذا التفسير ملزماً . ولا مانع من عود الضمير على الهيئة ، وذلك ما ذهب إليه آخرون ، لأن الهيئة صورة الشيء وشكله^(٣) ، والمعنى أنه ينفخ فيما هو على صورة الطائر وشكله ، وهذه الهيئة صنعها هو من الطين فلا يلزم ما قاله المانعون . جاء في (البحر المحيط) أنه جَوَّز بعضهم عود الضمير على الهيئة «على تقدير: وإذ يخلق من الطين طائراً صورة مثل صورة الطائر الحقيقي فينفخ فيه فيكون طائراً حقيقة بإذن الله»^(٤) .

ومما يذكر في سبب الاختلاف بينهما أنه : «ورد قبل ضمير آية آل عمران من لدن قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَمَهِمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَأَنْفُخُ فِيهِ ﴾ نحو من عشرين ضميراً من ضمائر المذكر ، فورد

(١) انظر معاني القرآن للفراء ٢١٤ / ١ .

(٢) انظر الكشف ٦٥٣ / ١ ، ملاك التأويل ١٥٧ / ١ .

(٣) انظر لسان العرب (هياً) .

(٤) البحر المحيط ٤ / ٤٠٦ .

الضمير في قوله: ﴿فَأَنْفُخُ فِيهِ﴾ مذكراً ليناسب ما تقدمه وليشاكل الأكثر الوارد قبله.

أما آية العقود^(١) فمفتحة بقوله تعالى: ﴿أَذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ﴾ ، وخلق الطائر ونفخه فيه من أجل نعمه تعالى عليه لتأييده بذلك ، فناسب ذلك تأنيث الضمير . ولم تكثر الضمائر ههنا ككثرتها هناك . فجاء كل من الآيتين على أتم مناسبة^(٢) .

ومما يمكن أن يذكر في سبب الاختلاف بينهما أيضاً أن ضمير التأنيث في نحو هذا يدل على الكثرة ، وأن آية آل عمران فيما قبل حصول هذا الأمر فوحده وذكره ، «وآية المائدة من كلام الله تعالى يوم القيامة معدداً نعمه عليه بعد ما مضت ، وكان قد اتفق ذلك منه مرات ، فحسن التأنيث لجماعة ما صورّه من ذلك ونفخ فيه»^(٣) .

ومن الطريف أن نذكر أيضاً أنه في آية آل عمران كان الكلام في الدنيا ، فأعاد الضمير على اللفظ المتقدم وهو الكاف ، ذلك أن الدنيا متقدمة على الآخرة .

وأعاد الضمير على اللفظ المتأخر في المائدة وهو الهيئة ؛ لأن الكلام إنما هو في الآخرة ، والآخرة إنما تأتي بعد الدنيا .

فناسب كل تعبير الزمن الذي قيل فيه .

٢ - قال في آية آل عمران: ﴿وَأُخِي الْمَوْقِنُ إِذْ قَالَ اللَّهُ﴾ بلفظ الإحياء ،

(١) يعني آية المائدة .

(٢) ملاك التأويل ١/ ١٥٨ .

(٣) كشف المعاني في المتشابه من المثاني ١٢٩ ، وانظر البرهان في متشابه القرآن للكرماني ١٣٢ .

وقال في المائدة: ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي﴾ بلفظ الإخراج. وذلك لأكثر من سبب:

منها أن لفظ الحياة ومشتقاتها تردد في آل عمران أكثر مما في المائدة، فقد تردد في آل عمران تسع مرات، وفي المائدة مرتين.

وأن لفظ الخروج ومشتقاته تردد في المائدة أكثر مما في آل عمران، فقد تردد في المائدة سبع مرات، وفي آل عمران أربع مرات.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أن خروج الميت من القبر إنما يكون بعد إحيائه، فالخروج مرحلة متأخرة عن الحياة. قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا﴾ [المعارج: ٤٣] وخروجهم سراعاً يكون بعد إحيائهم. فذكر الحالة المتقدمة عندما كان الكلام في الدنيا، وذكر الحالة المتأخرة وهي الإخراج عندما صار الكلام في الآخرة. فذكر الحالة السابقة للزمن السابق، وذكر الحالة المتأخرة للزمان المتأخر، وهو نظير عود الضمير في ﴿فَأَنْفُخُ فِيهِ﴾ وقوله: ﴿فَتَنْفُخُ فِيهَا﴾.

٨ - قال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١].

وقال في سورة التحريم: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَقْتَ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا الْإِيمَانُ﴾ [التحريم: ١٢].

ومن الملاحظ في هذين النصين:

١ - أنه لم يذكر في سورة الأنبياء اسمها، وإنما ذكر صفتها ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾، وأنه ذكر اسمها في سورة التحريم علاوة على صفتها ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾.

٢- قال في سورة الأنبياء: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾.

وقال في التحريم: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾

٣- أنه ذكر ابنها في سورة الأنبياء ولم يذكره في سورة التحريم.
ولعل من أسباب هذا الاختلاف:

أ- أنه لم يذكر في سورة الأنبياء اسمها ؛ لأن السياق في ذكر الأنبياء ، فذكر موسى وهارون وإبراهيم ولوطاً وإسحاق ويعقوب وداود وسليمان وذا النون وإسماعيل وإدريس وذا الكفل وزكريا ويحيى ، فلم يصرح باسم مريم ؛ لأن السياق في ذكر الأنبياء وهي ليست منهم .

وأما في سورة التحريم فالسياق في ذكر النساء ، فذكر امرأة نوح وامرأة لوط من الكوافر ، وذكر امرأة فرعون ومريم ابنة عمران من المؤمنات . بل إن هذه السورة بدأت بذكر أزواج النبي ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾ [التحريم: ١] .

فناسب ذكر اسمها .

ثم إن التصريح بالاسم أبلغ وأظهر من الإضمار مدحاً أو ذمّاً .

فإن مدحت شخصاً وذكرت اسمه كان أبلغ في مدحه ، وإن ذمته باسمه كان أبلغ في ذمه . وهي أعلى المذكورات في سياقها فصريح باسمها ، وهي أقل المذكورين منزلة في سياق الأنبياء فلم يذكر اسمها .

ب - إن قوله: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾ أعم من قوله: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾ .

فقوله: (فيها) يعمها كلها ، وأما قوله: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ﴾ فهو أخص ؛ لأنه أشار إلى موضع النفخ .

ثم من ناحية أخرى أن قوله: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾ أمدح من

قوله: ﴿فَفَخَّنَا فِيهِ﴾ ؛ لأن النفخة عمت شخصها ، بخلاف قوله: ﴿فَفَخَّنَا فِيهِ﴾ فإنها خصت جزءاً.

وقد ناسب كل تعبير موضعه .

فأما من حيث العموم والخصوص فإن قوله: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ أخص من قوله: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ لأنه تخصيص بالعلم والوصف . فإن (التي أحصنت فرجها) وصف عام وإن كان يعني بها السيدة مريم ، فإن من أحصن فروجهن من النساء كثير ، بخلاف التصريح باسم العلم ، فإنه يعينها بالعلمية والوصف . فجاء مع العلم بـ (فيها) ومع الخاص بـ (فيه) فناسب العموم العموم ، وناسب الخصوص الخصوص .

ثم إن قوله في سورة الأنبياء: ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَاِبْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ أعم من ذكرها وحدها في سورة التحريم ؛ لأنه ذكرها وذكر ابنها . فناسب العموم العموم من جهة أخرى .

وأما من ناحية المدح فإن ذكرها في سياق الأنبياء الذين هم أعلى الخلق أمدح لها .

ثم إن قوله تعالى إنه جعلها وابنها آية للعالمين أمدح من قوله: ﴿وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا وَكَانَتْ مِنَ الْمُقْنِينَ﴾ وكلاهما مدح وثناء عظيم ، إلا أن بعضه أعلى من بعض . فإن جعلها وابنها آية للعالمين في غاية المدح والرفعة ؛ ذلك أنه جعلها آية للعالمين وليست لقومها خاصة . أما من صدق بكلمات ربه وكتبه من الرجال والنساء فكثير ، بخلاف الذين جعلوا آية للعالمين .

فناسب هذا المدح العموم بقوله: ﴿فَفَخَّنَا فِيهَا﴾ .

ج - وأما ذكر ابنها في آية الأنبياء وعدم ذكره في التحريم فإن ذكره

أنسب في آية الأنبياء من أكثر من جهة ، ذلك أن السياق في سورة الأنبياء في ذكر الأنبياء وابنها واحد منهم ، فناسب ذكره من هذه الجهة .

وأما في سورة التحريم فالسياق في ذكر النساء فلا يناسب ذكره فيه .

ومن جهة أخرى أنه ذكر في سورة الأنبياء ابن إبراهيم وابن ابنه فقال : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۚ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ۖ وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ ﴾ [الأنبياء : ٧٢ - ٧٣] .

فناسب ذكر ابنها في هذا السياق أيضاً .

د- وثمة ملاحظة تعبيرية أخرى أنه قال في مريم : ﴿ فَفَخَنَكَا فِيهَا ﴾ .

بضمير الجمع .

وقال في آدم : ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي ﴾ بضمير الأفراد ، وقال فيه أيضاً : ﴿ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِي ۖ ﴾ بالأفراد .

ذلك لأن النافخ في مريم هو رسوله الذي تمثل لها بشراً سوياً ، وليس الأمر كذلك في آدم . والله أعلم .

٩ - قال تعالى في سورة يونس : ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ ۚ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ۚ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [يونس : ٥٤ - ٥٥] .

وقال في السورة نفسها : ﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ ۚ إِنَّ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ [يونس : ٦٦] .

فقال في الآية الخامسة والخمسين : ﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [يونس : ٥٥] فجاء بـ (ما) .

وقال في الآية السادسة والستين: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمِنْ فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس: ٦٦] فجاء بـ (من).

وذلك أنه في الآية الخامسة والخمسين ذكر الفداء بالمال ، فقد قال : ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ﴾ [يونس: ٥٤] فقال ربنا إن له ما في السماوات والأرض ، فجاء بـ (ما) التي هي لذوات غير العاقل ومنها الأموال .

أما في الآية السادسة والستين فقد جاء بـ (من) لأنه ذكر الشركاء ، فناسب ذكر (من) التي هي للعاقل .

* * *



الفاصلة القرآنية

من المعلوم أن القرآن الكريم يعنى بالانسجام الموسيقي في الفواصل القرآنية نحو ﴿لِيَكُونَ لِلْعَلَمِينَ نَذِيرًا﴾ (١) ... فَقَدَرَهُ نَقْدِيرًا ﴿٢﴾ ... وَلَا حَيَوَةَ وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ ... ظُلُمًا وُزُورًا ﴿٤﴾ [الفرقان].

وقوله: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ (٢٦) ... وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ... مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ [الأنبياء].

وقد يتوصل إلى ذلك بما تتيح اللغة استعماله - إذا وجد داعياً له - فيمدّ مثلاً في موطن لا تراه موطن مدّ نحو ﴿فَأَضَلُّنَا السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٦٧] و﴿كَانَتْ قَوَارِيرًا﴾ [الإنسان: ١٥] ، أو قد يحذف طلباً لانسجام الفاصلة نحو ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ [الضحى: ٣] وقوله: ﴿أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يُضُرُّونَ﴾ [الشعراء: ٧٣].

وقد يقدم لفظة في موطن أو يؤخرها طلباً لذلك نحو ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ يقدم الخبرة على العمل ، وفي موطن آخر ﴿يِمَّا تَعْمَلُونَ خَيْرًا﴾ فيقدم العمل على الخبرة ، كل ذلك لغرض انسجام الفاصلة .

والذي نريد أن نؤكد هنا أن القرآن الكريم لا يفعل ذلك على حساب المعنى ألبتة ، فإن المعنى هو المطلوب أولاً ، فيأتي بالفاصلة منسجمة مع أخواتها عند اقتضاء المعنى لذلك ، فإذا اقتضى المعنى غير ذلك لم يراع الفاصلة ولم يحسب لها حساباً ، وإنما تكون المراعاة للمعنى أولاً ،

فإن المعنى هو السيد في التعبير القرآني . ولذلك قد يأتي بفاصلة لا تشبهها فاصلة في جميع السورة وإن كثرت آياتها . وقد يأتي بفاصلة تختلف عما في سياقها ، كل ذلك طلباً للمعنى .

وإليك طرفاً من الملاحظات في الفاصلة القرآنية :

١ - قد تكون الفواصل في السورة على نمط واحد من أولها إلى آخرها وذلك نحو سورة (ق) فإن كل آياتها تنتهي بحرف قبله مد بالواو أو الياء نحو : المجيد والوعيد والغروب والخروج .

ونحو سورة الحجرات فإنها كذلك نحو : عليم وعظيم ، وتشعرون ويعقلون .

ونحو سورة الفتح فإنها تنتهي بالالف عند الوقف نحو : مبيناً - عظيماً - أصيلاً .

٢ - قد يغير في الفاصلة ليؤسس فواصل أخرى على نمطها ، وقد يرجع إلى نمط الفاصلة الأولى أو لا يرجع ، فمن الأول كثير منه في سورة البقرة وآل عمران والنساء وغيرها .

ومن الثاني ما ورد في سورة المرسلات مثلاً : ﴿ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُفَّتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا الرَّسُلُ أُنْتَبِذَ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾] المرسلات : ٨ - ١٢ [فإنها تختلف عن نمط ما قبلها وما بعدها .

ومن ذلك ما ورد في سورة النجم : ﴿ أَزِفَتِ الْأَرْفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾] النجم : ٥٧ - ٥٨ [فإنها تختلف عما قبلها وما بعدها .

٣ - وقد يأتي بفاصلة قرآنية في آية واحدة ليس في سياقها مثلها ، وربما كانت على نمطها فاصلة أخرى في السورة في موضع آخر . وقد يأتي بالفاصلة وليس على نمطها فاصلة في السورة كلها .

فمن الأول قوله تعالى في سورة محمد: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ أَمَثَلُهَا﴾ [محمد: ١٠] وليس في سياقها على نمطها ، غير أنه ورد نحو ذلك في موضع آخر من السورة ، قال تعالى في الآية الرابعة والعشرين: ﴿أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤] .

ومن الثاني قوله تعالى في سورة طه: ﴿فَأَنبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِّنَ اللَّيْلِ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه: ٧٨] فليس في السورة نظير هذه الآية .

ونحو ذلك قوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ [الأنبياء: ٦٦] .

وقوله في الإسراء: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١] فليس في السورة على نمطها مع أن عدد آياتها مائة وإحدى عشرة آية ، فإن آياتها فواصل ممدودة بالألف (وكيلا ، شكورا ، كبيرا) .

وقوله في الفرقان: ﴿أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ [الفرقان: ١٧] فإن آيات السورة كلها ممدودة إلا هذه الآية .

وقوله في سورة (ص): ﴿صَّ وَالْفُرْقَانِ ذِي الذِّكْرِ﴾ [ص: ١] .

وغيرها . مما يدل على أهمية المعنى في التعبير ولو أدى ذلك إلى التفريط بالموسيقى .

٤ - قد يُجري شيئا من التغيير في الفاصلة مما لا يخل بالمعنى وذلك لأمر بياني ، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٦٧] فمدَّ السبيل مع أنه قال في السورة نفسها: ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤] فلم يمدَّ السبيل .

وكقوله في سورة الإنسان: ﴿كَانَتْ قَوَارِيرًا﴾ [الإنسان: ١٥] فمدَّ القوارير ، وكقوله في سورة الكافرون: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦] بحذف

ياء المتكلم ، ولم يحذفها من قوله تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُ أَعْبَدُ مُخْلِصًا لِّمُ دِينِي ﴾ [الزمر: ١٤] .

ونحو هذا يجري في غير الفواصل أيضاً ، فقد يذكر الحرف في موضع ويحذف نظيره في موضع آخر لأمر بياني مما لا يخل بالمعنى ، وذلك كحذف الياء من الفعل أو الاسم ، سواء كانت ضميراً أم حرفاً نحو قوله : ﴿ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ﴾ [الكهف: ٦٤] بحذف الياء ، وقوله في آية أخرى : ﴿ يَتَأَبَّأْنَآ مَا نَبْغِي ﴾ [يوسف: ٦٥] بذكرها .

وقوله في آية : ﴿ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ ﴾ [المائدة: ٣] بحذف الياء .

وفي آية أخرى : ﴿ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي ﴾ [البقرة: ١٥٠] بذكرها .

٥- إن جميع الحروف استعملت فواصل للآي إلا حرف الخاء فإنه لم يرد فاصلة ، فالهمزة نحو: سميع الدعاء ، هواء . . . والألف نحو: والضحي ، ويغشى . . . والباء نحو: مريب وتباب . . . والتاء نحو: أقت ، وأجلت ، وكورت . . . والتاء المربوطة: كالقارعة والآزفة ، والتاء نحو: فحدث ، والفراش المبتوث ، والجيم نحو: أزواج ، والبروج ، والحاء نحو: (والفتح) و(ضبحا) ، والدال نحو: مزيد وسعيد ، والذال نحو: مجذوذ وحنيد ، والراء نحو: قدير وبصير ، والزاي نحو: عزيزاً وأزراً ، والسين نحو: عسces ، والجواري الكنس ، والشين نحو: قريش ، والمنفوش ، والصاد نحو: مناص ومحيص ، والضاد نحو: عريض ، وعرضا ، والطاء نحو: قنوط ومحيط ، والظاء نحو: غليظ وحافظ ، والعين نحو: يطاع ، والرجع ، والغين نحو: بليغاً ، والفاء نحو: مختلف وخوف ، والقاف نحو: الحريق ، واختلاق ، والكاف نحو: صدرك ووزرك ، واللام نحو: خلال وضلال ، والميم نحو: عليم والقديم ، والنون نحو: مبين ، يبصرون ، والهاء

نحو: أخيه ، وأبيه ، وكتابه ، والواو نحو: اعبدوا ، ضلوا ، وتعلوا ، والياء نحو: فنسي ، وصدري .

أما الخاء فلم ترد فاصلة وإنما وردت متصلة بياء المتكلم نحو: هرون أخي ، أو بالتاء المربوطة نحو: الصاخة .

إلى غير ذلك من الأمور التي تتعلق بالفاصلة . وسنضرب أمثلة تبين شيئاً مما ذكرناه . وقد ذكرنا في التعبير القرآني جملة صالحة من الفاصلة القرآنية .

١ - قال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٥١] .

فجعل خاتمة الآية الرحمة: ﴿ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ .

وقال: ﴿ أَنْتَ وَلِيْنَا فَأَغْفِرْ لَنَا وَأَرْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٥٥] .

فجعل خاتمة الآية المغفرة: ﴿ وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴾ .

وسبب ذلك في هاتين الآيتين ونظائرهما من الآيات أنه إذا ذكر ذنباً عقب بالمغفرة ، وإن لم يذكر ذنباً عقب بالرحمة .

وأيضاح ذلك أنه في الآية الأولى لم يختتمها بوصف المغفرة ؛ لأن موسى وأخاه لم يذنبوا فيطلب المغفرة فقال: ﴿ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ .

في حين قال: ﴿ فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِنِّي أَتَمَلِّكُنَا بِمَا فَعَلِ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيْنَا فَأَغْفِرْ لَنَا وَأَرْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٥٥] .

فجعل خاتمة الآية: ﴿ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴾ وذلك أنه طلب المغفرة لعموم قومه وهم استحقوا العقوبة ، يدل على ذلك قوله: ﴿ أَتَمَلِّكُنَا بِمَا فَعَلِ السُّفَهَاءُ مِنَّا ﴾ [الأعراف: ١٥٥] . والذنوب يطلب لها المغفرة فقال: ﴿ وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴾ .

وقال: ﴿إِنَّكُمْ كَانُمْ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ [المؤمنون: ١٠٩].

فجعل خاتمة الآية ﴿خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ ولم يختتمها بوصف المغفرة ؛ وذلك لأنه لم يذكر لهم ذنباً فيطلب لهم المغفرة .

ونحوه قوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ [المؤمنون: ١١٨] فختم الآية بقوله: ﴿خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ وذلك أنه لم يذكر ذنباً فعقب بالرحمة . قد تقول: ولكن قال قبلها: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [١١٧] وهذا ذنب فكان المناسب أن يقول: ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ .

والجواب أن هذا الدعاء ليس لهؤلاء المذكورين ، فإن هؤلاء كفرة مشركون يدعون مع الله إلهاً آخر فلا يصح طلب المغفرة لهم ، وقد قال الله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: ٤٨] وإنما هذا دعاء للمؤمنين ولم يذكر لهم ذنباً فناسب التعقيب بالرحمة .

فتبين أنه إذا كان في السياق ذكر لذنوب فإنه يعقب بالمغفرة وإلا عقب بالرحمة . والله أعلم .

٢ - قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ ﴿١٥﴾ نَارُ حَامِيَةٍ﴾ [القارعة: ٨ - ١١].

وقال في سورة الهمزة: ﴿كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ اللَّهِ الْمَوْقَدَةُ ﴿٦﴾ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْآفِتَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ﴾ [الهمزة: ٤ - ٩].

فقال في القارعة: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ﴾ .

وقال في الهمزة: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ﴾ .

فجاء بالضمير في سورة القارعة ولم يقل: (وما أدراك ما الهاوية) ،
كرر الاسم الظاهر في سورة الهمزة فقال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطْمَةُ﴾ ولم
يقُل: (وما أدراك ما هية) كما قال في القارعة.

ولا شك أن كل تعبير مناسب لخواتيم الآي في السورة ، ولكنه لم
يفعل ذلك للفاصلة فقط ، وإنما يقتضي ذلك الوجه البلاغي أيضاً. إذ من
المعلوم أن الاسم الظاهر أقوى من المضمّر ، وأن وصف النار في سورة
الهمزة أشد وأكثر تفصيلاً مما هو في سورة القارعة ، فإنه في القارعة لم
يزد على قوله: ﴿نَارُ حَامِيَةٍ﴾.

في حين قال في سورة الهمزة: ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ﴾ ﴿٦﴾ الَّتِي تَطْلُعُ عَلَى
الْأَفْنَدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ ﴿٨﴾ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴿الهمزة: ٦-٩﴾.

فأضاف النار إلى الله ، ووصفها بأنها موقدة ، وأنها تطلع على
الأفئدة ، أي تنفذ إليها وتعلوها ، وذكر أنها عليهم مؤصدة ، وأنها في
عمد ممددة. فذكر من أوصافها ما لم يذكره في القارعة ، فناسب ذلك
إعادة الاسم الظاهر للتحويل والتعظيم ، إضافة إلى مناسبة الفاصلة.

٣- قال تعالى في سورة التكوين: ﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا
أَحْضَرَتْ ﴿التكوين: ١٣-١٤﴾.

وقال في سورة الانفطار: ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعِثَتْ﴾ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ
وَأَخَّرَتْ ﴿الإنفطار: ٤-٥﴾.

فقال في سورة التكوين: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾.

وقال في سورة الانفطار: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾.

ذلك أنه قال في سورة التكوين: ﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ أي أحضرت
وقُربَتْ ، فناسب ذلك إحضار الأعمال ، فإن الذي يطلب شيئاً عليه أن

يحضر ثمنه ، ولم يقل مثل ذلك في الانفطار ، وإنما قال : ﴿ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعِثَتْ ﴾ فليس ثمة تقريب لشيء ، وإنما ذلك يحصل قبل الحساب ، فناسب أن يذكر الإنسان ما قدم وآخر ، فإنه سيسأل عن ذلك كله .

٤ - قال تعالى في سورة الحاقة : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَبُوا كِتَابِيَّةً ۖ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْكٌ حَسْبِيَّةٌ ۖ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ۖ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ قُطُوفُهَا دَائِمَةٌ ۖ كُلُوا وَاشْرَبُوا هُنَا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ۖ ﴿٢٢﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَّةً ۖ وَلَمْ أَدْرِ مَا حَسْبِيَّةٌ ۖ يَلَيْتَهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ ۖ ﴿٢٣﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيهِ ۖ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ ۖ ﴾ [الحاقة : ١٩ - ٢٩] بهاء السكت (كتابه ، حسابه ، ماله ، سلطانيه) وهذا جائز في الوقف .

والوجه الآخر أن يقف على ياء المتكلم نحو كتابي ، مالي . نظير ﴿ قَدِمْتُ لِحَيَاتِي ﴾ ﴿ وَأَشْرَكُهُ فِي أَمْرِي ﴾ .

ولا شك أن هاء السكت في الحاقة أنسب للفواصل معها : ﴿ وَأَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ۖ ﴿١٦﴾ وَالْمَلِكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَةٌ ۖ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ [الحاقة : ١٦ - ١٨] .

غير أن لهاء السكت هنا وجهاً حسناً غير الانسجام الموسيقي ، وذلك أن هذه الهاء في نهاية الكلمة أشبه بالنهايات الذي يصيب المتعب ، وقد يصيب الفرح فرحاً شديداً . وإن الموقف يستدعي ذلك لما فيه من إرهاق وعنت ومشقة تصيب الجميع : الشقي والسعيد . قال تعالى : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ۖ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ۖ ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۖ ﴿١٥﴾ وَأَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴾ [الحاقة : ١٣ - ١٦] فأنسب شيء في هذا الموقف هذا النهايات الذي يصيب المتعب فينهي الكلمات بالهاء .

٥ - قال تعالى في سورة القمر : ﴿ قَوْلَ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعُ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكْرٍ ۖ ﴿١﴾ خُشْعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۖ ﴿٢﴾ مَهْطَعِينَ إِلَىٰ ۖ ﴾

الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿[القمر: ٦ - ٨]

فقال: (نُكْر) بضم النون والكاف.

وقال في الكهف: ﴿قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا﴾ [الكهف: ٨٧].

وقال فيها أيضاً: ﴿أَفَلَنْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ [الكهف: ٧٤].

وقال في سورة الطلاق: ﴿وَكَايْنٍ مِّن قَرْيَةٍ عَنَّتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا﴾ [الطلاق: ٨]

فقال في سورة القمر: (نُكْر) بضمتين ، وقال في الآيات الأخرى: (نُكْرًا) بضم فسكون.

و(نُكْر) بضمتين صيغة تختلف عن صيغة (نُكْر) بضم فسكون ، وليست حركة الكاف متأتية عن تحريك الساكن ، ولا سكونها متأتياً من تسكين المتحرك ، بل هما صيغتان: فُعْل كَأَنْفٍ وَشُلٌّ ، وفُعْل كَصُلْبٍ وَحُلُو. والثُّكْر هو الفطيع الذي تنكره النفوس لعدم العهد بمثله وهو هول القيامة.

وليس هذا الاختلاف لغرض الانسجام الصوتي بين الفواصل وحده ، بل هناك أمر حسن ذلك من حيث المعنى والمقام.

فإن الثُّكْر بضمتين أشد وأثقل من الثُّكْر بضم فسكون ، لما فيه من توالي ثقيلين. ولا شك أن الموقف في سورة القمر أشد وأثقل مما في غيره من المواقف التي ذكر فيها (الثُّكْر) بسكون الكاف ، ذلك أنه في يوم القيامة يوم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر مسرعين رافعي رؤوسهم إلى الداعي.

وهذا المشهد لم تعهد النفوس مثله فظاعة ونكارة ، بخلاف المواطن الأخرى .

فإن قوله تعالى : ﴿ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكَرًا ﴾ [الكهف : ٨٧] ليس بهذه النكارة .

فقد قال : ﴿ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ ﴾ ولم يقل : (أما من كفر) ، والظالم ليس كافراً بالضرورة ، فقد يكون مسلماً وقد يكون كافراً .
هذا من ناحية .

ومن ناحية أخرى ذكر أنه سوف يعذبه في الدنيا ثم يرد إلى ربه فيعذبه .

ومن المعلوم أنه إذا عُدِّب الشخص أو عوقب على فعلة فقد يرفع العذاب عنه إذا كان مجزياً أو يخفف عنه في الآخرة .

وكذلك قوله في الكهف : ﴿ أَفَنَلَّكَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكَرًا ﴾ [الكهف : ٧٤] فنكر هذا ليس كنكر ما جاء في سورة القمر ، فإن هذا أمر مألوف ومشاهد ، فكم قتلت نفس بريئة من غير حق ، فهذا أمر مشاهد متكرر .

وكذلك قوله : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرِيَةٍ عَنَّتْ عَن أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسِبْنَهَا حَسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكَرًا ﴾ [٨] فذافت وبال أمرها وكان عقبة أمرها خسرًا [الطلاق : ٨ - ٩] فنكارة هذا ليس كنكارة ما في سورة القمر ، ذلك أن هذه العقوبات إنما هي في الدنيا ، فليست نكارتها كما في عذاب الآخرة ، فجعل الوصف أخف مما جاء في سورة القمر الذي لم يعهد له سابقة أو نظير . فهو أمر نُكِر بكل ما في الوصف من نكارة ، فتقل الوصف في القمر وجعله أنكر وأثقل مما عداه .

فناسب كل تعبير موضعه ، وليس للفاصلة فقط .

٦ - قال تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾ [الرحمن : ٧ - ٩] .

كرر الميزان ثلاث مرات ولم يعد الضمير على الميزان الأول ، فلم يقل (ألا تطغوا فيه ، ولا تخسروه) وقد يظن ذلك أنه لفواصل الآي .
والحق أنه ليس لذلك ، وإنما كسر الميزان ثلاث مرات لأن الموازين في هذه الحياة الدنيا ثلاثة وليس واحداً ، ولا تصلح الحياة إلا بها جميعاً ، فإن فقد واحد منها فسدت الحياة ولم تصلح . والموازين الثلاثة هي :

أ - ميزان العقل والفطرة ، وهو الميزان الذي وضعه الله في الإنسان ، به يزن الأمور ويحكمها ، ويعرف الصحيح من السقيم ، والغث من السمين .

ب - الميزان الذي أنزله الله إلى الإنسان هو الشرائع والأحكام التي أنزلها الله في كتبه وعلى السنة رسله ، وهو ما يتعامل به الناس على وفقه ، وبه توزن جميع الأعمال وتقبل وترد على أساسها ، فيها وحدها تصلح الحياة ، ومن دونها لا تستقيم .

ج - الميزان الثالث وهو الآلة التي يتعامل بها الناس في حياتهم اليومية من بيع وشراء وما إلى ذلك ، ولا يمكن أن تستقيم حياة الناس ومعاملاتهم اليومية من دونها .

فبهذه الموازين الثلاثة جميعاً تستقيم الحياة ، فإن فقد ميزان منها فسدت الحياة ولن تصلح . فلا يصلح عود الضمير على الأول لأنها ليست ميزاناً واحداً كما هو بين .

٧ - قال في سورة هود : ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسَرُونَ ﴾

[هود : ٢٢] .

وقال في سورة النمل: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْآخَسُونَ﴾ [النمل: ٥] .

وقال في سورة الكهف: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ [الكهف: ١٠٣] .

فقال في الكهف: ﴿بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ فبين جهة الخسارة وهي الأعمال . فجعل (الأعمال) هي الفاصلة ولم يقل (بالأخسرين) . ولا شك أن ما قاله في الكهف هو المناسب لفواصل الآي السابقة واللاحقة . ولو قال (بالأخسرين) لم يكن ذلك منسجماً مع الفواصل الأخرى .

غير أن ذلك ليس هو السبب الوحيد لذكر الأعمال ، وإنما يعود الأمر إلى سياق الآيات التي وردت فيه الآية . فإن السياق في الكهف إنما هو في ذكر الأعمال أكثر مما في سياق آيتي هود والنمل .

أما في سياق آية هود فلم يرد ذكر للعمل ، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾ أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضْعِفُ لَهُمْ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْآخَسُونَ﴾ [هود: ١٨ - ٢٢] .

وأما في النمل فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْآخَسُونَ﴾ [النمل: ٤ - ٥] ولم يرد في السياق إلا قوله: ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾ .

وأما في الكهف فقد تردد ذكر العمل في السياق في أكثر من موضع ، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٧﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٨﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ

فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا ﴿١٠٩﴾ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١١٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١١١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١١٢﴾ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١١٣﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٤﴾ [الكهف: ١٠٣ - ١١٠].

فذكر:

١ - الأخسرين أعمالاً.

٢ - الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا ، ومن معاني السعي العمل ، وسعى إذا عمل^(١).

٣ - يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، والصنع هو إجادة العمل .

٤ - فحبطت أعمالهم .

٥ - إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات .

٦ - فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً .

فناسب ذكر (الأخسرين أعمالاً) في الكهف كما هو واضح .

٨ - قال تعالى في سورة الحج : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾ [الحج: ٣٨].

وقال في سورة النساء : ﴿ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴾ [النساء: ١٠٧].

فقد ختم آية الحج بقوله : ﴿ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾ .

وختم آية النساء بقوله : ﴿ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴾ .

(١) ينظر لسان العرب (سعى).

ولا شك أن فاصلة كل آية منسجمة مع الفواصل التي في سياقها ، غير أنه لم يفعل ذلك لهذا وحده ، بل إن السياق يقتضي ذلك أيضاً .

فإن آية الحج ختمت بـ (كفور) وهو من كفران النعمة أو الكفر بالدين . فإن كان من كفر النعمة فهو مناسب لما تقدم من ذكر الذبائح والإطعام . قال تعالى : ﴿ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعِيرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَبَرٌ فَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ إِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٣٦) لَن يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ الْقَتْلُ مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٣٧) إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾ [الحج : ٣٦-٣٨] .

وهو مناسب أيضاً لما تقدم من قوله : ﴿ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ فإن نقيض الشكر الكفران^(١) . . . والكفور يناقض الشكور والشاكر ، قال تعالى : ﴿ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونَ ﴾ [البقرة : ١٥٢] ، وقال : ﴿ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان : ٣] فجعل الكفور بمقابل الشاكر .

فناسبت الفاصلة السياق الذي وردت فيه بهذا المعنى .

وإن كان من معنى الكفر في الدين فتكون الفاصلة مناسبة أيضاً لما تقدمها من قوله تعالى : ﴿ فَإِلَهُكُمْ إِلَهُ وَحْدٌ فَلَهُ اسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴾ [الحج : ٣٤] فيكون الكفور بمقابل الأمر بالإسلام . ومناسب لما في الآية نفسها وهو قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾ فيكون الكفور بمقابل الذين آمنوا الذين يدافع الله عنهم .

وعلى هذا فإن فاصلة الآية تناسب ما قبلها من جهتين :

(١) ينظر لسان العرب (كفر) .

كفران النعمة الذي يقابل الشكر ، والكفر في الدين الذي يقابل الإيمان والإسلام .

أما آية النساء فهي في ارتكاب الآثام ، والسياق في الخيانة الآثام .

قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ١١٥ ﴾ وَأَسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ١١٦ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ١١٧ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ١١٨ هَتَأْتُمْ هَتُوءًا جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلِ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ١١٩ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ١٢٠ وَمَنْ يَكْسِبِ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ١٢١ وَمَنْ يَكْسِبِ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ١٢٢ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [النساء : ١٠٥ - ١١٣] .

فقد ذكر طرفاً من آثام هؤلاء المذكورين ، فذكر أنهم يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله ، وأنهم يبيتون ما لا يرضى من القول ، وذكر أنهم يكسبون الخطيئة ويرمون بها البريء وما إلى ذلك . فالسياق في الآثام ، وقد ذكر الأثيم وذكر الإثم أكثر من مرة فقال : ﴿ وَمَنْ يَكْسِبِ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾ [النساء : ١١١] ، وقال أيضاً : ﴿ وَمَنْ يَكْسِبِ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴾ [النساء : ١١٢] ، ثم إن الخائن أثيم والخيانة إثم ، فناسب أن يختم الآية بـ (أثيم) ويجعلها الفاصلة .

فناسب كل فاصلة سياقها .

وهناك أمر آخر في التعبير وهو أنه قال في آية الحج: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [الحج: ٣٨] على وجه العموم والشمول بلفظ (كل).

وقال في آية النساء: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ [النساء: ١٠٧] بصيغة الأفراد أو المجموعة ؛ وذلك لأن آية الحج عامة ، وهي لعموم المسلمين ، وهي حكم عام لهم .

أما آية النساء فهي في جماعة مخصوصة اكتسبت إثماً ، فقد سرقوا طعاماً ورموا بالسرقة غيرهم ، فبين الله كذبهم وخيانتهم^(١) .

فلم يجعل التعبير بصيغة العموم الذي تدل عليه (كل) والله أعلم .

٩ - قال تعالى في سورة الكافرون: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦] بحذف ياء المتكلم .

وقال في سورة الزمر: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾ [الزمر: ١٤] فذكر الياء ولم يحذفها ، مع أن فواصل آيات الزمر في السياق شبيهة بفواصل آيات سورة الكافرون . فإن قبل آية الزمر: ﴿قُلِ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ [١١] وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلِ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الزمر: ١١-١٣] .

ثم تأتي الآية: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾ [١٤] ، وبعدها قوله: ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥] .

فما قبل الآية وما بعدها يختلف عن فاصلة الآية الرابعة عشرة ، مما يدل على أن الذكر والحذف ليس للفاصلة وحدها ، وإنما يكون لأمر معنوي أو بلاغي ، سواء ناسب الفواصل أم اختلف عنها .

(١) ينظر تفسير الطبري ٢٦٤/٥ ، القرطبي ٣٧٥/٥ ، تفسير ابن كثير ١/٥٥١-٥٥٣ .

والفرق بين الآيتين أن الكلام على الدين في الزمر أطول وأكد مما في سورة الكافرون. فإنه لم يقل في سورة الكافرون إلا ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾.

في حين قال قبل آية الزمر: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ [الزمر: ١١] فذكر أنه مأمور بعبادة الله مخلصاً له الدين ، ومأمور أن يبلغ ذلك بقوله (قل).

وقال في الآية نفسها: ﴿قُلْ اللَّهُ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾ فذكر أنه مأمور أن يقول إنه يخص الله بالعبادة مخلصاً له دينه .

فكرر عبادة الله والإخلاص في الدين ، مما يدل على أن السياق أكد في ذكر الدين والإخلاص فيه ، فناسب إظهار ضمير المخلص .

ثم إن سورة الزمر تبدأ بأمر الله لرسوله أن يعبد مخلصاً له الدين ، فقد قال في الآية الثانية من السورة: ﴿فَأَعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ [الزمر: ٢] وقال بعدها: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣] مما يدل على شدة التركيز على عبادة الله والإخلاص في الدين في السورة.

هذا علاوة على أن ضمير المتكلم في سياق آية الزمر أكثر مما في سورة الكافرون كلها. فإن سورة الكافرون ليس فيها أكثر من سبعة ضمائر للمتكلم وهي:

الضمير المستتر في (أعبد) وقد تكررت اللفظة ثلاث مرات ، ففيها ثلاثة ضمائر مستترة ، والضمير البارز (أنا) ، والضمير المستتر في (عابد) ، والضمير في (لي) ، والضمير المحذوف في (دين).

وأما في سياق آيات الزمر ابتداء من قوله: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ (١١) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (١٢) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ

عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصًا لِّدِينِي ﴿١٤﴾ [الزمر: ١١ - ١٤] ففيها ثلاثة عشر ضميراً للمتكلم ، مع أنه ثلاث آيات ، وهن أقل من سورة الكافرون .

والضمائر هي:

الضمير في (إني) وهو الياء ، والضمير في (أمرت) وهو التاء ، والضمير المستتر في (أعبد) ، والضمير المستتر في (مخلصاً) ، والضمير في (أمرت) في الآية التي تليها ، والضمير المستتر في (أكون) ، والضمير في (إني) ، والضمير المستتر في (أخاف) ، والضمير في (عصيت) ، والضمير في (ربي) ، والضمير في (أعبد) ، والضمير في (مخلصاً) ، والضمير في (ديني) .

ثم من ناحية أخرى أن سورة الكافرون نفى لعبادته ما يعبدون ، فقد قال: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ﴾ .

وأما سياق آيات الزمر فهو في عبادة الله والإخلاص لدينه والأمر بذلك .

ومعلوم أن الترك أيسر من الفعل ، فإن عدم فعل الشيء أيسر وأخف من فعله . قال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾ [مريم: ٦٥] مما يدل على ثقل العبادة . ولذا أمره بالاصطبار ولم يقل (واصبر) ، مما يدل على ثقل العبادة وأنها تحتاج إلى اصطبار لا مجرد صبر .

والحذف أخف من الذكر ، فناسب أن يكون مع الترك ما هو أخف وهو كلمة (دين) بحذف الياء ، وأن يذكر مع الفعل والأمر بفعله ما هو أثقل وهو (ديني) بذكر الياء .

ثم إن النفي إنما هو عدم حصول المنفي ، وإن الإثبات أو الأمر به إنما هو ذكر لوجوده أو إيجاده .

وسورة الكافرون إنما هي نفي ، أي عدم حصول الشيء ، فقد قال : ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ ، وقال : ﴿ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ﴾ فحذف الياء ولم يثبتها ، وذلك لعدم إثبات الفعل .

وآيات الزمر في إثبات الأمر وإيجاده ، فقد قال : ﴿ قُلِ اللَّهُ أَعْبُدُ ﴾ ، وقال : ﴿ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ ﴾ فذكر الياء وأثبتها .

قد تقول : ولكنه أثبت في آية الكافرون فقال : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ .

فنقول : أثبت أن دينهم لهم وأن دينه له ، ومن مقتضيات دينه ما ذكره من هذه المتاركة والمفاصلة في نفي عبادته ما يعبدون .

فناسب إظهار ياء المتكلم في آية الزمر دون آية الكافرون من كل جهة ، مع أن فواصل الآيات في السورة والسياق متماثلة .





تفسير آيات مختارة

من سورتي البقرة والمائدة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

البقرة ٦٢: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّٰلِحِينَ وَالصَّٰبِغِينَ مِّنْ ءَامَنَ
بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ
يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢].

المائدة ٦٩: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّٰبِغُونَ وَالصَّٰلِحِينَ مِّنْ ءَامَنَ
بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [المائدة: ٦٩].

* * *

من النظر في الآيتين نلاحظ ما يأتي :

١ - إنه قدم النصارى على الصابئين في آية البقرة ، وأخرهم في المائدة .

٢ - عطف (الصابئون) بالرفع في آية المائدة ، وعطفهم بالنصب في البقرة .

٣ - ذكر في البقرة: ﴿ فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ ولم يذكر مثل ذلك في المائدة ، مع أن المذكورين في المائدة والبقرة أصناف واحدة .

فما السبب في ذلك؟

أما التقديم والتأخير في الصابئين والنصارى ، والرفع والنصب في الصابئين ، فقد ذكرناه في كتابنا (معاني النحو) ^(١) فلا نعيد القول فيه .

وأما ذكر ﴿ فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ في البقرة وعدم ذكره في المائدة فذلك لأكثر من سبب :

منها أنه ذم عقائد اليهود والنصارى في المائدة وذم سلوكهم وأطال وفصل في ذلك .

وأما في البقرة فقد كان الكلام على اليهود فقط . وإن ما ذكره عن اليهود وصفاتهم وذمهم في المائدة أشد مما ذكره في البقرة . فإنه في البقرة ذكر نعمته وتفضله على بني إسرائيل وأنه فضلهم على العالمين فقال : ﴿ يَبْنَئِ إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [البقرة: ٤٧] . ولم يذكر مثل ذلك في المائدة .

وذكر في البقرة أيضاً معاصيهم وسوء أفعالهم ، ولكنه ذكر ذلك في المائدة بصورة أشد ، وحتى في ذكر العقوبات التي عاقبهم بها فهي في المائدة أشد مما في البقرة . فقد قال في البقرة مثلاً : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ [البقرة: ٦٥] .

في حين قال في المائدة : ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ [المائدة: ٦٠] .

فذكر لعنة الله وغضبه عليهم ، وأنه جعل منهم القردة والخنازير ، وأنهم عبدوا الطاغوت وقال : ﴿ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ .

(١) انظر (معاني النحو) ج ١ / ٤٢٢ - ٤٢٣ .

ولم يقل مثل ذلك في البقرة ، بل لم يجمع القردة والخنازير فيهم إلا في المائدة .

فكان سياق الغضب في المائدة أشد مما في البقرة . فناسب زيادة تفضله في البقرة على ما في المائدة .

ثم إن جو الرحمة في البقرة أشيع مما في المائدة ، فإنه ذكر الرحمة ومشتقاتها في البقرة (١٩) تسع عشرة مرة ، وذكرها في المائدة خمس مرات ، فناسب ذلك أيضاً زيادة التفضل في البقرة من جهة أخرى .

ثم من ناحية أخرى أن الأجر إنما يكون على قدر العمل ، وقد ذكر من أنواع العمل الصالح واتساعه في سورة البقرة ما هو أكثر بكثير مما ورد في سورة المائدة ، فقد ذكر في المائدة زهاء عشرة أنواع من العمل وهي الوفاء بالعقود والتعاون على البر والتقوى والوضوء وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالاستباق إلى الخيرات والجهاد في سبيل الله والأمر بإطاعة الله ورسوله والإحسان .

وقد ذكرها كلها تقريباً في البقرة وزاد عليها ، فقد ذكر فيها أكثر من ثلاثين نوعاً من العمل الصالح منها الحج والعمرة والصيام والعكوف في المساجد والإحسان إلى الوالدين والأقربين والإصلاح لليتامى والقتال في سبيل الله والاستشهاد في سبيله والهجرة في سبيله والإصلاح بين الناس وأداء الأمانة وإنظار المدين المعسر والوفاء بالعهد وغيرها وغيرها .

فلما زاد العمل واتسع زاد في ذكر الأجر .

ثم لو نظرنا من ناحية أخرى لوجدنا أن مفردات قوله : ﴿ فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ ترددت في البقرة أكثر مما ترددت في المائدة .

وهي في السورتين على النحو الآتي :

المائدة	البقرة	المفردة
١٠٨	٢٦٠	فلهم : الفاء
١٥	٢٩	لهم
١	٥	أجر
١	١٩	عند
٢	١٠	ربهم

ثم نضيف إلى ذلك أن قوله: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ لم يرد إلا في البقرة وقد ورد فيها أربع مرات .

فوضعها في مكانها الذي هو أنسب لها .

وهذا الأمر ملاحظ في القرآن الكريم ، فقد تشابه آيتان أو تعبيران إلا في مفردة ، ثم نلاحظ أن كل مفردة من مواطن الاختلاف إنما تتردد في سورتها التي وردت فيها أكثر من الأخرى .

من ذلك على سبيل المثال قوله تعالى في الأنعام: ﴿فَمَنْ أَمِنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأنعام: ٤٨] .

وقوله في الأعراف: ﴿فَمَنْ أَتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٣٥] .

فاختلف التعبيران في (آمن) و(اتقى) .

وقد لاحظنا أن الإيمان ومشتقاته ورد في الأنعام (٢٤) أربعاً وعشرين مرة ، وورد في الأعراف (٢١) إحدى وعشرين مرة .

وأن التقوى ومشتقاتها وردت في الأعراف (١١) إحدى عشرة مرة ،

ووردت في الأنعام (٧) سبع مرات .

ومن ذلك قوله في (النحل): ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا ﴾ [النحل:

[٣٤].

وقوله في (الزمر): ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ﴾ [الزمر: ٥١].

فاختلف التعبيران في (عملوا) و(كسبوا) ولو لاحظت فعل الكسب لوجدته تردد في الزمر (٥) خمس مرات ، ولم يرد في النحل البتة .

وإن لفظ العمل ومشتقاته تردد في النحل (١٠) عشر مرات ، وتردد في الزمر (٦) ست مرات .

وقوله في (طه): ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَمْوَسَّى ﴾ [طه: ١١].

وقوله في (النمل): ﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ ﴾ [النمل: ٨].

فقال في (طه): (أتاها) ، وقال في (النمل): (جاءها).

وذلك أن ألفاظ (الإتيان) في طه أكثر منها في النمل ، وأن ألفاظ المجيء في النمل أكثر منها في طه . فقد وردت ألفاظ (الإتيان) في طه (١٥) خمس عشرة مرة ، ووردت في النمل (١٣) ثلاث عشرة مرة .

ووردت ألفاظ المجيء في طه (٤) أربع مرات ، ووردت في النمل (٨) ثماني مرات .

ومن ذلك قوله تعالى في البقرة: ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٧٣].

وقوله في الأنعام: ﴿ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [الأنعام: ١٤٥].

وقد تردد لفظ (الله) في البقرة أكثر مما في الأنعام ، وأن لفظ (الرب) تردد في الأنعام أكثر مما في البقرة . فقد ورد لفظ الله (٢٨٢) مائتين واثنين وثمانين مرة ، وتردد في الأنعام (٨٧) سبعا وثمانين مرة .

ووردت كلمة (الرب) في البقرة (٤٧) سبعا وأربعين مرة ، ووردت

في الأنعام (٥٣) ثلاثاً وخمسين مرة^(١).

وقد تقول: ألم يرد في البقرة (إن ربك غفور رحيم)؟.

فنقول: كلا فإنه لم يرد ذلك إلا بلفظ (الله) ، كما لم يرد في الأنعام إلا بلفظ (الرب) أو بالضمير الذي يعود على لفظ (الرب) ، فلم يرد فيها (إن الله غفور رحيم).

وهذا من عجائب التعبير.

هذا علاوة على ما يستحقه السياق في كل موضع وما يقتضيه التعبير.

ونحو هذا كثير.

ثم نأتي إلى قوله تعالى: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

وهو تعبير في غاية الدقة ، ولا يؤدي تعبير آخر مؤداه في أداء المعنى.

فقد نفى الخوف بالصيغة الاسمية ، ونفى الحزن بالصيغة الفعلية.

وخصص الحزن بتقديم الضمير (هم) ، ولم يخصص الخوف ، فلم

يقدم الجار والمجرور.

وإليك إيضاح ذلك:

١ - قال تعالى: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ ولم يقل (لا يخافون) كما قال:

﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ وذلك لأنهم يخافون ذلك اليوم ، كما قال تعالى:

﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [النور: ٣٧] ، وقال: ﴿إِنَّا نَخَافُ

مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ١٠] ، وقال: ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾

[الإنسان: ٧].

وخوفهم من اليوم الآخر مدح لهم. وكل الخلق من المكلفين يخافون

(١) انظر التعبير القرآني ٢٨٣.

في ذلك اليوم ، حتى يؤمن الله من يؤمن منهم ، قال تعالى : ﴿ إِنَّكَ زَلَّزَلَةٌ
السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ [١] يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ
وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ
عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ [الحج : ١ - ٢] .

فلا يصح أن يقال : (لا يخافون) .

٢ - إن معنى ﴿ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ أنه لا يخشى عليهم خطر أو ليس عليهم
خطر . أما هم فقد يكونون خائفين أو غير خائفين . فقد تخاف على إنسان
وهو غير خائف ؛ لأنه لا يقدر الخطر أو لا يعلمه أو لا يشعر به ، كالطفل
فإنه لا يخاف النار والحية والعقرب ونحن نخاف عليه ، فهنا خوف عليه ،
كما قال تعالى : ﴿ فَإِذَا خِفتَ عَلَيْهِ فَاكْلَيْهِ فِي الْيَمِّ ﴾ [القصص : ٧] .

وقد يكون الشخص خائفاً من شيء وهو في الحقيقة غير مخيف ولا
خطر عليه منه ، كالطفل يخشى من لعبة مخيفة .

فالمهم ألا يكون خوف واقعاً عليه .

٣ - وقال : ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ فجعل الحزن بالفعل وأسنده إليهم ،
ولم يقل : (لا خوف عليهم ولا حزن) فيكونا على نمط واحد ؛ ذلك لأن
المعنى لا يصح ، فإن معنى (لا خوف عليهم ولا حزن) أي لا حزن
عليهم ، أي لا يحزن عليهم أحد . فنفي الحزن عن غيرهم ولم ينفيه
عنهم . فقد يكونون حزينين ولا يحزن عليهم أحد . وهذا غير مُجَدِّ في
حقهم ، فإن المهم ألا يحزنوا هم .

وقد يكون ذلك القول ، أي (لا حزن عليهم) ذمّاً بحقهم ، كما قال
تعالى : ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ [النحل : ١٢٧]
أي لا يستحقون أن يحزن عليهم أحد .

٤ - قال : ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ بتقديم (هم) وذلك لإفادة أنهم لا

يحزنون ، ولكن الذي يحزن هو غيرهم وهم أصحاب الشقوة . فإنه نفى الحزن عنهم وأثبته لغيرهم ، كما تقول (ما أنا فعلت هذا) أي لم أفعله أنا ولكن فعله غيري .

٥ - فإن قلت : هلا قيل : (لا عليهم خوف) بتقديم الجار والمجرور كما قال : ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ بتقديم الضمير .

قلنا : هذا لا يصح من حيث المعنى ، فإنه لو قال : (لا عليهم خوف) كان المعنى أنه ليس عليهم خوف ولكن الخوف على غيرهم ، فينفي الخوف عليهم ويثبت لغيرهم ، نظير (ولا هم يحزنون) .

وهذا المعنى غير مراد ولا يصح أن يراد ؛ لأن ذلك يقتضي أنه لا يُخاف على المؤمنين ولكن يُخاف على الكفار .

ولكن من الذي يخاف على الكفار وهم مغضوب عليهم من الجميع ؟ إنه لا أحد يخاف عليهم .

فلا يصح أن يقال (لا عليهم خوف) كما قال : (ولا هم يحزنون) .

٦ - وقد نقول : وما الفرق بين (لا خوفٌ عليهم) برفع الخوف ، والقول (لا خوفَ عليهم) بالبناء على الفتح ؟ .

فنقول : إن البناء على الفتح يفيد نفي الجنس تنصيصاً . والرفع يفيد نفي الجنس على الراجح ويحتمل نفي غير الجنس ، والسياق قد يعين أحد المعنيين .

والسياق هنا دل على نفي الخوف تنصيصاً من أكثر من ناحية . فإن المقام مقام مدح من ناحية ، ومن ناحية أخرى أنه قال : ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فإذا كانوا لا يحزنون فإن معنى ذلك لا خوف عليهم ؛ لأن الشيء يكون مخوفاً قبل أن يقع ، فإن وقع الشيء المخوف صاحبه

الحزن . فنفي الحزن يعني نفي الخوف عليه .

فدلت القرائن على نفي الخوف تنصيصاً فأدت ما أفادته (لا) النافية للجنس . هذا إضافة إلى أن ثمة قراءة متواترة بالبناء على الفتح وهي قراءة يعقوب ، فدلت القراءتان على نفي الجنس تنصيصاً وبالقرائن .

ثم إن الرفع هنا أفاد معنى آخر لا تفيده النافية للجنس ، ذلك أن قوله : ﴿ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ بالرفع أفاد معنيين : كون حرف الجر متعلقاً بالخوف ، كقوله تعالى : ﴿ إِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ ﴾ وقولك : (أخاف عليك الذئاب) فيكون الخبر محذوفاً . وهذا من مواطن الحذف الكثير والشائع .

ويحتمل أن يكون الجار والمجرور (عليهم) هو الخبر متعلقاً بمحذوف ، ونظير ذلك أن تقول : (الجلوس في الصف) فإنه يحتمل أن تعلق الجار والمجرور بالمبتدأ ويكون الخبر محذوفاً على تقدير (مطلوب أو نافع أو مهم) أو نحو ذلك .

كما يحتمل أن يكون تعلق الجار والمجرور بمحذوف فيكون هو الخبر ، أي الجلوس كائن في الصف .

فجمع الرفع في الآية بين معنيين محتملين أحدهما (لا خوف عليهم من أي مكروه ، أو من أي شيء ، أو من أي محذور ، أو من أي جهة) ونحو ذلك .

والآخر : لا خوف واقع عليهم أو حالّ عليهم ونحو ذلك .

وأما (لا خوف عليهم) بالبناء على الفتح فهو يفيد المعنى الثاني نصّاً ، أي أن الجار والمجرور (عليهم) خبرها قطعاً . ولا يصح أن يكون متعلقاً بالخوف ؛ لأنه لو كان كذلك لقليل بالنصب لا بالبناء أي (لا خوفاً عليهم) فيكون من الشبيه بالمضاف ، والخبر عند ذاك يكون محذوفاً قطعاً . ونظير ذلك قولنا : (لا بائع في الدار) و(لا بائعاً في الدار) فالجملة الأولى نفت

أن يكون في الدار بائع سواء كان يبيع في الدار أم في غيرها . وأما الثانية أي (لا بائعاً في الدار) فإنها نفت وجود بائع يبيع في الدار ، وقد يكون هناك بائع ممن يبيعون خارج الدار .

فالرفع أفاد معنيين - كما ترى - .

فيكون هذا التعبير أعدل تعبير وأصلحه وأبلغه .

ثم إنه نفى الخوف والحزن الثابت والمتجدد .

فقوله : ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ نفى الخوف الثابت .

وقوله : ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ نفى الحزن المتجدد .

ونفي الحزن المتجدد يعني نفي الخوف ؛ لأن الخوف إذا وقع المخوف منه حزن الشخص لذلك .

فنفي الحزن المتجدد نفى الخوف المتجدد ، ونفي الخوف الثابت نفى الحزن الثابت .

وبذلك انتفى الخوف والحزن الثابت والمتجدد .

فإن قلت : هلا قيل : (لا خوف عليهم ولا حزن لهم) فتكون الجملتان اسميتين داليتين على الثبوت ؟

قلنا : إن القول (لا حزن لهم) ينفي الحزن عنهم ولا يثبت لغيرهم .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ذهب كثير من أهل اللغة أن قوله : ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ جملة اسمية ، وهي تفيد نفي الحزن على جهة الثبوت .

ولا نذهب إلى هذا ؛ لأن الفعل هو الذي يفيد الحدوث والتجدد ، والاسم يفيد الثبوت . وقوله : (ما هو يقرأ) يختلف عن قولنا : (ما هو قارئ) .

فإن قلت: هلا قيل: (ولا لهم حزن) ليفيد نفي الحزن عنهم ويثبت له
لغيرهم؟

قلنا: إذا قيل ذلك ذهب التنصيص على الجنس ؛ لأنه يجب إهمال
(لا) ويجب رفع الحزن.

هذا إضافة إلى أن هذا لا يفيد نفي الحزن المتجدد ، بخلاف قوله
تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فإنه أفاد نفي الثابت والمتجدد. والله أعلم.

* * *

من سورتي البقرة وإبراهيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

* قال تعالى في سورة البقرة: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفْعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

* وقال في سورة إبراهيم: ﴿قُلْ لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾ [إبراهيم: ٣١].

ومن النظر في النصين يتبين ما يأتي:

١ - إنه قال في البقرة: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾.

وقال في إبراهيم: ﴿قُلْ لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [إبراهيم: ٣١] بذكر (قل) وبزيادة (العباد) على ما في البقرة.

٢ - قال في البقرة: ﴿أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾.

وقال في إبراهيم: ﴿يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ فذكر إقامة الصلاة إضافة إلى الإنفاق.

٣ - قال في إبراهيم: ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾.

ولم يقل مثل ذلك في البقرة.

٤ - ذكر الشفاعة في البقرة ولم يذكرها في إبراهيم.

٥ - قال في البقرة: ﴿وَلَا خُلَّةٌ﴾.

وقال في إبراهيم: ﴿وَلَا خِلَلٌ﴾ .

فما سر هذا الاختلاف؟ .

والجواب أن سياق كل تعبير اقتضى ما هو فيه :

١ - أما ذكرُ القول في إبراهيم دون البقرة فلأنه تردد التبليغ فيها على لسان الرسل ، ولم يرد تبليغ مباشر من الله أو نداء مباشر للمؤمنين أو لغيرهم فيها .

قال تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ .

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرًا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم :

. [٨

﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم : ١٠] .

﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ [إبراهيم : ١١] .

﴿ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ [إبراهيم : ٣٠] .

﴿ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [إبراهيم : ٣١] .

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ [إبراهيم : ٣٥] .

وأما في البقرة فقد ورد الخطاب المباشر من الله تعالى إلى عباده ،

قال تعالى : ﴿يَبْنَئِ اسْرءِىلْ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة : ٤٧] .

﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُنِبْ عَلَيْكُمْ الصِّيَامُ﴾ [البقرة : ١٨٣] .

﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَعْنَا﴾ [البقرة : ١٠٤] .

﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة : ١٥٣] .

﴿ يَتَأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة : ٢١] .

﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُنِبْ عَلَيْكُمْ الْقَصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾ [البقرة : ١٧٨] .

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨].

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا بُطْلُوهَا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ [البقرة: ٢٦٤].

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٦٧].

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٨].

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

وليس في إبراهيم نداء مباشر من الله إلى الذين آمنوا أو غيرهم .

فناسب القول في آية إبراهيم ، والنداء المباشر في آية البقرة .

وأما زيادة العباد على الذين آمنوا في إبراهيم فلأنه زاد الصلاة على

الإنفاق ، فلما زاد في العبادة زاد في ذكر العباد .

٢ - قال في البقرة: ﴿أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾ .

وقال في إبراهيم: ﴿يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ .

فزاد في إبراهيم إقامة الصلاة ؛ لأنه قال بعدها: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ

الصَّلَاةِ﴾ ، وقال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ

الْمَحْرَمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ .

وذكر الإنفاق في البقرة ولم يذكر الصلاة ؛ لأن الآية وقعت في سياق

الإنفاق وليس في سياق الصلاة ، قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ

فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ

لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا

أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧﴾

﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴾ (٢١٦) يَتَّيُّهَا
 الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَتَكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ
 بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانَ عَلَيْهِ رُبَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا
 يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢١٧﴾ وَمِثْلُ الَّذِينَ
 يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّتٍ
 بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَفَانَتْ أَكْلَهَا ضَعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلَّ وَاللَّهُ بِمَا
 تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢١٨﴾ أَيُّدُ أَحَدِكُمْ أَنَّ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ تَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرَى مِنْ
 تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا
 إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ
 تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ يَتَّيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا
 لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِتَاخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْنِصُوا فِيهِ
 وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٢٠﴾ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ
 وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢١﴾ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ
 يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٢٢﴾ وَمَا
 أَنْفَقْتُمْ مِّنْ نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِّنْ نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِّنْ
 أَنْصَارٍ ﴿البقرة: ٢٦١ - ٢٧٠﴾ ويستمر الكلام ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٦ ،
 . ٢٧٧

ولم يرد ذكر للصلاة في السياق ، فناسب ذكر الإنفاق في البقرة ،
 وذكر الصلاة والإنفاق في إبراهيم .

٣ - قال في إبراهيم : ﴿ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ لأنه قال بعدها : ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ
 مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ ﴾ .

٤ - قال في البقرة : ﴿ وَلَا شَفَعَةً ﴾ لأنه قال بعدها : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ
 عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ .

٥ - قال في البقرة: ﴿وَلَا خُلَّةٌ﴾ .

وقال في إبراهيم: ﴿وَلَا خِلْلٌ﴾ .

والخُلَّة هي الصداقة وجمعها خِلال .

والخِلال أيضاً مصدر (خال) وهي المصادقة .

فالخِلال تحتل أن تكون جمع (الخُلَّة) ، وتحتل أن تكون مصدر (خاللت) ^(١) أيضاً الدال على المشاركة . وقد جاء بها بالجمع أو بالمصدر الدال على المشاركة ؛ لأنه ذكر في آية إبراهيم ما زاد على آية البقرة :

١ - فقد قال في إبراهيم: ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [إبراهيم: ٣١] فزاد كلمة (عبادي) على ما في البقرة .

٢ - وقال فيها أيضاً: ﴿يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ [إبراهيم: ٣١] فزاد إقامة الصلاة على ما في البقرة ، فجمع بين الصلاة والإنفاق .

٣ - وقال في إبراهيم: ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ فزاد السر والعلانية على ما في البقرة ، فاقترض ذلك الزيادة في معنى الخلة . فالخلة مفرد و(الخِلال) جمع ، والجمع أكثر من المفرد .

وإن كانت كلمة (خِلال) بمعنى المصدر فهي تدل على المشاركة ، فهي أكثر وأشمل من الخلة .

إن كلمة (الخِلال) تحتل معنيين في السياق ، أما (الخُلَّة) فلها معنى واحد ، فزاد معناها على معنى الخلة وشمل أكثر من معنى .

فناسب ذكر الخِلال في إبراهيم دون البقرة .

(١) انظر لسان العرب (خلل) .

هذا إضافة إلى أمور أخرى تقتضي ذكر الخلال في إبراهيم ، منها أنه جرى فيها ذكر الموالات والتبع ، وهذه من المخالات . فقد قال : ﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ [إبراهيم : ٢١] .

وذكر موالات الشيطان فقال : ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾ [إبراهيم : ٢٢] .

وقال على لسان سيدنا إبراهيم : ﴿ فَمَنْ يَتَعَنَى فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [إبراهيم : ٣٦] .

وقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كَفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴾ [إبراهيم : ٢٨] والأصل أن يكون مع الشخص وقومه خلال وصدقات .

والقوم جمع فناسب جمع الخلّة .

فناسب ذلك ذكر الخلال والصدقات في إبراهيم ، والخلّة في البقرة .

٦ - قال في خاتمة آية البقرة : ﴿ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ .

ولم يختمها بمثل ذلك في إبراهيم واكتفى بالكلام على اليوم الذي لا بيع فيه ولا خلال ، ذلك أن آية البقرة سبقها الكلام على الكافرين ، قال تعالى : ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلْنَا الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلْنَا وَلَكِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ [البقرة : ٢٥٣] .

فناسب ذلك ذكر الكافرين وأنهم هم الظالمون .

في حين كان سبقها الكلام في إبراهيم على جهنم ، قال تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَيَنسَكُ الْفَرَارِ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَدَادًا لِيُضِلُّوهُ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴾ [إبراهيم : ٢٨ - ٣٠].

فناسب ذلك الكلام على اليوم الآخر في إبراهيم .

واختار البيع على الشراء في الآيتين ؛ لأن البيع هو مظنة الربح ، وهو الذي يأتي بالربح . أما الشراء فإن المشتري وإن اشترى بضاعة يراها مربحة فإنه يراها كذلك فيما إذا باعها .

وقدم البيع لأنه مظنة الربح - كما ذكرنا - وهو لمنفعة الشخص ذاته ، ثم ذكر بعده الخلة وهي الصداقة ، وتأتي بالمرتبة الثانية بعد النفس ، ثم ذكر الشفاعة بعدها ، وهي تأتي بعد الصداقة ؛ إذ ليس من اللازم أن يكون الشفيع صديقاً لمن يشفع له .

فالشفيع قد يكون صديقاً وقد يكون من المعارف ، بل قد يكون بعيداً طُلب منه أن يكون شافعاً لدفع ضرر أو جلب منفعة أو نحو ذلك . ومن أمثلة ذلك شفاعة أسامة بن زيد عند رسول الله في المخزومية التي سرقت .

والشفيع في العادة تكون له منزلة ومكانة أعلى من المستشفع له عند من يشفع عنده .

والخلة أدوم من الشفاعة ؛ إذ إن الشفاعة تختص بالأمر الذي يشفع فيه وينتهي بانتهائه سلباً أو إيجاباً ، بخلاف الخلة فإنه أدوم منها وأثبت ولذلك قدمها عليها . والله أعلم .

آية الكرسي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

بدأت الآية بالتوحيد ونفي الشرك ، وهو المطلب الأول في العقيدة وذلك قوله: ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ وورد ذلك عن طريق الإخبار عن (الله) ، ف (الله) مبتدأ ، وأخبر عنه بما ينفي الشرك ويثبت التوحيد وهو قوله: ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ .

ثم إن كل جملة في الآية تصلح أن تكون خبراً عن الله . فقوله: ﴿ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ ، وقوله: ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ ، وقوله: ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ ، وقوله: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ إلى آخر جمل الآية ، كل منها يصلح أن يكون خبراً عن (الله) الذي هو المبتدأ .

فالآية تدور على الله وصفاته ، فهي سيدة أي القرآن .

(الحي): الكامل الاتصاف بالحياة .

(القيوم): صيغة مبالغة للقيام . ومن معاني (القيوم): القائم بتدبير أمر خلقه في إنشائهم ورزقهم وعلمه بأمكتهم ، والقائم على كل شيء ،

والحافظ لكل شيء^(١) ، والقائم بذاته ، والدائم القيام بتدبير الخلق ، الذي لا ينعس ولا ينام ، فإن «من جاز عليه ذلك استحال أن يكون قيوماً»^(٢).

وقد عرّف الاسمين للدلالة على القصر والكمال فقال: ﴿هُوَ الْحَيُّ﴾ ولم يقل (هو حي) فيكون من جملة الأحياء ، وإنما هي الحي ، فلا حي في الحقيقة غيره ، إذ كل حي سواه يجوز عليه الموت . وهو الذي يفيض على الأحياء بالحياة ، ولولا هو لم تكن في الوجود حياة .

وهو (القيوم) ، ولم يقل (قيوم) فيشترك معه غيره في القيومية ، فلا قيوم سواه .

﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ .

السَّنة هي النعاس ، وهي ما يتقدم النوم . جاء في (الكشاف): «السَّنة ما يتقدم النوم من الفتور الذي يسمى النعاس . . . أي لا يأخذه نعاس ولا نوم وهو تأكيد للقيوم ؛ لأن من جاز عليه ذلك استحال أن يكون قيوماً»^(٣).

وقدم السَّنة على النوم لأنها أسبق منه ، فالنعاس يسبق النوم .

وجاء بـ (لا) الثانية فقال: ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ ولم يقل: (لا تأخذه سنة ونوم) للدلالة على أنه لا يكون واحد منهما . ولو حذف (لا) لاحتمل نفي الجمع وأنه قد يقع أحدهما . فجاء بـ (لا) لنفي كل منهما على سبيل الانفراد أو الجمع .

(١) انظر لسان العرب (قوم) ، روح المعاني ١٢/٣ ، تفسير الرازي ٩/٧ .

(٢) الكشاف ٣٨٤/١ .

(٣) الكشاف ٣٨٤/١ .

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.

(ما) تدل على ذات ما لا يعقل وعلى صفة العاقل وذلك كقوله تعالى :
﴿فَأَنكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٣] ، وقوله : ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾
﴿فَأَلَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس ٧ - ٨] والذي سواها هو الله . فقال : ﴿مَا فِي
السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ليشمل العقلاء وغيرهم ، ولم يقل (من) فيخص
العقلاء وحدهم .

وقدم الجار والمجرور (له) للحصر ، فدل على أن ذلك هو ملكه
حصراً ولا يشاركه في ذلك أحد . وكرر (ما) للدلالة على الإحاطة
والشمول لما فيهما .

وذكر ذلك بعد قوله : ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ للدلالة على أنه قائم بأمر ملكه
هو ، ويدل ذلك على كمال القيومية . فإن الذي يقوم بتدبير ملكه ليس
كمن يقوم بالنظر في ملك غيره .
﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾.

«بيان لملكوته وكبريائه ، وأن أحداً لا يتمالك أن يتكلم يوم القيامة إلا
إذا أذن له في الكلام ، كقوله تعالى : ﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾
[النبا: ٣٨]»^(١).

فدل هذا على ملكه وحكمه وكبريائه في الدنيا والآخرة . فقوله : ﴿لَهُ
مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ يشمل الدنيا ولا يخصصها .

وقوله : ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ﴾ ظاهره أنه في الآخرة ، فدل ذلك
على ملكوته وكبريائه فيهما .

والمعنى لا يشفع أحد إلا بإذنه ، ولكنه أخرج مخرج الاستفهام

الإنكاري ، وذلك أقوى من النفي .

ودل قوله هذا على أنه حي قيوم ، فإن الذي يُسْتَشْفَعُ عنده ويأذن بالشفاعة إنما هو حي .

والذي لا يستطيع أحد مهما بلغ أن يشفع عنده إلا بإذنه إنما هو القائم على كل شيء .

وقد تقول: ولم قال: ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ ﴾ بزيادة (ذا) مع (من) ولم يقل: من الذي؟ .

والجواب: أن (من ذا) تحتل أن تكون كلمة واحدة بمعنى (من) مع زيادة في التوكيد ، وتحتل أن تكون كلمتين: (من) الاستفهامية مع اسم الإشارة (ذا) ، والمعنى: من هذا؟ .

فإن كانت كلمة واحدة فهي أقوى من (من) وأكد ؛ وذلك لزيادة مبناها^(١) . والمقام به حاجة إلى توكيد ، فإنه لا يمكن لأحد أن يشفع إلا بإذنه ، ومن هذا الذي يفعل؟ .

وإن كانت (ذا) اسم إشارة فالمعنى: من هذا الذي يشفع؟ .

وقد تقول: ولم لم يقل (من هذا الذي يشفع)؟ كما قال في سورة الملك مثلاً: ﴿ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَّكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِّنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴾ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَكُمْ بَلْ لَّجُوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴾ [الملك: ٢٠ - ٢١] .

والجواب: أن (ها) التنبيه تدخل على اسم الإشارة للتنبيه والتوكيد . والمقام في آيتي الملك أدل على التحدي ، وهو أشد وأقوى مما في آية الكرسي ، فإن الكلام فيهما في خطاب الكافرين ، وليس كذلك سياق آية الكرسي .

(١) انظر معاني النحو (باب الاستفهام) - الجزء الرابع .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أن مقام آية الكرسي مقام شفاعة ، ومقام آيتي الملك مقام نصر ورزق ، ومقام الشفيع يختلف عن موقف الناصر .

«فقد قال في آية الكرسي : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] والشفيع طالب حاجة مرتجٍ قضاءها ، عالم بأن الأمر بيد من هو أعلى منه . فهو متلطف بسؤاله .

في حين قال في سورة الملك : ﴿ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنَّ الْكُفْرَ الْإِلَافِي عُرُورٌ ﴾ ﴿٢١﴾ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُمْ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴾ [الملك : ٢٠ - ٢١] .

وهذا - كما ترى - موقف ندٍّ وليس موقف شفيع . فالناصر من دون الرحمن والرازق إن أمسك الرحمن رزقه لا يكون إلا ندّاً لله سبحانه ، تعالى الله عن الند ، ولا يمكن أن يكون هذا لغير الله . ولذا سأل رب العزة قائلاً : من هذا الناصر الرازق من دوني ؟ فزاد التنبيه .

هذا علاوة على ما في هذا من السخرية من إله لا يعرفه رب العالمين . فأنت ترى أن السياق في آية الملك يقتضي زيادة التنبيه ، بخلاف آية البقرة» ^(١) .

هذا إضافة إلى أن التعبير في آية الكرسي كسب معنيين : قوة الاستفهام ومعنى الإشارة ، فأصبح المعنى : من الذي يشفع ؟ ومن هذا الذي يشفع ؟ ولا يؤدي أي تعبير آخر هذين المعنيين . فلو قال : من الذي يشفع لفات معنى الإشارة ، ولو قال : من هذا الذي يشفع لفات قوة الاستفهام التي تؤدي بـ (من ذا) ^(٢) والله أعلم .

(١) التعبير القرآني ١٢٤ .

(٢) التعبير القرآني ١٢٤ .

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ .

أي: يعلم ما أمامهم وما وراءهم ، والمقصود إحاطة علمه سبحانه بأحوالهم وأمورهم الماضية والمستقبلية ، وهو يعلم بأحوال الشافع ، والدافع الذي يدفعه إلى طلب الشفاعة ، ويعلم أحوال المشفوع له ، وهل يستحق أن يستشفع له ، فله كامل العلم ، ولا يأذن إلا عن كمال العلم .

قد تقول لقد قال في سورة مريم: ﴿لَمْ مَّا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤] فذكر الملك ، وهنا في آية الكرسي ذكر العلم ، فما سبب هذا الاختلاف؟ .

فنقول إن سياق آية مريم في الملك ، فقد قال قبلها: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ ﴿١٢﴾ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ٦٢ - ٦٣] .

وقال بعدها: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾ [مريم: ٦٥] فذكر أنه يرزق أهل الجنة بكرة وعشيًا ، وذكر أنه يورث الجنة من كان تقياً ، والذي يرزق إنما هو مالك ، والذي يورث إنما هو مالك .

وقال: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ وربهما يعني مالكهما ، فهي قد وقعت في سياق الملك .

وأما في آية الكرسي فقد وقع قوله هذا في سياق العلم ؛ إذ جاء بعده قوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ .

فناسب كل تعبير موطنه .

هذا إضافة إلى أنه ذكر الملك أيضاً في آية الكرسي ، فقد قال قبلها: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ .

فذكر فيها العلم والملك .

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ .

قوله : (بما شاء) يحتمل أن تكون (ما) فيه مصدرية ، أي بمشيئته ،
ويحتمل أن تكون اسماً موصولاً ، أي بالذي يشاؤه ، فهو قيوم على
علمهم .

فجمع بهذا التعبير المعنيين : أي لا يحيطون بذلك إلا بمشيئته وبالذي
يشاؤه .

ودل هذا على أن من سواه لا يعلم شيئاً إلا ما أَراده الله وبالقدر الذي
يشاؤه قيوم السماوات والأرض ، وأنهم لا يعلمون حتى أنفسهم ولا
البديهيّات لولا مشيئة الله ؛ لأن ذلك من علمه ، وأنهم لا يحيطون بشيء
من ذلك إلا بالذي يشاؤه نوعاً ومقداراً .

قد تقول : لقد قال في سورة طه : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا
يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾ [طه : ١١٠] فنفي الإحاطة بذاته .

وقال في آية الكرسي : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴾ فنفي
الإحاطة بشيء من علمه ، فما سبب ذلك ؟ .

فنقول : إن آية طه جاءت بعد ذكر العجل الذي اتخذه بنو إسرائيل
إلهاً . ولا شك أنهم أحاطوا بذلك الإله علماً ، فهم صنعوه بأيديهم من
الذهب . أما الله تعالى فلا يحاط به علماً ، فنفي الإحاطة بذاته سبحانه ،
وأما ما في آية الكرسي فهو في سياق العلم كما ذكرنا .

﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ .

دل قوله هذا على أنهما من ملكه . فقوله : ﴿ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي
الْأَرْضِ ﴾ دل على أن ما فيهما ملكه ، وقوله : ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ ﴾ دل على أن السماوات والأرض ملكه ، فدل ذلك على أن
السماوات والأرض وما فيهما ملكه .

ودل ذلك على أن ملكه أوسع من ذلك بكثير ، وأنه لا يحاط بملكه علماً ، فالسماوات والأرض وما فيهما وسعهما كرسيه ، وهما فيه كحلقة في فلاة .

وقال : ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ﴾ ولم يقل (يسع) ليدل على أنه وسعها فعلاً ، ولو قال : (يسع) لكان إخباراً عن مقدار السعة وإن لم يكن حاصلًا ، وذلك كما تقول : (تسع داري ألف شخص) فإن ذلك لا يدل على أنها حل فيها هذا العدد فوسعتهم ، بخلاف قولك : (وسعت داري ألف شخص) ، فإن ذلك يدل على أن الأمر حصل .

﴿ وَلَا يَتُودُّ حِفْظُهُمَا ﴾ .

أي لا يثقله ولا يجهد . وهذا يدل على كمال القيومية والقدرة . وجاء بـ (لا) الداخلة على المضارع لإفادة الإطلاق ، وأن هذا على وجه الاستمرار في الحال والاستقبال .

﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ .

العليّ من العلو الذي هو بمعنى القدرة والسلطان والملك وعلو الشأن والقهر والاعتلاء والجلال والكبرياء .

وهو المتعالي عن الأشباه والأنداد والأمثال^(١) .

فهو العلي عن الحقيقة ولا عليّ سواه ، وهو العظيم على الحقيقة ولا عظيم سواه .

والملاحظ أنه ورد وصف الله بهذين الوصفين الكريمين في موضعين من القرآن الكريم كلاهما في ملك الله للسماوات والأرض ، أحدهما في هذه الآية وهو قوله : ﴿ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ ، والآخر في قوله

(١) انظر روح المعاني ١٧/٣ .

في الشورى : ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ .

والملاحظ أن آية الكرسي ذكرت في بدايتها اسمين من أسماء الله الحسنى وهما (الحي القيوم) وانتهت باسمين من أسمائه وهما (العلي العظيم). وكل جملة من جمل الآية تدل على أنه الحي القيوم ، وأنه العلي العظيم .

فالذي لا إله إلا هو هو الحي القيوم ؛ لأن الإله ينبغي أن يكون حيًا وأن يكون قيومًا على عباده .

والذي لا تأخذه سنة ولا نوم هو الحي القيوم .

والذي له ما في السماوات وما في الأرض هو الحي القيوم ، فإن المالك حي ، وإن الذي له كل ذلك لا بد أن يدبر أمر ما يملك ويقوم بحفظه ورعايته وذلك من معاني القيوم .

وإن الذي لا يشفع عنده إلا بإذنه هو الحي القيوم ، فإن الذي يُستشفع عنده ويأذن بالشفاعة هو حي ، وإن الذي لا يُفعل ذلك إلا بإذنه هو القيوم على كل ما يحدث في ملكه .

وإن الذي يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحاط بشيء من علمه إلا بما شاء حي قيوم .

وإن الذي وسع كرسيه السماوات والأرض حي قيوم .

وإن الذي لا يؤوده حفظهما حي قيوم .

والعلي العظيم هو حي قيوم .

فدلت كل جملة من جمل الآية على أنه هو الحي القيوم .

كما أن كل جملة من الآية تدل على أنه علي عظيم ، بل على أنه العلي العظيم .

فالذي لا إله إلا هو ، هو العلي العظيم .
وأن الذي لا تأخذه سنة ولا نوم علي عظيم .
والذي له ما في السماوات وما في الأرض هو العلي العظيم .
والذي لا يشفع عنده إلا بإذنه علي عظيم .
والذي يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم علي عظيم .
والذي لا يحاط بشيء من علمه إلا بما شاء علي عظيم .
والذي وسع كرسيه السماوات والأرض هو العلي العظيم .
وإن الذي لا يؤوده حفظهما هو العلي العظيم .
فكل جملة من جمل الآية تدل على أنه حي قيوم ، علي عظيم ، بل
على أنه الحي القيوم ، والعلي العظيم .
ومن الملاحظ في الخط التعبيري لهذه الآية أنها تذكر من الأشياء اثنين
اثنين .

فقد بدأها بصفيتين من صفات الله هما : الحي القيوم .
وذكر اثنين من النوم وهما : السنة والنوم .
وذكر (لا) مرتين .

وذكر اثنين من ملكه هما ﴿ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ .
وكرر (ما) مرتين .

وذكر اثنين من علمه ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ .
وكرر (ما) مرتين .

وكرر اثنين مما وسعه الكرسي ﴿ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ .
وختم الآية بصفيتين من صفاته هما : العلي العظيم .

وقوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ ورد في موطنين: أحدهما في هذه الآية ، والموطن الآخر في آل عمران وهو قوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ والعلي العظيم وردا مرتين في هذه الآية ، وفي الشورى في الآية الرابعة .

* * *

من سورة الإسراء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ ۚ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُمِّنَ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

* * *

لقد حُفَّت سورة الإسراء بالتسبيح والتحميد ، فقال سبحانه في بداية السورة التي قبلها: ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ١].

وقال في بداية السورة التي بعدها: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف: ١].

وكما حُفَّت السورة بالتسبيح والتحميد حُفَّت آياتها بالتسبيح والتحميد ، فابتدأت بقوله: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَىٰ﴾ ، وختمت بقوله: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ﴾ .

وسبقت بالمعية من الله وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

وأعلى المعية أن يُعرج به إليه ، إذ لا معية أعلى من ذلك ، فدل ذلك على أنه ﷺ أعلى الذين اتقوا وأعلى الذين هم محسنون . فلا متقي أعلى منه ، ولا محسن أعلى منه ، فاستحق أعلى المعية .

وبعد هذه المقدمة الوجيزة نود أن نبين شيئاً من الأسرار التعبيرية في هذه الآية المباركة :

١ - بدأت السورة بقوله (سبحان) وهو علم على التسبيح ، أو اسم مصدر بمعنى التسبيح .

وقد ورد التسبيح في القرآن الكريم بصور شتى ؛ إذ ورد بالفعل الماضي نحو ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ وبالفعل المضارع نحو ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾ وبفعل الأمر نحو ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ وبالمصدر أو اسمه وهو (سبحان)^(١) ، وذلك ليشمل كل أحوال التسبيح .

وإنما جاء به بمعنى المصدر من غير ذكر لفاعل التسبيح ، ومن غير تقييد بزمن معين لغرض الإطلاق ، أي إنه أهل التسبيح ومستحقه ، سواء كان هناك من يسبحه أم لا .

وهذا مما يفيد المصدر ، فإن المصدر لا يدل على زمن معين ، بخلاف الفعل ، ولا يقتضي فاعلاً معيناً ، فإنه يدل على الحدث المجرد ، فدل ذلك على الإطلاق .

إن افتتاح السورة بالتسبيح طبعها بجو التسبيح إلى حد كبير وشاع فيها ذلك ، من ذلك قوله تعالى : ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [٤٣] .

وقوله : ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ [٤٤] .

وقوله : ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [٤٤] وهو أعظم إطلاق في التسبيح ، فناسب هذا الإطلاق الإطلاق في أول السورة .

وقال : ﴿سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء : ٩٣] .

(١) انظر كتابنا (على طريق التفسير البياني) ج ١ / ٢٧٧ .

وقال: ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ [الإسراء: ١٠٨].

ولا أعلم سورة تماثلها في شيوع التسييح وكثرته. ولعل ذلك إشارة إلى نقله إلى عالم مليء بالتسييح.

٢ - وقال: (بعبدته) ولم يقل: (بمحمد) ولا (برسوله) مثلاً، ليدل على أن الإنسان مهما عظم لا يعدو أن يكون عبداً لله. ولا ينبغي لأحد أن يتعالى ويدّعي أنه أرفع من سائر العباد وأعلى منهم، ولا يدّعي مقاماً فوق الخلق. فإن أعظم الخلق إنما هو عبد الله، ولثلاثا يعظم ﷺ على غير ما ينبغي ويدّعى له غير مقام العبودية كما فعل بغيره من الأنبياء والصالحين.

وللدلالة من جهة أخرى على أن أعلى مقام للخلق هو مقام العبودية لله، وأنه أعلى وسام ينعم الله به على الفرد، قال تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُمْ كَانَتْ عِبَادًا شُكُورًا﴾ [الإسراء: ٣]، وقال في أيوب: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤].

ألا ترى أنه لما ذكر موسى عليه السلام عند المناجاة باسمه فقال: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ [الأعراف: ١٤٣] كانت عاقبة ذلك أن خر موسى صعباً.

ولما ذكر محمداً بصفة العبودية عرج به إلى السماوات العلى إلى سدرة المنتهى؟.

ألا ترى أنه لا يحسن أن يقال في موسى مثلاً: (ولما جاء عبدنا موسى لميقاتنا) فينسبه إلى نفسه ثم يصعبه؟.

ثم أضاف محمداً إلى نفسه فقال: (بعبدته) وهو تكريم آخر، وهو نظير قوله: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠] وفيه تشريف وحفظ له

من كل سوء ، فإن السيد يحمي عبده ويحفظه .

٣ - وقال : (ليلاً) مع أن الإسرائ لا يكون إلا في الليل للدلالة على أن الأمر كله إنما تم واكتمل ليلاً فقط ، فأكد ذلك لأن الإنسان لا يصدق بأن كل ما حدث يمكن أن يحدث ليلاً ، فأكدته للدلالة على أنه حدث في جزء من الليل ، وهذا ما يسمى بالظرف المؤكد .

وقال : (ليلاً) بلفظ التنكير لبيان «تقليل مدة الإسرائ ، وأنه أسري به بعض الليل من مكة إلى الشام»^(١) .

جاء في (روح المعاني) : «إن الليل والنهار إذا عُرِّفا كانا معياراً للتعميم وظرفاً محدوداً ، فلا تقول : (صحبتة الليلة) وأنت تريد ساعة منها ، إلا أن تقصد المبالغة ، كما تقول : (أتاني أهل الدنيا) لناس منهم ، بخلاف المنكر ، فإنه لا يفيد ذلك . فلما عدل عن تعريفه هنا علم أنه لم يقصد استغراق السرى له»^(٢) .

فدل بلفظ التنكير على أن الإسرائ إنما تم في جزء من الليل ، ولو عرّف الليل لكان المعنى أن الإسرائ إنما استغرق الليل كله ، كقوله تعالى : ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء : ٢٠] .

٤ - وقال : ﴿مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ فذكر مبدأ الإسرائ ولم يغفل ؛ للدلالة على قدرته تعالى بأن أسرى به من هذا المكان إلى المسجد الأقصى ، وهي مسافة ستة أشهر ذهاباً وإياباً في جزء من الليل .

وفي ذلك أيضاً دلالة شرعية كما يبدو ، فإن كثيراً من العلماء على أن الإسرائ إنما كان من بيت أم هانئ ، فاخته بنت أبي طالب ، وهذا البيت إنما هو خارج المسجد الحرام ، وإنما سماه الله (المسجد الحرام) ليدل

(١) الكشف ٤٣٦/٢ ، وانظر تفسير الرازي ١٩/١٤٨ .

(٢) روح المعاني ١٥/٧-٨ .

على أن مكة كلها حرم ، وأن ما يدخل منها في المسجد بسبب التوسعة إنما هو من المسجد الحرام له حرمة .

٥ - وقال : ﴿ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا ﴾ ولم يكن ثمة مسجد آنذاك للدلالة على أن ذلك سيكون .

٦ - وقال : ﴿ بَرَكْنَا حَوْلَهُ ﴾ بإسناد فعل المباركة إلى ذاته العلية ، ولم يقل : (بورك حوله) كما قال في مكان آخر : ﴿ أَنْ بُرِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ [النمل : ٨] للدلالة على عظم هذه المباركة ، وأن الذي برك حوله إنما هو الله وليست جهة أخرى . وللدلالة على تعظيم هذا المكان . والله يسند الأفعال إلى نفسه في مقام التعظيم .

وقال : ﴿ بَرَكْنَا حَوْلَهُ ﴾ ولم يقل : (باركناه) لتشمل المباركة كل ما حول المسجد ولا تنحصر في المسجد .

وقد تقول : ولم لم يذكر مباركة المسجد ؟ .

والجواب : إنه إذا كان ما حول المسجد مباركاً فإن مباركة المسجد أولى . فإن مباركة ما حول المسجد إنما كانت بسبب المسجد ، ويكفيه بركة أنه سماه مسجداً قبل أن يكون ، والمساجد هي بيوت الله ، وقد جعلها الله له خالصة فقال : ﴿ وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ [الجن : ١٨] . وأضافها إلى نفسه فقال : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ [التوبة : ١٨] . وهي أحب البقاع إلى الله كما في الحديث .

وكما أن الطواف حول البيت يدل على تعظيم البيت فإن المباركة حول المسجد تدل على تعظيم المسجد . قال زهير بن أبي سلمى :
فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله رجالاً بنوه من قريش وجرهم
فدل بالطواف حوله على تعظيمه والإقسام به .

وقد أطلق المباركة ولم يقيد بها ، فلم يقل مثلاً : (باركناه بكذا) لتشمل

المباركة المعنوية والروحانية والمادية .

فالمباركة المعنوية والروحانية بإرسال الرسل فيه .

والمباركة المادية بما أودع الله فيه من خير ورزق .

وقال : ﴿ بَرَكْنَا حَوْلَهُ ﴾ ولم يقل : (باركنا ما حوله) لثلاث تكون المباركة في أشياء مادية وذوات معينة ، فإن ذهبت أو زالت ذهبت البركة معها . فقال : ﴿ بَرَكْنَا حَوْلَهُ ﴾ فكانت المباركة حول المسجد ، وهي مباركة ثابتة لا تزول ؛ لأن المسجد لا بد أن يكون حوله شيء على الدوام . فالظرفية ملازمة للمسجد ، والمباركة ملازمة للظرفية .

٧ - وقال : ﴿ بَرَكْنَا حَوْلَهُ ﴾ و ﴿ لَنُرِيَهُ مِنْ أَيْنَأَنْتَ ﴾ ملتفتاً إلى التكلم بعد الغيبة .

فإنه كان المظنون أن يقول : (الذي بارك حوله) و(ليريه) فعبّر بأسلوب الالتفات ، ليدل على أن المتكلم هو الله وليس إخباراً عن الله .

٨ - وقال : ﴿ لَنُرِيَهُ ﴾ ليدل بذلك على أن أفعاله معللة لا تكون إلا لغاية بينها أو يخفيها ، وأن هناك منهجاً لهذه الرحلة .

٩ - وقال : ﴿ مِنْ أَيْنَأَنْتَ ﴾ ولم يقل : (آياتنا) ليدل على أنه أراد أن يريه بعضاً من آياته ، كما قال في موطن آخر : ﴿ لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾ [النجم : ١٨] .

١٠ - وقال : ﴿ لَنُرِيَهُ ﴾ بإسناد الإراءة إلى نفسه ، ولم يقل : (ليرى) أو (ليرى) بالبناء للمجهول ؛ للدلالة على شدة الاحتفاء به ﷺ ، وأنه تعالى هو الذي يريه ما أراد من الآيات بعلمه ، ولم يقل (ليرى) فلم يحدد من يريه .

وأضاف الآيات إلى نفسه ، ولم يقل (من الآيات) ، للدلالة على عظم هذه الآيات .

١١ - وقال: ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ فرجع إلى الأفراد بعد أن كان الكلام بصيغة الجمع الدالة على التعظيم ؛ وذلك ليدل على أنه واحد منزّه عن الشرك . وهذا أسلوب قرآني مطّرد . فإنه سبحانه إذا ذكر نفسه بصيغة الجمع ذكر بعده أو قبله ما يدل على الأفراد .

١٢ - وقال: ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ ولم يقل: (إنه سميع بصير) للدلالة على أنه الكامل فيهما ، وأن ذلك مختص به سبحانه .

١٣ - وقال: ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ وكان المظنون أن يأتي بما يدل على القدرة فيقول مثلاً: (إنه على كل شيء قدير) ؛ وذلك لأنه ذكر ما يدل على القدرة وهو قوله: ﴿ أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا ﴾ .

فنقول: إن ما ذكره أولى ، ذلك أنه ذكر ما يدل على القدرة فيما سبق ، فلو قال ذلك لم يزد على ما ذكر ، أما ههنا فزاد السمع والبصر . وهناك ملحظ آخر لذكر هاتين الصفتين ، وذلك إنما أسري به وعُرج به إلى السماوات العلى ليرى ويسمع ، فكان ذكر هذين الوصفين أنسب ، وليدل على أن ما يراه يراه ربه ، وأن ما يسمعه يسمعه ربه ، وهو اختيار لطيف بديع .

وقد تقول: لم قال: ﴿ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ ولم يقل: (السميع العليم)؟ . فنقول: إن ما قاله أولى ؛ ذلك أن من يسمعك ويراك عليم بك . أما العليم فقد يكون غائباً عنك .

قد تقول: ألم يقل: (السميع العليم) في مواضع؟ .

فنقول: إنه يقول ذاك عندما يقتضي السياق .

قال تعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف: ٢٠٠] .

وقال: ﴿وَأِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦].

وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّثُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَلِّغِيهِ فَاستَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّكُمْ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [غافر: ٥٦].

فقال في الشيطان الذي لا يرى ولا ترى وساوسه ولكنها تعلم: إنه هو السميع العليم.

وقال في البشر الذي يرى ويصير: ﴿إِنَّكُمْ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾^(١).

١٤ - وقدم السمع على البصر؛ لأن من يسمعك أقرب إليك ممن يراك، فهو مشعر بالقرب والطمأنينة، كما أن السمع أهم من البصر في مجال الدعوة.

وهناك أمر آخر حسن تقديم السمع على البصر، وهو أن الإسراء إنما هو في الليل، والليل آتاه السمع وليس البصر. قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَوْ لَظْلَمَةٍ تَسْمَعُون﴾^(٦) ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَوْ لَظْلَمَةٍ تَصِيرُونَ﴾ [القصص: ٧١-٧٢].

فختم آية الليل بقوله: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ لأن الليل يصلح فيه السمع، وختم آية النهار بقوله: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ لأنه صالح للإبصار^(٢).

(١) انظر التفسير القيم ٥٨٦، التعبير القرآني ٢٦٨.

(٢) التعبير القرآني ٢٦٧-٢٦٨، البرهان للزركشي ٨٢/١، ملاك التأويل ٧٦٢/٢.

فكان تقديم السمع أولى من كل ناحية .

١٥ - لقد ذكر في هذه الآية جملة من صفات الله سبحانه ، منها : الحياة والقدرة والحكمة والسمع والبصر ، ذلك لأن من كان قديراً سمياً بصيراً كان حياً ، ومن يفعل لعله فهو حكيم .

١٦ - وذكر صفة الخلق والملك تضمناً فقال : ﴿ لِنُزِيلِهِ مِنْ عَيْنِنَا ﴾ فأضاف الآيات إليه ، أي هو خالقها وفاعلها ومالكها .
فذكر أبرز صفات الألوهية : الحياة والخلق والملك والقدرة والحكمة والسمع والبصر .

وذكر هذه الأمور من صفات الله إنما هي تعريض بآلهة الكفار التي لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل ، وهي عاجزة عن كل شيء .

١٧ - وذكر الكمال فيما ذكر من صفات وفيما لم يذكر ، فقد يكون الفرد سمياً بصيراً ذا قدرة إلا أنه أحمق متهور ، فتكون هذه الصفات عيباً فيه ، وتكون قدرته ذمّاً لا مدحاً .

فنفي ذلك عن نفسه بقوله : ﴿ سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى ﴾ فنزّهه عن صفات النقص وما لا يليق ، فكان كاملاً في صفاته منزهاً عن العيوب ، فاستحق الثناء عليه وعلى صفاته .

هذا علاوة على أن قوله : (سبحان) يفيد تنزيهه عما يصفه أهل الجاهلية من صفات لا تليق ، كما قال ربنا : ﴿ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء : ٤٣] .

١٨ - ومن اللطيف أن نشير إلى ارتباط أول السورة بآخرها ، فقد بدأت بالتسبيح وختمت بالتحميد . فقال في أول السورة : ﴿ سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا ﴾ وختمت بقوله : ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾ .

ولما ذكر نعمته على عبده بالإسراء قال له في الآخر: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾
 كأنه تعليم لمن ينعم الله عليه أن يحمده على نعمه .

ثم إن مبتدأ السورة وختامها كان بالباقيات الصالحات التي يرى كثير
 من العلماء أنها (سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر) .

فالتسبيح كان في أول السورة وفي ختامها وهو قوله: ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ
 رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ [الإسراء: ١٠٨] .

والتحميد وهو قوله: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ .

ولا إله إلا الله وهو قوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ
 الذُّلِّ﴾ .

والله أكبر وهو قوله: ﴿وَكَبِيرُهُ تَكْبِيرًا﴾ .

وهناك ملاحظة أخرى أود أن أذكرها ، وهي أنه لما قال في آخر
 السورة: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ جاء بعدها مباشرة في مطلع السورة التي تليها:
 ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ كأن ذلك استجابة للأمر بالقول .

كانه قال: قل الحمد لله .

فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ .

ولما وصفه بأنه لم يتخذ ولداً في آخر السورة أنذر الذين يقولون:
 (اتخذ الله ولداً) في ابتداء السورة التي تليها فقال: ﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا
 أَخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ [الكهف: ٤] . فارتبط آخر السورة بأول السورة التي تليها
 أجل ارتباط وأجمله .

من سورتي الكهف والإنسان

قال تعالى في سورة الكهف: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۖ﴾ ﴿٣٠﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَكَفِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نَعَمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ [الكهف: ٣٠ - ٣١].

وقال في سورة الإنسان: ﴿عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ۖ﴾ ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُم جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا ﴿٢٢﴾ [الإنسان: ٢١ - ٢٢].

* * *

لسائل أن يسأل: لم ذكر أساور الذهب في الكهف ، وأساور الفضة في سورة الإنسان؟

والجواب أن عمل المذكورين في سورة الكهف أعلى من المذكورين في سورة الإنسان فكان الجزاء أعلى ، ذلك أنه قال عن المذكورين في سورة الإنسان: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ۖ﴾ ﴿٧﴾ وَيُطْعَمُونَ أَلْطَمًا عَلَىٰ حَبِّهِمْ مَسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ [الإنسان: ٧ - ٨].

وقال في سورة الكهف: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۖ﴾ [الكهف: ٣٠].

فذكر أنهم عملوا الصالحات ، والعمل الصالح أعم من الوفاء بالنذر وإطعام الطعام لهذه الأصناف خاصة: المسكين واليتيم والأسير. ثم إن

النذر مكروه شرعاً ، غير أن الوفاء به واجب .

ثم ذكر إحسان العمل في الكهف فقال : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الكهف : ٧] . وإحسان العمل أعلى من مجرد العمل الصالح .

فلما كان عمل المذكورين في الكهف أعلى كان الجزاء أعلى من نواح عدة :

١ - ذكر التحلية من أساور الذهب في الكهف .

والتحلية بأساور الفضة في الإنسان .

فكان الجزاء في الكهف أعلى من ناحيتين :

أ - من ناحية الجنس ، فالذهب أعلى من الفضة .

ب - والكثرة ، فقد قال في الكهف : ﴿ يُحَلِّونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ ﴾ فذكر (من) مع التحلية ، ولم يذكر (من) في الإنسان ، وإنما قال : ﴿ وَحُلُوا أَسَاوِرَ ﴾ .

وذكر (من) أعلى في الجزاء ، فهي تدل على كثرة الأساور ، فقولك : (كل من هذا التفاح) أدل على كثرة التفاح من قولك : (كل هذا التفاح) ، وقولك : (البس من هذه الملابس) أدل على كثرة الملابس من قولك : (البس هذه الملابس) .

ثم إنه حيث ذكر أساور الذهب جاء بـ (من) مع التحلية فيقول : ﴿ يُحَلِّونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ﴾ [الحج : ٢٣ ، فاطر : ٣٣] بخلاف أساور الفضة .

ويدلك على ذلك أيضاً قوله تعالى في سورة الدخان : ﴿ إِنَّ الْأَمْتَقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ ﴾ [الدخان : ٥١ - ٥٣] .

فلما ذكر المتقين وهم أعلى من مجرد المؤمنين المذكورين في الكهف قال: ﴿يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ﴾ فجاء بـ (من) ، ولم يقل: (يلبسون سندساً) ولا (ثياباً) كما قال في الكهف. فدل على أن ذكر (من) أعلى.

ثم إنه لم يقل في سورة الدخان: (يلبسون ثياباً من سندس) كما قال في الكهف ، وإنما قال: ﴿يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ﴾ فأطلق اللباس ولم يقيد بالثياب فكان أعم. فدل على علوّ الجزاء بالإطلاق وبذكر (من) للدلالة على الكثرة.

٢- قال في الإنسان: ﴿عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُندُسٍ خُضْرٌ﴾ وعاليهم من العلو. وقال في الكهف: ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُندُسٍ﴾ فذكر أنهم يلبسون ذلك ، وقد لا يكون ذلك عليهم ، بل إن عاليهم قد يكون أعلى من السندس.

٣- امتدح الثواب في الكهف فقال: ﴿نِعَمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾. وقال في سورة الإنسان: ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا﴾. فذكر أن هذا جزاؤهم الذي يستحقونه ، ولم يقل فيه ما قال في الكهف من الثناء.

٤- ذكر الاتكاء على الأرائك في الكهف: ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾. ولم يذكر مثل ذلك في سورة الإنسان.

٥- ذكر في الكهف أنهم تجري من تحتهم الأنهار.

ولم يذكر مثل ذلك في سورة الإنسان.

فدل ذلك على علوّ الجزاء في الكهف ، فناسب الجزاء العمل.

من سورة النجم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۝١١ أَفَتَمْنُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ۝١٤ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ۝١٥ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ [النجم: ١ - ١٨].

* * *

هذه الآيات من سورة النجم هي في المعراج ، وقد سبقتها آية الإسراء التي سبق أن ذكرناها في مكانها .

لقد سُبقت هذه السورة بالتسبيح ، فقال سبحانه في خواتيم السورة التي قبلها : ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ۝٤٨ وَمِنْ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ الْجُورِ﴾ [الطور: ٤٨ - ٤٩].

وناسب ذكر إدبار النجوم ، وهو غروبها وهويها في خاتمة السورة التي قبلها ، القسم بالنجم إذا هوى ، و(هوى): غرب ، فكانت بداية هذه السورة شديدة المناسبة لما قبلها ، جاء في (روح المعاني): «وهي شديدة المناسبة لما قبلها ، فإن الطور ختمت بقوله تعالى : ﴿وَإِدْبَرَ

النُّجُومِ ﴿١﴾ ، وافتتحت هذه بقوله سبحانه: ﴿وَالنَّجْمِ﴾ . . .

ومعنى: (هوى): غرب ، وقيل: طلع ﴿١﴾.

وناسب مفتتح السورة خاتمتها وهو قوله: ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾.

فإن السجود هو أهم ركن في أهم عبادة وهي الصلاة ، وقد فرضت في خاتمة المعراج .

ثم إن السجود هَوِيَّ إلى الأرض ، فهو مناسب لقوله: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾.

إن السجود أقرب حالة إلى الرب كما قال ﷺ: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد» وقد ذكر في أقرب حالة للرسول من ربه وهي المعراج .

﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾.

الضلال نقيض الهدى ، وهو العدول عن الطريق المستقيم ، ولذلك كثيراً ما يقابل القرآن الضلال بالهدى ، قال تعالى: ﴿مَنْ أَهْتَدَىٰ فَأَنَا مَيَّتَدَىٰ لِنَفْسِيهِ وَمَنْ ضَلَّ فَأَنَا يَضِلُّ عَلَيْهِ﴾ [الإسراء: ١٥] ، وقال: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧] ، وقال: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦] ، وقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ أَهْتَدَىٰ﴾ [النجم: ٣٠].

وهو يكون عن قصد وعن غير قصد ، قال تعالى: ﴿يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾ [النساء: ٤٤] ، وقال: ﴿لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ [النساء: ١١٣] ، وقال: ﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية: ٢٣] وهذا ضلال أو إضلال عن قصد وعلم .

وقال: ﴿أَنْ يُمَلَّ هُوَ فَلْيَمْلِكْ وَلِيَّهُ بِالْعَدْلِ وَأَسْتَشْهَدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ رَضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾ [البقرة: ٢٨٢].

وقال: ﴿وَأِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١١٩].

وقال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٤٤].

وهذا ضلال أو إضلال من غير قصد وبغير علم.

جاء في (المفردات) للراغب: «الضلال: العدول عن الطريق المستقيم، وضياده الهداية... ويقال الضلال لكل عدول عن المنهج، عمداً كان أو سهواً، يسيراً كان أو كثيراً»^(١).

ويكون للإنسان وغيره من الحيوان والجماد. يقال: ضلّت الدابة إذا ضاعت، وضلّ السعي إذا حبط، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ١٠٤] وضلّ الشيء: خفي وغاب، وإذا سقطت الدراهم عنك فقد ضلّت^(٢).

وأما الغي فهو الضلال والخيبة والفساد^(٣) والاعتقاد الباطل^(٤).

وهو نقيض الرشد^(٥) ولذلك قد يقرن القرآن بينهما على أنهما نقيضان. قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ

(١) المفردات في غريب القرآن (ضل).

(٢) لسان العرب (ضل).

(٣) لسان العرب (غوى).

(٤) تفسير البياضوي ٢٥٣/٥.

(٥) الكشف ٢٨/٤، روح المعاني ٤٥/٢٧، مفردات الراغب (رشد).

بِالْطَّغُوتِ وَيُؤْمِنُ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿البقرة: ٢٥٦﴾ ، وقال: ﴿وَأِنْ يَرَوْا سَيِّلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَكْرُوا سَبِيلَ الْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: ١٤٦].

فنفى عن الرسول ﷺ الضلال والغى فقال: (ما ضلّ) و(ما غوى) فهو مهتد رشيد .

وكرر (ما) في النفي للدلالة على أنه لم يحصل له واحد من هذين على سبيل الجمع أو الأفراد. ولو قال: (ما ضلّ صاحبكم وغوى) لاحتمل نفي الجمع بينهما ، أي لم يجتمعا فيه ، وإنما حصل له واحد منهما .

واحتمل نفي الأفراد أيضاً ، واحتمل نفي الأول وإثبات الثاني ، ونحو ذلك أن تقول: (ما ضربه وشتمه) أي لم يفعل الاثنين جميعاً ، وإنما فعل واحداً منهما ، وقد يحتمل أنه لم يفعل أي واحد منهما ، ويحتمل أيضاً نفي الأول وإثبات الثاني فتكون الواو استئنافية أو حالية نحو قولك: (ما ضربته وشتمني) أي أنا لم أضربه وهو شتمني ، فعطف مثبتاً على منفي . ونحو قولك: (ما أسأنا إليهم وبغوا علينا) أي لم نسئ إليهم وهم بغوا علينا . فإن قلت: (ما ضربه وما شتّمه) نفيت الأمرين على كل حال .

وقال: ﴿صَاحِبُكُمْ﴾ ولم يقل (محمد) أو الرسول أو نحو ذلك ، إشارة إلى أنهم صحبوه وعرفوه وعرفوا أحواله بطول صحبته لهم وعرفوا أمانته ورجاحة عقله ، فكيف ينسبونه إلى الضلال والغى؟ ونحو هذا المعنى قوله تعالى: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٦] .

جاء في (روح المعاني): «وإيراده عليه الصلاة والسلام بعنوان المصاحبة لهم للإيدان بوقوفهم على تفاصيل أحواله الشريفة وإحاطتهم خبراً ببراءته ﷺ مما نفى عنه بالكلية وباتصافه عليه الصلاة والسلام بغاية الهدى والرشاد ، فإن طول صحبتهم له عليه الصلاة والسلام ومشاهدتهم

لمحاسن شؤونه العظيمة مقتضية لذلك حتماً ، ففي ذلك تأكيد لإقامة الحجة عليهم^(١) .

وقد وردت هذه اللفظة في مواضع عدة من القرآن كلها في سياق نفي الجنون والضللال عن الرسول ﷺ ، قال تعالى : ﴿ مَا بِصَاحِبِكُمْ مِّنْ جِنَّةٍ ﴾ [سبأ: ٤٦] ، وقال : ﴿ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ﴾ [التكوير: ٢٢] ، وقال : ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ﴾ [النجم: ٢] ، وقال : ﴿ مَا بِصَاحِبِهِمْ مِّنْ جِنَّةٍ ﴾ [الأعراف: ١٨٤] .

إن علاقة القسم بالجواب ظاهرة ، فقد أقسم بالنجم إذا هوى ما ضلَّ صاحبهم وما غوى . وهوى معناه سقط وغرب . والضللال والغواية سقوط ، فناسب سقوط النجم سقوط الإنسان وهويته .
﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ﴾ .

نفي النطق عن الهوى بالفعل المضارع للدلالة على استمرار النطق بالحق ونفي النطق عن الهوى .

لقد نفي الضلال والغَيِّ بالفعل الماضي ، ونفي النطق عن الهوى بالمضارع ، فدل ذلك على نفي الضلال والغَيِّ والصدور عن الهوى في الماضي والحال والاستقبال ، وإن ذلك النفي كائن على جهة الاستمرار . إن النفي في الآيتين يدل فيما يدل على نفي هذه الأمور عملاً وقولاً . فالضللال والغَيِّ قد يكونان في السلوك والقول .

قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [الكهف: ١٠٤] فهذا ضلال في السعي .

وقال : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَلُهُمْ ﴾ [محمد: ١] ، وقال :

(١) روح المعاني ٢٧/ ٥٠ .

﴿وَالَّذِينَ قُلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالُهُمْ﴾ [محمد: ٤].

وقال: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا﴾ [الإسراء: ٤٨] وهذا ضلال في القول.

وأما قوله: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ فإنه نص في الدلالة على نفي النطق عن الهوى ، فاستغرقت هاتان الآيتان نفي ما ينبغي نفيه قولاً وعملاً.

وقال: ﴿عَنِ الْهَوَىٰ﴾ ولم يقل: (بالهوى) مع أن الأصل أن يعدى النطق بالباء ، قال تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ﴾ [المؤمنون: ٦٢] ، وقال: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ﴾ [الجاثية: ٢٩] ذلك لأن معنى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ أن نطقه ليس صادراً عن الهوى ، فنفي أن يكون نطقه صادراً عن الهوى ، فبرأ الدافع الذي دفعه إلى النطق ؛ وذلك لأن الإنسان قد ينطق بكلمة حق ولكن ليس للحق ذاته وإنما لغرض آخر ، فقد يكون لمنفعة يجرها إليه أو لغرض آخر ، كما قيل في نحو ذلك (كلمة حق أريد بها باطل) فيكون النطق بكلمة الحق ليس للحق ذاته. فبرأه ﷺ من ذلك وأثبت تزكية نفسه التي تطلب الحق وتدعو إليه. ولو قال: (وما ينطق بالهوى) لكان ذكر النطق ولم يذكر الدافع إليه ولا الغرض من هذا النطق.

جاء في (روح المعاني) في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾:

«والنطق مضمن معنى الصدور فلذا عدي بعن في قوله تعالى: ﴿عَنِ الْهَوَىٰ﴾ ، وقيل: هي بمعنى الباء ، وليس بذاك ، أي: ما يصدر نطقه فيما أتاكم به من جهته عز وجل كالقرآن أو من القرآن عن هوى نفسه ورأيه أصلاً. فإن المراد استمرار النفي»^(١).

إن هذه الآية تناسب القسم في بداية السورة ، وتناسب ما قبلها من

(١) روح المعاني ٧٢/٢٧.

الجواب ، فإن الهوى الذي يستميل الإنسان فيترك لأجله الحق إنما هو هويّ وسقوط ، وهو ضلال وغيّ ، فناسب ذلك ما قبله وارتبط به أحسن ارتباط .

لقد ذكر هذه الأمور المنفية مرتبة من العام إلى الخاص ، فقدم الضلال على الغيّ ، وقدم الغيّ على النطق بالهوى . فإن الضلال عام في الإنسان وغيره من الحيوان والجماد ، وهو عام في السلوك والقول والاعتقاد ، فهو أعم من الغيّ .

ثم ذكر بعده الغيّ ، وهو خاص بالإنسان ، وهو أعم من النطق . فإن الغيّ يكون سلوكاً واعتقاداً وعملاً .

وأخر النطق وهو أخص .

فرتب هذه الأمور من العام إلى الخاص .

﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ .

الضمير (هو) يعود على ما ينطق به ، أي ليس الذي ينطق به إلا وحياً يوحى إليه^(١) . وقد نفى ذلك بـ (إِنْ) التي هي أقوى من (مَا)^(٢) ؛ ذلك لأن هذا الأمر ، أي مسألة الوحي ، هي أصل الخلاف بين الرسول والكفار ، فإن الكفار لا يعتقدون أنه يوحى إليه ، فكذلك أكد النفي والإثبات بأن وإلا .

وجاء بالحصص لأنه أقوى من المؤكدات الأخرى ، فإنه نفى كل شيء عن نطقه إلا الوحي .

وقد تقول : لماذا جاء بهذه الآية بعد قوله : ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾ ؟

(١) ينظر روح المعاني ٢٧/٤٥ ، تفسير أبي السعود ٨/١٥٥ .

(٢) انظر معاني النحو ١/٣٢٢ ، ٤/٢٣٥ .

أليس قوله: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ مغنياً عن هذه الآية؟.

والجواب: كلا؛ ذلك أن الإنسان قد يقول الشيء غير صادر عن هوى، ولكن ليس بالضرورة أن ما يقوله حق وصواب. فقد يكون الإنسان مخلصاً ولكنه مخطئ في علاجه وتحليله وقوله، فليس المخلص بالضرورة مصيباً، فقد يكون المخلص مصيباً أو مخطئاً. لقد برأ الدافع بقوله: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ ولكنه لم يبرئ النطق نفسه من الغلط. فذكر أن نطقه وحي يوحى إليه. فجمع في هاتين الآيتين الإخلاص والصواب، وهما مناط القبول عند الله.

﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾.

ذو مرة: أي ذو حصافة وحكمة وإحكام.

إن ارتباط هذه الآية بالتي قبلها أجل ارتباط؛ ذلك أنه ذكر في الآية السابقة أن نطقه عن وحي. والوحي قد يكون إلهاماً كما في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص: ٧]، وقوله: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَىٰ النَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨].

وقد يكون الوحي من شياطين الإنس والجن، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَدِّدُوا لَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٢١]، وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غَرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

فبين أن الوحي إليه ليس كذلك، وإنما هو تعليم ممن هذه صفته، وليس أمراً تخيلاً أو إلهاماً ألهمه أو ظناً ظنه أو شيطاناً أوحاه إليه. مما يدل على أن قوله حق صادر عن حق. فذو العقل والحكمة والحصافة لا يعلم إلا الحكمة والإحكام.

وبذلك يكون قد زكّي الدافع الذي دفعه إلى القول وبرّاه من الهوى بقوله: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾.

وبراً قوله من الغلط ومجانبة الحق ؛ ذلك لأن هذا ليس قولاً من عنده أو اجتهداً اجتهد به مما يحتمل الخطأ والصواب ، وإنما هو وحي أوحاه إليه رب العالمين وعلمه إياه ذو مرة .

ثم نلاحظ أنه ذكر صفة الذي علمه بقوله : ﴿ شَدِيدُ الْقُوَى ﴾ ذُو مِرَّةٍ ﴿ ولم يذكر اسمه ، وأنه قال في الرسول : ﴿ صَاحِبُكُمْ ﴾ ولم يذكر اسمه . وهو تناظر طريف .

ثم إنه قال : (علمه) ولم يقل : (أعلمه) ؛ للدلالة على مداومة التعليم واستمراره ؛ لأن (علم) يقتضي التكثير والمداومة . بخلاف (أعلم) ، فإن (أعلم) قد يكون لوقت قصير ولمسألة واحدة ، كأن تقول : (أعلمته الخبر) . أما ما يقتضي الاستمرار والتكثير فإنه يقال له : (علم) ، نقول : علمته الحساب باباً باباً ، وعلمته النحو مسألة مسألة ، ولا تقول : أعلمته ؛ لأن ذلك يقتضي الاستمرار في التعليم .

لقد ذكر صفتين لجبريل وهما ﴿ شَدِيدُ الْقُوَى ﴾ و ﴿ ذُو مِرَّةٍ ﴾ ، وهذان الوصفان لهما دلالتهما في هذا المقام من ناحيتين :

١ - الناحية الأولى : أن فيهما إشارة إلى أن العروج إلى فوق والصعود إلى أقطار السماوات يحتاج إلى أمرين :

القوة ، بل القوى الشديدة ، وقد أشار إلى ذلك بقوله : ﴿ شَدِيدُ الْقُوَى ﴾ .

والأمر الآخر : العقل والإحكام والحصافة ، أو بتعبير آخر (العلم المحكم) ، وأشار إلى ذلك بقوله : ﴿ ذُو مِرَّةٍ ﴾ .

٢ - والناحية الأخرى أن هذين الوصفين يدلان على تمكن الموصوف من حفظ الرسول في عروجه ونزوله من القوى الطبيعية والشريرة وغيرها .

وحفظ الوحي الذي يتنزل به من الشياطين التي قد تسترق السمع أو غيرهم .

والحفظ وكل حفظ يحتاج إلى القوة والعلم .
فناسب اختيار هذين الوصفين لمقام أجل مناسبة وأعلاها .
﴿ فَاسْتَوَى ۖ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى ۚ ﴾ .

استوى : اعتدل واستقام ، أي تهيأ للمهمة التي أوكلت إليه وهو بالأفق الأعلى .

وهذا ثناء على جبريل وتكريم للرسول ، فإنه استعد للأمر قبل أن ينزل وهو بالأفق الأعلى ، وليس بالأفق فقط ولا الأفق العالي وإنما بالأفق الأعلى ، للدلالة على عظم المهمة التي أوكلت إليه .

وهو تكريم للرسول ؛ لأنه استعد لملاقاته وهو بالأفق الأعلى .
والاستعداد لأي أمر يرتبط به أمران :

الأول : قيمة الأمر الذي استعد له وأهميته .

والأمر الآخر : الشخص الذي يذهب إليه لتنفيذ المهمة .

فإن كان الأمر يسيراً أو كان الشخص الذي تذهب إليه ليس ذا مكانة رفيعة فإن الاستعداد يكون من أقرب مكان إليه ، بل قد تستعد إليه عند المدخل الذي تدخل إليه منه وليس قبل ذلك .

وإن كان الأمر عظيماً أو كان الشخص سلطاناً أو نحو ذلك فإنك قد تستعد إليه قبل أيام وأنت في بيتك . وقد ذكر ربنا أنه استوى وهو بالأفق الأعلى للدلالة على عظم المهمة وعلى كرامة الشخص الذي ينوي الذهاب إليه ، ويدل أيضاً على حسن تقدير من أوكلت إليه المهمة فاستوى وهو بالأفق الأعلى ، فدل ذلك على عظم المهمة وتكريم

الرسول والثناء على جبريل لتقدير الأمر كما ينبغي .

قد تقول: لقد ذكر الأفق الأعلى هنا ، وقد ذكر الأفق المبين في موطن آخر فقال: ﴿ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ۖ وَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ ۚ ﴾ (٢٢) وَمَا هُوَ عَلَىٰ أَفْئَبٍ بِضَنِينٍ ۚ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ۚ ﴾ [التكوير: ٢٢ - ٢٥] .

فما سبب ذلك؟

والجواب أن المقام يختلف في آية النجم هذه عن آية التكوير .

فإن المقام في النجم في العروج إلى الأعلى ، فناسب ذكر الأفق الأعلى .

والمقام في آية التكوير في تبين ما يوحى إليه وإبلاغه للناس فقال: ﴿ وَمَا هُوَ عَلَىٰ أَفْئَبٍ بِضَنِينٍ ۚ ﴾ أي ما هو ببخيل ، وإنما هو يبين كل ما يوحى إليه لا يكتف منه شيئاً .

فناسب ذكر الأفق المبين قوله: ﴿ وَمَا هُوَ عَلَىٰ أَفْئَبٍ بِضَنِينٍ ۚ ﴾ ، والمبين كما هو معلوم من الإبانة .
﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ۚ ﴾ .

الدنو هو القرب سواء كان من الأسفل إلى أعلى ، أو من أعلى إلى أسفل ، أو من مكانين مستويين .

وأما التدلي فهو من أعلى إلى أسفل . أي إن جبريل اقترب من الرسول وتدلى إليه . وهذا تكريم بعد تكريم ، فالدنو منه تكريم ، والتدلي إليه تكريم آخر . فإنك إذا كنت راكباً مثلاً ورأيت شخصاً قريباً منك فسلمت عليه كان ذلك تكريماً ، وإن نزلت إليه فحييته كان ذلك أدل على تكريمه وهو تكريم آخر . فهو لم يكتف بالقرب منه وإنما تدلى إليه .

﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۚ ﴾ .

هذا بيان لشدة القرب منه ، ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ قيل : ما هو بين مقبض القوس وطرفيها ، أو ما بين وتر القوس ومقبضها ، وقيل : مقدار قوسين أو أقرب من ذلك . وأيًا كان ذلك فإنه يدل على أنه قرب منه قريباً شديداً .

ولم يكتف بقوله : ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ وإنما قال : ﴿أَوْ أَدْنَى﴾ للدلالة على شدة قربه منه . و(أو) هذه قيل : إنها للشك بالنسبة إلى الرائي ، على معنى أنه إذا رأى الرائي قال : هو قاب قوسين أو أدنى^(١) .

وتحتمل أن تكون (أو) بمعنى (بل) فيكون المعنى : بل هو أقرب من ذلك .

والقوس هي القوس التي يرمى بها .

واختيار هذا التعبير لبيان شدة القرب اختيار له دلالة في هذا المقام ، فإن العرب تعبر عن مكان القرب بتعابير مختلفة نحو قولهم : (هو مني معقد الإزار) أو (مقعد القابلة) أو نحو ذلك ، ولكن هذا الاختيار له دلالة هنا كما ذكرت ، فإن القوس ينبغي أن تكون شديدة قوة ، والوتر كذلك ينبغي أن يكون قوياً شديداً . قال الشاعر :

والقوس فيها وتر عُرْدٌ مثل ذراع البكر أو أشد
ومعنى العُرْدُ : قوي صلب شديد .

كما أن الرامي ينبغي أن يكون قوياً . وهذا كله متناسب مع قوله : ﴿شَدِيدُ الْقُوَى﴾ .

كما أن الرمي ينبغي أن يكون شديداً محكماً ، وهذا من معاني المِرَّة . ومن القوس ينطلق السهم لإصابة الهدف . وهذه الصورة تناسب انطلاقهما إلى ما شاء الله .

(١) انظر روح المعاني ٢٧/٤٨ ، تفسير الطبري ٢٧/٤٥ .

فكان في هذا التعبير الدلالة على الشدة والقوة والسداد والإحكام للانطلاق ، وهذه العناصر ينبغي أن تكون في كل عروج إلى هدف .
وكل ذلك يتناسب هو ووصف جبريل بقوله : ﴿ شَدِيدُ الْقُوَى ﴾ ٥ ذُو مِرَّةٍ ٦ .

فهو أنسب اختيار في هذا المقام .

﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ۖ ﴾ .

اختار صفة العبودية ، وهو أنسب اختيار كما ذكرنا في آية الإسراء ، وأضافه إلى نفسه تكريماً ، والضمير يعود على الله تعالى . وهو نظير قوله : ﴿ سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ ۖ ﴾ ، وكلما كان الفرد أكثر عبودية لله كان أعلى منزلة وأقرب إليه .

وقد أبهم (ما أوحى) للتعظيم «وتفخيماً لشأن المنزل وأنه شيء يجلّ عن الوصف» (١) . وهذا الإبهام وعدم ذكر ما أوحى إليه يتناسب هو وإبهام جبريل وإبهام ذكر الرسول ، فلم يذكر اسم جبريل ولا اسم الرسول ، كما لم يذكر ماذا أوحى .
﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۖ ﴾ .

لفظ (الفؤاد) من التفؤد وهو التوقد . وسمي القلب فؤاداً لتفؤده وتوقده ، وهو مأخوذ من مادة (فأد) التي معناها شوى . وفأد اللحم وافتأده : شواه ، والمفتأد موضع الوقود (٢) .

والمكان الذي عرج به إليه يدعو إلى التفؤد والتوقد للاطلاع على شيء لم يعهد بمثله . وهو كما نقول : (تحرّق شوقاً إلى لقائه) فهي إشارة

(١) روح المعاني ٤٩/٢٧ .

(٢) انظر لسان العرب (فأد) .

إلى مقدار لهفة الرسول وتوقّد قلبه للعروج إلى الملاء الأعلى .

ومعنى الآية أنّ فؤاده لم يكذب ما رأى بصره ، بل صدق فؤاده ما رأى بصره ؛ وذلك أن الإنسان قد يرى شيئاً أو شخصاً فيشك في ذلك ويقول : أنا لا أصدّق عيني ولا أصدّق ما أرى أهو هو؟ . أو يقول : أنا غير مطمئن إلى ما رأيت ، فأنا أرى شيئاً أو شخصاً وقلبي يقول غير ذلك ، وذلك يحصل عندما يكون الشيء غريباً أو عجيباً أو نحو ذلك .

أما ما رآه ﷺ فلم يكذب الفؤاد ما رأى بصره ولم يقل فؤاده ليس هو «ما أوهمه الفؤاد أنه رأى ، ولم يرَ ، بل صدقه الفؤاد رؤيته» (١) .

فاطمأن فؤاده إلى ما رأى بصره . وهذا غاية اليقين والاطمئنان .
﴿ أَفْتَرَوْهُ عَلَى مَا يَرَى ﴾ .

المراء : الجدل ، والمراء أيضاً من الامتراء والشك (٢) .

يقول : أتجادلونه على ما يراه ببصره؟ إن الجدل قد يكون في الأفكار والآراء ولا يكون الجدل على ما يراه . فإن الرؤية ليست موضع جدال . ولذا عدى الفعل بـ (على) فقال : ﴿ عَلَى مَا يَرَى ﴾ ، ولم يعدّه بـ (في) فلم يقل (فيما يرى) كما قال في موطن آخر ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ ﴾ [الشورى : ١٨] لأن المماراة في الشيء معناها الجدل فيما هو موضع جدال من فكر أو معتقد أو نحو ذلك ، أما الرؤية بالبصر فليست كذلك .

واختار فعل المماراة على فعل الجدل ، فلم يقل : (أفتجادلونه) ؛ لأن المماراة فيها معنيان : الشك والجدال . قال تعالى : ﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ ﴾ [الحج : ٥٥] أي في شك ، وهم شكوا في إخباره

(١) لسان العرب (كذب) .

(٢) لسان العرب (مراء) .

وجادلوه على ذلك ؛ لأن الرؤية قد تكون موضع شك ، فاستعمل الفعل بمعنييه : الجدل والشك ، وهو من لطيف الاستعمال ودقيقه .

﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٦﴾ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ﴿١٧﴾ عِنْدَ هَا جَنَّةِ الْمَأْوَىٰ ﴾ .

النزلة : المرة من النزول ، أي : رآه مرة أخرى عند نزوله . ولم يقل : (مرة أخرى) ليدل على أنه رآه مرة أخرى عند نزوله . ويدل هذا على أنه صعد إلى مكان أعلى من مكان جبريل فرآه عند النزلة .

وذكر ﴿ الْمُنْتَهَىٰ ﴾ يدل على أنه صعد إلى أعلى مكان وأرفعه في الدنيا ، فلم يبق أمامه إلا الجنة . فهي أرفع مكان في هذه الحياة ، وهي منتهى الرحلة .

﴿ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى ﴾ .

أبهم ما رآه تفخيماً وتعظيماً لما يغشى ، وهذا الإبهام للتفخيم ، نظير الإبهام في قوله تعالى : ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴾ .

﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ .

الزيف والزيفان هو الميل عن الاستقامة والذهاب يميناً أو شمالاً . والطغيان هو مجاوزة الحد والتطلع إلى ما ليس له . وطغى أيضاً جاوز قدره .

والمعنى أنه لم يلتفت يمينه ويسرة ، ولم يذهب بصره يميناً أو شمالاً ، ولم يتجاوز الحد أو يتطلع إلى ما ليس له .

وهذا النفي نظير النفي في قوله في أوائل الآيات : ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾ غير أن هذا في الأرض وذلك في السماء .

والزيف هو ضلال ، فإن من مال عن الاستقامة ضلّ ، والطغيان غي . وكرر (ما) ليدل على أنه لم يحصل واحد من هذين الأمرين . ولو لم يكرر

لاحتمل النفي عن الجمع بينهما واحتمل المعنى الأول أيضاً .
﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ .

قال : ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَتِ رَبِّهِ﴾ ولم يقل : (لقد رأى آيات ربه) ليدل على انه رأى بعضاً من آيات ربه ولم يرها كلها ، وهذا نظير قوله في آية الإسراء : ﴿لَنُرِيَهُ مِنْ ءَايَاتِنَا﴾ ، فقد ذكر في أول الرحلة أنه أسرى به ليريه من آياته ، وقال بعد تمام الرحلة : ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَتِ رَبِّهِ﴾ فأنجز ما ذكر ، وبذا تمت الرحلة بحسب المنهج الذي رسم لها .

وقال : ﴿ءَايَتِ رَبِّهِ﴾ ولم يقل : (آيات الله) أو غير ذلك من الأسماء الحسنی ، وذلك لمناسبة ذكر العبد بقوله : ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ فإن للعبد ربّاً يحفظه ويرعاه . وكلمة (الرب) تدل على الملك والهداية والرعاية ، وهذا التعبير فيه تكريم ظاهر .

ووصف الآيات بالكبرى تكريم آخر .

إن هذه الآيات يظهر فيها التكريم من أولها إلى آخرها ، فكل آية فيها تكريم للرسول ﷺ .

كما يظهر في هذه الآيات خط تعبيري واضح هو الإبهام وعدم الإفصاح عن الأمر أو الشيء تكريماً وتفخيماً أو لغير ذلك :

١ - فقد قال : ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾ ولم يذكر اسمه .

٢ - وقال : ﴿إِنَّهُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ فذكر الضمير ولم يذكر الشيء الذي يعود عليه الضمير .

٣ - وقال : ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ فذكر صفة المعني ولم يذكر اسمه .

٤ - وقال : ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ فجاء بـ (أو) ولم يقطع .

- ٥ - وقال: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ ولم يذكر ما أوحى إليه ، ولم يذكر الموحى ، وأضاف العبد إلى ضمير لم يذكر صاحبه .
- ٦ - وقال: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ ولم يذكر الذي رآه .
- ٧ - وقال: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ ولم يذكر المرئي .
- ٨ - وقال: ﴿إِذْ يَغْشَىٰ السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ ولم يذكر ماذا غشيها .
- ٩ - وقال: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ ولم يذكر ماذا رأى .
- كما أن فيها خطأ آخر وهو خط النزول أو السقوط من أعلى إلى أسفل إثباتاً أو نفياً .

فهويّ النجم سقوطه أو غروبه .

والضلال سقوط .

والغيّ سقوط .

والنطق عن الهوى سقوط .

والتدلّي نزول من أعلى إلى أسفل .

والكذب سقوط .

والممارسة على الرؤية سقوط .

والنزلة نزول .

وزيغان البصر وطغيانه سقوط .

ثم إن هذه الآيات متناسبة مع جو السورة التي هي فيها ، أو بتعبير آخر إن السورة مطبوعة بطابع هذه الآيات .

١ - فقله: ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمِيَتْهُمَا أَنْتُمْ وَعَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ

إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى ﴿٢٣﴾ يقابل قوله: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٢﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ ، فهم يعتقدون أموراً ما أنزل الله بها من سلطان ، أما هو فإنه وحي يوحى .

وهم يتبعون ما تهوى الأنفس ، أما هو فلا ينطق عن الهوى .
وقوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى﴾ هو المعنى بقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ فالذي يوحى إليه هو الهدى الذي جاءهم من ربهم .
٢ - وقوله: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا﴾ يقابل من علمه من الملائكة الذي وصفه بقوله: ﴿شَدِيدُ الْقُوَى ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ﴾ .

فكلتا الآيتين في الكلام على الملائكة .

٣ - وقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [٢٨] يقابل قوله: ﴿عَلَّمُهُ شَدِيدُ الْقُوَى ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ﴾ فهم ليس لهم علم وأما هو فمعلم من ذي مرة .

٤ - وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى﴾ [٣٠] يقابل قوله: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾ .

٥ - وقوله: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ أَلْمُنَهَى﴾ يصدقه أنه عرج بنبيه إلى سدرة المنتهى عند باب الجنة .

٦ - وقوله: ﴿وَأَنْتَ هُوَ رَبُّ الشَّعْرَى﴾ تعريض بأن الشعرى لا تصلح للعبادة ، فإن لها رباً وأنها تهوي وتغيب ، وهو مناسب لقوله: ﴿وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَىٰ﴾ والشعرى نجم كان يعبد في الجاهلية^(١) .

٧ - ناسب الإبهام في قوله: ﴿وَالْمُؤْنِفَةُ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى﴾ [٥٣] - [٥٤] الإبهام في قوله: ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ غير أن تلك نقمة في

(١) انظر تفسير الطبري ٧٧/٢٧ ، روح المعاني ٦٩/٢٧ .

الأرض ، وهذه نعمة في السماء .

٨ - قوله : ﴿ فَيَأْتِيَاءُ آلَ رَبِّكَ تَتَمَارَى ﴾ [٥٥] مناسب لقوله : ﴿ أَفَتَمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى ﴾ فإن كليهما ممارسة مع اختلاف الموضوعين واختلاف المتماريين .
وغير ذلك والله أعلم .

* * *

من سورة القمر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِنْ يَرَوْا ءَايَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴿٥﴾ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكْرٍ ﴿٦﴾ خُشْعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ [القمر: ١ - ٨].

* * *

﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ .

مناسبة أول السورة هذه لآخر السورة التي قبلها ظاهرة ، فقد افتتحت السورة بالكلام على اقتراب الساعة ، وقال في خواتيم السورة قبلها: ﴿ أَزِفَتِ الْأَافَاقُ ﴾ أي دنت القيامة .

و(أزف) بمعنى (اقترب) والساعة والأزفة يكادان يكونان بمعنى .

وتناسب توالي السورتين ظاهر أيضاً ، فالسورة التي قبلها افتتحت بالنجم إذا هوى ، وهذه السورة افتتحت بانشقاق القمر . وهويّ النجم مناسب لانشقاق القمر ، فكلاهما من الأجرام السماوية ، وهو تناسب طريف .

والهويّ والانشقاق متناسبان لما فيهما من تغير حال الجرم وذهاب نوره أو خفوته .

وقال: ﴿إِذَا هَوَىٰ﴾ ولم يقل (إذا غرب) أو (إذا أفل) كما قال في آية أخرى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦].

والهويّ والانشقاق حالتان غريبتان على الجرم ، فالتناسب ظاهر .

جاء في (روح المعاني): «ومناسبة أولها لآخر السورة التي قبلها ظاهرة ، فقد قال سبحانه: ﴿أَرَفَتِ الْآزِفَةَ﴾ وهنا: ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةَ﴾ .

وقال الجلال السيوطي: لا يخفى ما في توالي هاتين السورتين من حسن التناسق للتناسب في التسمية لما بين النجم والقمر من الملازمة» (١).

كما أن مفتتح السورة مرتبط بخاتمتها ، فقد أفتتحت السورة بقوله: ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ ، وختمت بقوله: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذَىٰ وَآمُرٌ﴾ ، وقوله: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ .

وذكر عاقبة المعرضين المكذبين بقوله: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ [القمر: ٤٧ - ٤٨].

وعاقبة المؤمنين المتقين بقوله: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صَدَقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْدَرٍ﴾ [القمر: ٥٤ - ٥٥].

ثم إن أحداث الساعة مذكورة بحسب تسلسلها وترتيبها .

فقد بدأت باقتراب الساعة ثم خروج الناس من الأجداث ثم مشهد المجرمين وهم في النار ، وختمت بمشهد المتقين وهم في الجنات في مقعد الصدق عند الملك المقتدر . فإن هذا هو المشهد الأخير ، ذلك أن

(١) روح المعاني ٢٧/ ١١٢ - ١١٣ .

مشهد النار أسبق من هذا المشهد ؛ لأن قسماً ممن يعذب في النار يخرج منها ويدخل الجنة وليس العكس ، فدخول الجنة هو المشهد الأخير وبه ختمت السورة .

وقوله : (اقتربت) يدل على شدة القرب ، و(اقترب) أبلغ في القرب من (قرب) لما في (افتعل) من المبالغة . والمعنى : «قربت جداً» ^(١) أو اشتدت قرباً ^(٢) .

﴿ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعَرِّضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ .

هذا تصوير لحالهم وبيان أنهم إن رأوا آية أعرضوا .

قد تقول : لقد قال في آية أخرى : ﴿ وَإِنْ يَرَوْا كُلاًّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا ﴾ [الأنعام: ٢٥] فذكر أنهم إن رأوا كل آية لا يؤمنوا بها على وجه العموم وليست آية فما الفرق ؟

فنقول : إن السياقين مختلفان ، فقد قال في الأنعام : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلاًّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءَهُكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ ^(٢٥) وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْعَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ [الأنعام: ٢٥-٢٦] .

فقد ذكر في آيتي الأنعام من هم أشد إعراضاً وتكذيباً وأناى عن الإيمان والتصديق ، فقد قال :

- ١ - أنه جعل على قلوبهم أكنة أن يفقهوه .
- ٢ - وفي آذانهم وقراً .
- ٣ - وذكر أنهم ينهون عنه ولا يكتفون بالتكذيب .

(١) انظر روح المعاني ٢٧/ ١١٢ .

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ٧/ ٣٣٩ .

٤ - وأنهم يناون عنه .

فناسب أن يقول عنهم : إنهم إن يروا كل آية لا يؤمنوا بها على سبيل العموم .

وقد تقول : ولماذا ختم آية الأنعام بقوله : ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ ، وختم آية القمر بقوله : ﴿وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ ؟ .

فنقول :

الفرق واضح بين السياقين .

فإن آية القمر وقعت في سياق انشقاق القمر ، فالمناسب أن يختمها بالسحر وليس بالأساطير .

في حين أن سياق آية الأنعام في الاستماع إلى القرآن ، فقد قال : ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ ، وقال : ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ وهذا يتعلق بالاستماع والفهم ، فناسب ذلك قولهم : ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ .

﴿وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ .

حذف المبتدأ ، أي : هذا سحر .

وقد تقول : لقد حذف المبتدأ ههنا وذكره في مواطن أخرى مؤكداً وغير مؤكد ، وذلك نحو قوله تعالى : ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة : ١١٠] ، وقوله : ﴿إِنَّ هَذَا لِسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [يونس : ٧٦] ، وقوله : ﴿هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [النمل : ١٣] وغير ذلك ، فما سر هذا الاختلاف ؟ .

فنقول : إن ذلك بحسب ما يقتضيه السياق ، فإن السياق قد يقتضي

الحذف إذا كان الكلام موجزاً والمعنى واضحاً ، ولا يضر الحذف في معنى الكلام وبلاغته .

وقد يقتضي السياق الذكر ، وذلك إذا كان الكلام في مقام التفصيل أو التوكيد ، أو كان الحذف يؤدي إلى الإبهام ، وما إلى ذلك مما تقتضيه البلاغة .

قال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ لِيَعْقِصَ ابْنُ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتَبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيَ إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [المائدة: ١١٠] .

ففصل في ذكر الآيات التي آتاها عيسى ابن مريم من النفخ في الطين فيكون طيراً ومن إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص وغيرها ، فافتضى ذلك الذكر والقصر ، فحكى عن الذين كفروا أنهم قالوا : ﴿ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ بخلاف ما في آية القمر التي قال فيها : ﴿ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا ﴾ فلم يذكر آية ، وإنما عقب ذلك على قوله : ﴿ وَأَنشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ .

ونحوه قوله تعالى : ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾ ﴿ ١٧ ﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿ ١٣ ﴾ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخَرُونَ ﴿ ١٤ ﴾ وَقَالُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الصافات: ١٢-١٥] .

فذكر أنهم يسخرون ، وأنهم إذا رأوا آية يستسخرون ، أي : يبالغون في السخرية ، ويدعون غيرهم ليسخر معهم ، فناسب المقام أن يقولوا : ﴿ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ ، بخلاف قوله : ﴿ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا ﴾ فإنه ذكر إعراضهم ولم يذكر السخرية ولا دعوة غيرهم ليسخر معهم ، فالفرق واضح .

وقد تقول: لقد جاء التعبير مرة مؤكداً ومرة غير مؤكد والموطن متشابه ، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ [يونس: ٧٦] .

فأكد ذلك بأن واللام .

وقال في موطن آخر: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ [الأحقاف: ٧] .

فلم يؤكد مع أن الموطن متشابه .

والحق أن الموطنين مختلفان ، فإن في سياق آية يونس من التفصيل وغير ذلك مما يستدعي التأكيد ما ليس في سياق آية الأحقاف .

فقد قال في سياق آية يونس: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرُ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا أَجِئْنَا لَتُلْفِنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَأْتُونِي بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمُ مُوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحَرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يَصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ [يونس: ٧٥ - ٨٢] .

في حين قال في الأحقاف: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ أَفْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا نُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الأحقاف: ٧ - ٨] .

والفرق واضح بين السياقين .

فقد ذكر في آيات يونس من صفات المكذبين ما لم يذكره في الأحقاف ، وفصل في ذكر السحر ما لم يذكره في الأحقاف .

فقد قال في يونس :

١ - أنهم استكبروا .

٢ - وكانوا قوماً مجرمين .

٣ - وقالوا إن هذا لسحر مبين .

٤ - رد عليهم موسى : أسحر هذا ؟

٥ - لا يفلح الساحرون .

٦ - قال فرعون ائتوني بكل ساحر عليم .

٧ - فلما جاء السحرة قال لهم موسى : ألقوا ما أنتم ملقون .

٨ - قال موسى : ما جئتم به السحر إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين .

في حين لم يزد في سياق آية الأحقاف على ما ذكرنا وهو :

١ - أنهم قالوا للحق هذا سحر مبين .

٢ - أم يقولون افتراه .

فاقتضى كل سياق ما ورد فيه من التعبير .

ووصف السحر هنا بأنه مستمر ، ومعنى مستمر «مطرد دائم يأتي به محمد على مر الزمان ، وهو ظاهر في ترادف الآيات وتتابع المعجزات»^(١) .

(١) روح المعاني ٢٧/ ١١٨ ، وانظر البحر المحيط ٣٣/ ١٠ .

وقوله: ﴿وَيَنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا﴾ بالفعل المضارع يدل على تكرار الآيات واستمرارها ؛ لأن الفعل المضارع في الشرط يفيد احتمال تكرار الحدث^(١) . وهو مناسب لقوله: ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ .

قد تقول: لقد وصف السحر في القرآن بصفات متعددة ، فقد وصف في هذه الآية بأنه سحر مستمر ، وفي مواطن أخرى بأنه سحر مبین ، وفي موطن آخر بأنه سحر مفترى ، وفي آية أخرى أنه سحر يؤثر ، وأحياناً لا يصفه بشيء ، فما سبب ذلك؟ هل هو مرتبط بفواصل الآي؟ .

فنقول: قد تكون الفاصلة تقتضي لفظاً دون آخر ، ولكن لا يكون ذلك للفاصلة وحدها ، وإنما قد يقتضي ذلك السياق .

فإن معنى (مبين) ظاهر ، ومعنى (مفترى) مكذوب ، ومعنى (يؤثر) ينقل ويروى .

أما الوصف بأنه مبین ، فلأنه وردت في السياق آيات وعلامات من أمثال قلب العصا حية أو إحياء الموتى فنسبوا ذلك إلى السحر الظاهر .

وأما أنه مفترى ، فلأن السياق في غير ذلك ، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرٍ وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ [القصص: ٣٦] .

فلما ذكروا أنهم لم يسمعوا بمقالة موسى في آبائهم الأولين اقتضى ذلك أن يكون كلامه افتراءً وكذباً فلا يناسب أن يقول: (سحر مبین) فإنه غير واضح ولا ظاهر ولكنه مفترى .

وكذلك ما جاء في سورة المدثر ، فإن الوليد نفى بادئ ذي بدء أن يكون ما جاء به محمد سحراً ولا شعراً ، وعلى هذا فلا يصح أن يقول إنه

(١) انظر معاني النحو ٩١/٤ وما بعدها .

سحر مبین ، وكيف يكون سحراً مبيناً وقد نفى ذلك عنه؟ .

فابتدع قولاً في القرآن فقال: (هو سحر يؤثر) أي ينقله عن غيره ويرويه .

وأما عدم وصفه بشيء فلائنه لم يذكر آية ، وإنما ذكر مجيء الحق على العموم .

قال تعالى : ﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَقًّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴾ [الزخرف : ٢٩ - ٣٠] .

فناسب أن يقولوا فيما جاء به (هذا سحر) من دون وصف . والله أعلم .

﴿ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ ﴾ .

قال : ﴿ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ بالفعل الماضي ليدل على أن التكذيب واتباع الهوى إنما حصل قبل رؤية الآيات ، وأن ذلك ليس معطوفاً على جواب الشرط ، وإنما هو متحقق قبل ذلك ، فجاء بالفعل الماضي للدلالة على التحقق^(١) .

لقد أطلق التكذيب ولم يقيده بأمر . فإن هذا الفعل يعدى بنفسه إلى الأشخاص فيقال : (كذبت زيداً) ، قال تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا ﴾ [القمر : ٩] ، وقال : ﴿ كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء : ١٢٣] ، و ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء : ١٦٠] ، وقال : ﴿ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّنْ قَبْلِكَ ﴾ [آل عمران : ١٨٤] ، وقال : ﴿ فَكَذَّبُوا رَسُولِي ﴾ [سبا : ٤٥] .

ويعدى بالباء إلى ما يكذب به من العقائد والأفكار والأقوال فيقال : (كذب بآيات الله) و(كذب بالدين) و(كذب بالنار) قال تعالى : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ

(١) روح المعاني ٢٧/٧٨ .

مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ﴿[الأنعام: ١٥٧] ، وقال: ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [الطور: ١٤] ، وقال: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾ [الماعون: ١].

وهنا أطلق التكذيب فلم يقل: (كذبوا الرسول) ولا (كذبوا بالآيات) ولا نحو ذلك للدلالة على إطلاق التكذيب ، فإنهم كذبوا الرسول وكذبوا بالآيات التي جاء بها .

وهذا الإطلاق في التكذيب نظير الإطلاق في الآية السابقة ، وهو قوله: ﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعَرِّضُوا﴾ فلم يقل: (يعرضوا عنها) وإنما أطلق الإعراض ليعم الإعراض عن الآيات وعمما سوى ذلك مما جاء به الرسول ، فهم أعرضوا عن الرسول وعمما جاء به .

ثم إنهم لم يكتفوا بالتكذيب وإنما اتبعوا أهواءهم علاوة على ذلك . وقال: (اتبعوا) ولم يقل (تبعوا) للدلالة على المبالغة في اتباع الهوى .

فهم بالغوا في الإعراض ، وبالغوا في التكذيب بإطلاقهما ، وبالغوا في اتباع الهوى .

جاء في (روح المعاني): «وكذبوا النبي ﷺ وبما أظهره الله تعالى على يده من الآيات ، واتبعوا أهواءهم التي زينها الشيطان لهم . . . وصيغة الماضي للدلالة على التحقق»^(١) .

إن هذا التكذيب الصادر من قوم الرسول ﷺ نظير تكذيب الأمم السابقة بالآيات والرسول . وذكره هنا مناسب لما ذكره من تكذيب الأمم السابقة في السورة من أمثال قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم ، فقد قال

(١) روح المعاني ٢٧/٧٨ .

تعالى: ﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾ [٩].

وقال: ﴿كَذَبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَدَايَ وَنَذِيرِ﴾ [١٨].

وقال: ﴿كَذَبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾ [٢٣] ، و﴿كَذَبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ﴾ [٣٣].

وقال: ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٍ مُّقْنَدٍ﴾ [٤١-٤٢].

فذكر التكذيب هنا مناسب لما ذكره من تكذيب الأمم السابقة في السورة.

﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ﴾.

«أي وكل أمر من الأمور منته إلى غاية يستقر عليها لا محالة» ^(١).

فأمره ﷺ وأمرهم وكل من الأمور سيستقر ويثبت على حالة من الحالات ويتبين أمره من صدق أو كذب ، ونصر أو خذلان ، وحق أو باطل ، ونحو ذلك . فإنه لا يبقى أمر من الأمور على حاله من عدم الاستقرار والتبين ، بل لا بد أن يثبت ويتبين . جاء في (الكشاف): «﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ﴾ ، أي كل أمر لا بد أن يصير إلى غاية يستقر عليها ، وإن أمر محمد سيصير إلى غاية يتبين عندها أنه حق أو باطل وسيظهر لهم عاقبته . أو وكل أمر من أمرهم وأمره مستقر ، أي : سيثبت ويستقر على حالة خذلان أو نصرة في الدنيا ، وشقاوة أو سعادة في الآخرة» ^(٢).

وهذا التذييل للآية أنسب شيء ، فإن الآيات التي يرونها سيتبين أمرها فهي حقيقة أم سحر . وإن عاقبة إعراضهم ستبين أهي إلى سعادة أم إلى شقاء ، أو أكانت حقاً أم باطلاً .

(١) روح المعاني ٢٧/١١٩ ، وانظر الكشاف ٤/٣٦ .

(٢) الكشاف ٤/٣٦ .

وإن عاقبة تكذيبهم ستبين أكانوا محقين في تكذيبهم أم مبطلين ، وإن أمره فيما دعا إليه أهو حق أم باطل .

وستبين عاقبة اتباع الأهواء وماذا سيجرّ عليهم ذاك .

وكل أمر من أمور الدنيا والآخرة منتهٍ إلى غاية ومستقر على حالة . وهذا إنصاف للجميع .

وقد استقر أمره وأمرهم فيما بعد وانتهى ذلك إلى تبين صدقه ﷺ ونصره وإلى خذلانهم وتبين باطلهم .

﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴾ .

أي جاءهم ما فيه منع عما هم فيه من القبائح .

والمزدجر أبلغ من الزجر ؛ لأنه من (افتعل) وهو أبلغ من (فعل) .

وازدجر يكون متعدياً بمعنى زجر ، قال تعالى : ﴿ كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴾ [٩] .

ويكون لازماً بمعنى انزجر وارتدع .

والمعنى أنه جاءهم من الأنباء ما فيه منع عظيم .

والأنباء هي أنباء الأمم السابقة وما حل بهم من العذاب والوعيد وأنباء الآخرة وما فيها من أهوال للمكذبين وسعادة للمؤمنين . وكل ذلك فيه زجر عظيم .

و(المزدجر) قد يكون مصدراً ، أي ما فيه ازدجار وهو المنع .

وقد يكون اسم مكان ، أي : موضع ازدجار لهم ، أو اسم زمان ، أي : وقت ازدجار .

ولما بالغ في الزجر أكد مجيء ذلك بـ (لقد) التي هي جواب قسم مقدر .

وجاء بـ (ما) الدالة على العموم ، وهي تحتمل الاسم الموصول وتحتمل النكرة الموصوفة بمعنى (شيء) ، أي جاء شيء فيه ازدجارهم^(١) .

ولم يجعل الازدجار خاصاً بهم ، فلم يقل : (ما فيه مزدجر لهم) وإنما جعل ذلك عامّاً لكل من وصلت إليه الأنباء فقال : ﴿ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴾ .

وهذا الإطلاق نظير الإطلاق في الإعراض والإطلاق في التكذيب .

جاء في (روح المعاني) : « ما فيه مزدجر : ما فيه ازدجار لهم ومنع عما هم فيه من القبائح ، أو موضع ازدجار ومنع وهي أنباء التعذيب ، أو أنباء الوعيد »^(٢) .

ثم لنلاحظ بناء هذه الآية واختيار ألفاظها :

فقد بدأ بقوله : (لقد) وهما أي اللام وقد يفيدان التوكيد ، وعند النحاة أن هذا التعبير إنما هو جواب لقسم مقدر وذلك لأهمية الأمر .

وقال : (جاءهم) ولم يقل : (أتاهم) لأن المجيء إنما لما هو أثقل وأعسر من الإتيان كما أوضحنا ذلك في كتابنا (لمسات بيانية)^(٣) .

وقال : ﴿ مِّنَ الْأَنْبَاءِ ﴾ ولم يقل : (من الأخبار) ؛ لأن النبأ أهم من الخبر وأعظم .

جاء في (المفردات) للراغب : « النبأ : خبر ذو فائدة عظيمة يحصل به علم أو غلبة ظن ، ولا يقال للخبر في الأصل نبأ حتى يتضمن هذه الأشياء الثلاثة »^(٤) .

(١) انظر تفسير الفخر الرازي ٣٣/٢٩ .

(٢) روح المعاني ١٢٠/٢٧ .

(٣) انظر (لمسات بيانية) ١١٤ وما بعدها .

(٤) المفردات في غريب القرآن (نبأ) .

ولذلك يستعمل القرآن (النبأ) لما هو أعظم من الخبر ، قال تعالى :
﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ ﴾ [النبا: ١ - ٢] ، وقال : ﴿ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾
أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴾ [ص: ٦٧ - ٦٨] ، وقال : ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾
[آل عمران: ٤٤] .

أما الخبر فقد استعمله لما هو دون ذلك ، ولم يستعمل الخبر بالإفراد
إلا في قصة موسى في قوله : ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَاءَتِ كُفْرُهَا
يَخْبَرُ ﴾ [النمل: ٧] ، وقوله : ﴿ قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ
مِنْهَا بِخَبَرٍ ﴾ [القصر: ٢٩] ولم يستعمل لأخبار الماضين من الرسل
وغيرهم إلا (الأنباء) ولم يستعمل للرسالات إلا الأنباء والنبأ .
ويستعمل الأخبار لما هو دون ذلك .

قد تقول : ولكن الله قال : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ
وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾ [محمد: ٣١] فقال : ﴿ وَنَبْلُوا أَخْبَارَكُمْ ﴾ ولم يقل (أنباءكم)
فدل على عظم الأخبار أيضاً .

فنقول : الأمر على عكس ما توهمت ، فإنه إذا بلا الأخبار كان من
الباب الأولى أن يبلو الأنباء ؛ لأن الأنباء أعظم وأكبر ، فإذا بلا القليل فلا
شك أنه سيلو الأعظم . ولو قال : (ونبلو أنباءكم) لما دل على أنه يبلو ما
هو أقل وهو الأخبار .

ولكن الله سبحانه لا يترك شيئاً حتى يبلوه ويختبره مهما كان صغيراً ،
قال تعالى : ﴿ وَإِنْ كَانَتْ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ﴾ [الأنبياء: ٤٧] ،
وقال : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ [٧] وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ
شَرًّا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة: ٧ - ٨] .

وقد تقول : لقد قال الله في سورة الزلزلة : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾
وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُخْبِتُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بَانَ

رَبِّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿[الزلزلة: ١ - ٥].

فقال: ﴿تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ ولم يقل: (تحدّث أنباءها) فدلّ على عظم الأخبار.

فنقول: إن ما ذكره ههنا من أحداث الساعة إنما هو من الأخبار بالنسبة إلى ما ذكره من الأحداث الأخرى.

فقد ذكر ربنا في مواطن أخرى من القرآن من أحداث الساعة ما هو أعظم من زلزلة الأرض ، فقد ذكر انفطار السماء وانشقاقها وأنها تصير كالمهل ، وتكوير الشمس وانتثار الكواكب وتفجير البحار وتسجيرها ، وحمل الأرض والجبال ودكّهما دكّة واحدة ، ونسف الجبال حتى تكون هباء منبثاً ، وبعثرة ما في القبور وخروج الموتى منها سراعاً ، وغير ذلك من الأحداث مما هو أعظم من الزلزلة وأشدّ هولاً. ثم إن الزلزلة مشهد متكرر في الأرض معروف وإن كانت هذه الزلزلة أعظم منها جميعاً وإنها لا تشابهها زلزلة. غير أن انفطار السماء وانشقاقها وانتثار الكواكب وتكوير الشمس وغير ذلك من أحداث الساعة وأحوالها غير معروف ولا مشاهد.

فما ذكره في سورة الزلزلة إنما هو من الأخبار بالنسبة إلى ما سيحدث مما يجعل الولدان شيباً.

فقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ تخويف عظيم وإشارة إلى هول ما سيحدث. فإذا كان هذا هو الخبر فكيف النبأ؟!.

وقد تقول: ولكنه قال فيها: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿[الزلزلة: ٧ - ٨]. وهذا أمر عظيم وهو يدل على عظم الخبر.

فنقول: هو والله كما تقول ، ولكنه سبحانه قال إنه يرى مثقال الذرة

ولم يقل: (يجزي به) أو (يحاسب عليه) فرؤية العمل لا تقتضي أنه سيجازي به ، بل إنه سيراه وقد يغفره له ربه ويستره عليه .

فذكر ما هو أيسر ولم يذكر ما هو أعظم كالحساب على ما فعله والجزاء عليه .

فإنما هذا الذي ذكره هو الخبر ، فبربك كيف النبأ؟ .

نسأل الله سبحانه أن يقينا شر ذلك اليوم ، إنه أكرم مأمول وأعظم مسؤول ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، والله أعلم .

وقال: (ما فيه) ولم يقل: (الذي فيه) ؛ لأن (ما) أعم من (الذي) ؛ ذلك أنها تكون للمذكر والمؤنث ، المفرد والمثنى والجمع .

ومن ناحية أخرى أن (ما) تحتل أن تكون اسماً موصولاً ، وأن تكون نكرة موصوفة بمعنى (شيء) ، فهي أعم من (الذي) على أية حال .

وقدم ﴿مِّنَ الْأَنْبَاءِ﴾ على الفاعل ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ لأهمية الأنباء ، ولمناسبة ما سيذكره من الأنباء في السورة .

وتظهر أهمية التقديم بأدنى تأمل ، فإن القصد أن يبين ما فيه زجر من الأنباء .

والزجر إنما يؤتي ثمره ويؤثر في السامعين إذا كان من ارتكب الذنب قد عوقب عقاباً شديداً واستؤصل وعُرف ذلك ، فإن ذلك يكون أدعى للزجر .

فإن الزجر قد يكون عن طريق النصح والإرشاد والتوجيه والإخبار بمآل ذلك عقلاً ، وهذا قد لا يؤثر في السامع ولا يردعه ، بخلاف ما إذا علم أن الحاكم - مثلاً - قد عاقب من فعل مثل ذلك عقوبة رادعة واستأصله استئصالاً وجعله مثلة ونكالاً ، فإن ذلك سيردع من يريد

الإقدام على مثل ذلك الفعل .

وهذا الأمر إنما يظهر ويعرف عن طريق ما تنوّل من الأنباء والأخبار . وبخاصة إذا كثرت الأنباء عن مثل ذلك ، فإنه إذا شاع في البلد أن الحاكم يستأصل من فعل هذا الفعل أو نحوه استئصالاً بلا رحمة فإن ذلك سيكون أكبر زاجر .

ولذلك قدم (الأنباء) وما جاءهم منها . بخلاف ما إذا قيل : (ولقد جاءهم ما فيه مزدجر من الأنباء) فإن قوله : (ما فيه مزدجر) قد يكون من باب النصح والتوجيه وليس من باب العقوبات . فلما قال : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ ﴾ أي أنباء من كان قبلهم أو فعل فعلهم كان التقديم ولا شك هنا أهم ؛ لأنه قدم ما هو أدعى إلى الزجر والمنع .

وجاء بـ (مزدجر) ولم يقل : (زجر) ؛ وذلك للمبالغة ولتسع المعنى فيحتمل عدة معان : المصدر واسم المكان والزمان . وأطلق المزدجر ولم يقل : (لهم) ليشمل عموم من تصل إليه الأنباء .

فانظر سموّ هذا التعبير وما فيه من القوة والمبالغة في :

(لقد) و(جاء) و(الأنباء) و(ما) و(مزدجر) والإطلاق والتقديم .

ولقد ذكر من عواقب الأمم السابقة ما فيه مزدجر عظيم ، فذكر عاقبة قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وغير تلك من الأقوام .

وذكر من أنباء الساعة والجزاء ما فيه مزدجر عظيم .

فكان هذه الآية إجمال لما بيته السورة من الأنباء ومواطن الزجر .

﴿ حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴾ .



بالغة «أي واصله غاية الإحكام لا خلل فيها»^(١) وواصله إلى المقصود^(٢) ، فهي تبلغ المدى الذي ينبغي أن تصل إليه ، وليس فيها ما يمنع أو يحجز أو يضعف وصولها إلى مداها الأبعد .

و(حكمة) قيل : هي بدل من (ما) أو من (مزدجر) . وجاء بالبدل ليعطي المعنيين : ما فيه المزدجر والحكمة البالغة . إذ لعل ما فيه المزدجر ليس فيه من الحكمة شيء ، أو أن فيه من الحكمة ما ليس كافياً أو ليس بالغاً مبلغه الذي ينبغي أن يصل إليه . فجمع المعنيين : الحكمة والمزدجر . إذ ربما ينفرد أحدهما عن الآخر ، فربما تكون الحكمة وليس معها الزجر ، وقد يكون الزجر وليس معه الحكمة ، فجمعهما ليفيد المعنيين ، وهو أحسن جمع .

وقيل : هي خبر مبتدأ محذوف ، أي : هي حكمة ، أو هذه^(٣) .

والقول الأول فيما يبدو لي أولى ، فإنه على إعرابها خبراً يكون المعنى أن ما فيه مزدجر هو حكمة بالغة ، في حين أن معنى البدلية يجمع المعنيين كما ذكرت وهو أولى .

﴿فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ .

يحتمل أن يكون نفياً للإغناء ، كما يحتمل أن يكون استفهاماً إنكارياً^(٤) .

أي مع كل ما مر من الأنباء والحكمة البالغة لا تغني النذر ، وماذا

و(النُّذْر) جمع نذير ، ومن معانيه الشخص الذي يأتي بالإنذار ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾ [الأعراف: ١٨٨] ، وقوله : ﴿ وَمَا أَدْرَى مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَنِيعَ إِلَّا مَا يُوْحِي إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ [الأحقاف: ٩] .

والنُّذْر بهذا المعنى هم المنذرون ، أي الرسل ، ويحتمله قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ خَلَّتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ﴾ [الأحقاف: ٢١] ، وقوله : ﴿ هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَى ﴾ [النجم: ٥٦] .

والنذير : الإنذار ، قال تعالى : ﴿ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٌ ﴾ [الملك: ١٧] . أي إنذاري^(١) .

والنُّذْر قد تطلق على الأمور التي ينذر بها أيضاً^(٢) ، وذلك نحو قوله تعالى : ﴿ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذْرِي ﴾ [القمر: ٣٧] ، وقوله : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴾ [القمر: ٢٣] .

فجمعت كلمة (النذر) عدة معان في آن واحد ، والمعنى : فما يغني المنذرون ، وما تغني الإنذارات ، وما تغني الأمور التي ينذر بها؟ ولو قال : (المنذرون) لكان لها معنى واحد .

ولقد بيّنت السورة كيف أن النذر ما أغنت فيما مضى على كثرتها من نحو قوله : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴾ و﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴾ وغير ذلك مما ذكرنا .

وهذه السورة هي أكثر سورة في القرآن تردد فيها جمع النذير بهذه الصورة ، أي (النذر) ، فقد ورد فيها هذا الجمع إحدى عشرة مرة ، ولم يرد في أية سورة من سور القرآن نحو هذا العدد ولا نصفه ، بل لم يرد هذا

(١) انظر لسان العرب (نذر) .

(٢) انظر نظم الدرر ٣٤٦/٧ .

الجمع أكثر من مرة في آية سورة أخرى ورد فيها هذا الجمع .
﴿ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ ﴾ .

أي : فأعرض عنهم .

والفاء تفيد السبب ، فإنه لما كانت النذر لا تغني معهم ولا ينفع معهم شيء من الآيات فأعرض عنهم .

غير أنه قال : ﴿ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ ﴾ ولم يقل : (فأعرض عنهم) والتولي أشد من الإعراض ، فالتولي قد يكون إعراضاً وابتعاداً عن الشيء . فإن التولي معناه الإدبار والنأي عن الشيء ، وتولي عنه : أعرض وأدبر ، والتولي : الانصراف^(١) .

فهو أشد من الإعراض ، ولذا لم يرد الأمر بالتولي إلا مع الكافرين .
قال تعالى : ﴿ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ ۖ وَأَبْصَرَهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ۚ أَفَعِدَّائِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ [الصافات : ١٧٤ - ١٧٦] ، وقال : ﴿ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ ﴾ [الذاريات : ٥٤] .

أما الإعراض فقد يكون عامّاً مع الكافرين وغيرهم ، قال تعالى : ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : ١٠٦] .

وقال : ﴿ وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ فَأَذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا ﴾ [النساء : ١٦] .

وقال في إيتاء ذي القربى والمساكين وابن السبيل : ﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ أَبْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا ﴾ [الإسراء : ٢٨] .

وحتى لو لم يكن مع التولي إدبار فهو أشد من الإعراض ، إذ قد يكون التولي بترك الإصغاء^(٢) كما قال تعالى معاتباً نبيه : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ۖ أَن يَنْصَرِفَ ۚ فَاصْبِرْ أَوْ يَتَّبِعَكَ الْجِنَّ ۖ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِرَبِّكَ لَكَاذِبٌ عَظِيمٌ ﴾ [الشعراء : ٢١-٢٤] .

(١) انظر لسان العرب (ولي) ، مفردات الراغب (ولي) .

(٢) مفردات الراغب (ولي) .

جَاءَهُ الْأَعْنَى ﴿عَبَسَ: ١ - ٢﴾.

* * *

﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكْرٍ﴾ ٦ خُشْعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَانَتْهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ﴿٦﴾.

أي يخرجون من الأجداث يوم يدع الداعي إلى الشيء النكر .
ف (اليوم) ظرف مقدم على عامله ، وأصل التعبير: يخرجون من
الأجداث يوم يدعو الداعي .
وقدم اليوم للاهتمام به وتعظيمه وتهويله ، فإن ذلك اليوم مهول
عظيم .

و(النُّكْر) هو الفطيع البالغ النكارة ، الذي لم يعهد مثله ، وهو أبلغ
من (نُكْر) بسكون الكاف ، كما مر بيان ذلك في باب الفاصلة القرآنية .
وتقديم الظرف والمجيء بكلمة (شيء) - وهي أعم كلمة - وتنكيرها
ووصفها بنكر مما يدل على هول ذلك اليوم وعظمته .
﴿خُشْعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَانَتْهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾ ٧ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ
الْكُفْرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٧﴾.

خُشْعًا أَبْصَرَهُمْ ، أي : ذليلة منكسرة .

كَانَهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ : شبههم بالجراد المنتشر لكثرتهم وتموجهم ^(١) .

﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ أي : مسرعين خائفين مادي أعناقهم ينظرون في
ذلّ وخشوع . جاء في (لسان العرب) : «أهطع : أقبل على الشيء ببصره

(١) تفسير الرازي ٣٥/٢٩ ، الكشف ٣٧/٤ ، البحر المحيط ٣٧/١٠ ، روح المعاني ١٢٣/٢٧ .

فلم يرفعه عنه . وفي التنزيل : ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ . وقيل : المهطع : الذي ينظر في ذلّ وخشوع . . .

وهطع وأهطع : أقبل مسرعاً خائفاً ، لا يكون إلا مع خوف . وقيل : نظر بخضوع . . . وقيل مدّ عنقه وصوّب رأسه .
والإهطاع : الإسراع في العدو^(١) .

وقد يكون الإهطاع إسراعاً من دون خوف ، وذلك نحو قوله تعالى : ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قَبْلَكَ مُهْطِعِينَ﴾ [المعارج : ٣٦] .

أما ههنا فالإهطاع يجمع الإسراع والخوف ، ويدل على ذلك خشوع الأبصار ، وقوله : ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ .

ومن الملاحظ أنه جاء بالحال السببية (خُشَعاً) جمع تكسير ، في حين جاءت مفردة في موطنين آخرين ، فقد قال في سورتي القلم والمعارج : ﴿خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهَقَهُمْ ذَلَّةٌ﴾ بإفراد الحال .

وقدم الحال على عاملها (يخرجون) في سورة القمر هذه ، في حين أخرها عن العامل في سورتي القلم والمعارج .

فقد قال في سورة القلم : ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ﴿٤٢﴾ خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهَقَهُمْ ذَلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَلِيمُونَ ﴿[القلم : ٤٢ - ٤٣] .

وقال في سورة المعارج : ﴿يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَانَتْهُمْ إِلَى نُصْبٍ يُوفُضُونَ﴾ ﴿٤٣﴾ خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهَقَهُمْ ذَلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿[المعارج : ٤٣ - ٤٤] .

فكان الاختلاف في الحال في سورة القمر من ناحيتين :

(١) لسان العرب (هطع) .

١ - جمع الحال السببية ، وهي في الموطنين الآخرين مفردة .

٢ - تقديم الحال على عاملها ، وهي في الموطنين الآخرين مؤخرة .

وسبب الاختلاف بينه السياق ، فإن الموقف في سورة القمر أشد وأعظم هولاً ، ولذا جاء بالحال جمع تكسير دالاً على المبالغة والتكثير .

لقد جاء بالجمع على وزن (فُعَل) وهو جمع دال على التكثير ، ونظير وزنه في المفرد قَلْبٌ وَخُلْبٌ وَحَوْلٌ الدال على التكثير والمبالغة ، أي كثير الثقل والتحول^(١) .

كما جاء به مقدماً على عامله ، والتقديم دال على الاهتمام كما هو معلوم من أغراض التقديم . وكل موطن مما ذكرناه يقتضي ما جاء فيه .

فقد قال في سورة القلم : ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ﴿٤٢﴾ خَشَعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَلِيمُونَ ﴿٤٣﴾ [القلم : ٤٢ - ٤٣] .

وقال في سورة المعارج : ﴿فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ﴾ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سَرَّاعًا كَانَتْهُمْ إِلَى نَصَبٍ يُوَفُّونَ ﴿٤٣﴾ خَشَعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾ [المعارج : ٤٢ - ٤٤] .

وقال في سورة القمر : ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعُ إِلَى شَيْءٍ نَكِيرٍ﴾ ﴿٦﴾ خَشَعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَانَتْهُمْ جَرَادٌ مُنَشِّرٌ ﴿٧﴾ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾ [القمر : ٦ - ٨] .

فقد قال في سورة القلم :

١ - إنهم يدعون إلى السجود فلا يستطيعون .

(١) انظر (معاني الأبنية في العربية) ١٤٧ - ١٤٩ .

٢ - خاشعة أبصارهم .

٣ - ترهقهم ذلة .

ولم يذكر أنهم يخرجون من الأجداث سراعاً ولا نحو ذاك .

وقال في سورة المعارج :

١ - إنهم يخرجون من الأجداث سراعاً كأنهم يسرعون إلى حجارتهم التي يعبدونها .

٢ - خاشعة أبصارهم .

٣ - ترهقهم ذلة .

وقال في سورة القمر :

١ - يوم يدعُ الداع إلى شيء نكُر ، أي شديد النكارة مما لم يعرفوه أو يألفوه من قبل ، بخلاف ما قال في سورة المعارج ، فإنه قال : ﴿ كَانَتْهُمْ إِلَى نُصْبٍ يُؤْفَضُونَ ﴾ والإسراع إلى النصب مما ألفتوه وعرفوه وليس أمراً منكوراً عندهم ولا مجهولاً ، بخلاف هذا الموقف . وظاهر أن هذا أشد .

٢ - خُشَّعاً أبصارهم .

٣ - يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر في الكثرة والتموج والانتشار^(١) .

وهذا ظاهر في الدلالة على الكثرة ، بخلاف قوله : ﴿ كَانَتْهُمْ إِلَى نُصْبٍ يُؤْفَضُونَ ﴾ فإن الجراد المنتشر أكثر من كفار قريش الذين يوفضون إلى النصب ، فناسبت الكثرة الجمع ، والقلة الأفراد من جهة أخرى .

(١) انظر الكشف ٣٧/٤ ، تفسير الرازي ٣٥/٢٩ ، روح المعاني ١٢٣/٢٧ ، البحر المحيط ٣٧/١٠ .

٤ - مهطعين إلى الداع ، أي مسرعين خائفين مادّي أعناقهم إليه^(١) .

٥ - وأن الكافرين يقولون : ﴿ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ .

ولم يذكر أنهم قالوا شيئاً في الموطنين السابقين .

فناسب المجيء بالحال على صيغة الجمع هذه في القمر دون الموطنين الآخرين ، كما ناسب تقديم الحال على عاملها ههنا كما هو ظاهر . والله أعلم .

* * *

(١) انظر نظم الدرر ٧/٣٤٨ ، روح المعاني ٢٧/١٢٣ .

سورة الجن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى
الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَمْ نُشْرِكْ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُ تَعَلَّى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صُحْبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾
وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ
كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا
ظَنَنَّا أَن لَّنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مِثْلَ شَتَّىٰ حِرْسٍ شَدِيدًا
وَشُهْبًا ﴿٨﴾ وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنهَا مَقْعَدُ الشَّمْسِ لَلنَّاسِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾
وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدُ يَمَنُ فِي الْأَرْضِ أَمِ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا
دُونُ ذَلِكَ كُنَّا طَارِقِينَ قَدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نَعِجَزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا ﴿١٢﴾
وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْمُهْدَىٰءَ آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَا مِنَّا
الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا
لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَوْ اسْتَقْلَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَّاءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لَنَقْفِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ
يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾
وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ
أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَن يُخْرِجَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَن أَجِدَ
مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ
خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضَعَفَ نَاصِرًا وَأَقَلُّ
عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِن أَدْرَىٰ أَقْرَبُ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لِمُ رَبِّي أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ

فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِيَعْلَمَ أَن قَدِ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿[الجن: ١ - ٢٨].

من الملاحظ في هذه السورة أن الأمور فيها لم تُبَيَّنْ على الشيء ومقابله ، وإنما يذكر الأمر ويقابل بما يتضمنه أو يتضمن جزءاً منه .
وهذا الأمر جارٍ في السورة كلها ، وهو الخط الظاهر فيها ، من ذلك قوله تعالى :

١ - ﴿ وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدُ يَمَنُ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ .

فإنه لم يقابل الشر بالخير ، وإنما قابله بالرشد .

والذي يقابل الشر هو الخير ، أما الرشد فمما يتضمنه الخير وهو جزء منه .

وقد قابل الشر بالخير في مواطن كثيرة من القرآن الكريم ، قال تعالى :
﴿ وَبَلَّوْكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ [الأنبياء: ٣٥] ، وقال : ﴿ لَا يَسْتَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَكْثُرْ قَنُوطٌ ﴾ [فصلت: ٤٩] ، وقال : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿[الزلزلة: ٧ - ٨] ، وقال : ﴿ وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ﴾ [الإسراء: ١١] .

وغير ذلك .

٢ - وقال : ﴿ وَأَنَا مِمَّا الصَّالِحُونَ وَمِمَّا دُونَ ذَلِكَ ﴾ .

وقوله : ﴿ دُونَ ذَلِكَ ﴾ لا يقابل الصالحين ، وإنما يقابل الصلاح الفساد ، والمصلح يقابله المفسد .

وأما قوله : ﴿ وَمِمَّا دُونَ ذَلِكَ ﴾ فقد يتضمن من هم دونهم في الصلاح

إلى أن يصل إلى الفساد والكفر. وقد قابل الله الإصلاح بالافساد ،
والمصلح بالمفسد.

قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ﴾ [البقرة: ٢٢٠].

وقال : ﴿ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ [الشعراء: ١٥٢].

وقال : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾
[البقرة: ١١].

وقال : ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾ [الأعراف: ٥٦].

وغير ذلك .

٣- وقال : ﴿ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَمِنَ الْقَاسِطِينَ ﴾ .

والمسلم يقابله الكافر ولا يقابله القاسط ، والقاسط معناه الجائر
والظالم ، والظالم قد يكون مسلماً وقد يكون كافراً. قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ
قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ ﴾ [التوبة: ٧٤].

وقال : ﴿ زُبَيْرًا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾ [الحجر: ٢].

وقال : ﴿ أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٨٠].

فقابل الإسلام بالكفر في هذه الآيات .

٤- وقال : ﴿ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴾ ﴿١٤﴾ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ
حَطَبًا ﴾ .

ولم يقل بمقابل من تحرى الرشد : إن القاسطين تحرّوا الغي والضلال .

٥- وقال : ﴿ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴾ .

ولم يقل : (لا أملك لكم ضرراً ولا نفعاً) . وما يقابل الضرر هو النفع .
وقد قابل الضرر بالنفع في مواطن عديدة من القرآن الكريم ، قال تعالى :

﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ [الأعراف: ١٨٨ ، يونس: ٤٩] ،
وقال: ﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ
نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴾ [الرعد: ١٦] ، وقال: ﴿ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾
[الفرقان: ٣] .

وغير ذلك .

وهذا هو الموطن الوحيد الذي قابل فيه الضر بالرشد .

٦ - وقال: ﴿ قُلْ إِنْ أَدْرَيْتُ أَقْرَبُ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لِرَبِّي أَمَدًا ﴾ .

ولم يقل: (أقرب أم بعيد) كما قال في آية أخرى: ﴿ وَإِنْ أَدْرَيْتُ أَقْرَبُ
أَمْ بَعِيدُ مَا تُوعَدُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٩] .

والأمد هو الغاية ، والغاية قد تكون قريبة أو بعيدة .

وهذا خط ظاهر في هذه السورة .

ارتباط السورة بما قبلها:

أما وجه ارتباط هذه السورة بما قبلها ، وهي سورة نوح ، فإنه عز
وجل «قال في سورة نوح: ﴿ أَسْتَغْفِرُكُمْ إِنَّكُمْ كَأَنْتُمْ غَفَّارًا ﴾ ﴿١٥﴾ يُرْسِلُ السَّمَاءَ
عَلَيْكُمْ مَدَرًا ﴾ وقال عز وجل في هذه السورة لكفار مكة: ﴿ وَالْوَلَوِ اسْتَغْنَمُوا
عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا ﴾ وهذا وجه بين في الارتباط» (١) .

ومن وجوه العلائق بين هذه السورة والسورة التي قبلها:

١ - أنه قال في السورة التي قبلها: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ
قَوْمَكَ ﴾ فذكر أن نوحاً أرسل إلى قومه خاصة وأنه طلب منه أن ينذرهم .

وفي هذه السورة ذكر أن رسالة محمد لم تقتصر على قومه ولا على

الإنس ، بل شملت الجن أيضاً .

٢ - وأن قوم نوح تمسكوا بالشرك وبأوثانهم ودعوا إلى عدم ترك أصنامهم فقالوا: ﴿لَا نَذَرْنَ إِلَهَتَكُمْ وَلَا نَذَرْنَ وَدًّا وَلَا سَوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ .

وإن الجن هؤلاء تركوا الشرك وعزموا على عدم العودة إليه فقالوا: ﴿وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ .

٣ - وقال في هذه السورة: ﴿وَالْوِاسْطَقُمُ عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً عَذَقًا﴾ .

وقال في السورة التي قبلها: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ كما جاء في (روح المعاني).

ثم إنه ورد في السورة التي قبلها أثر الماء المدمر أيضاً فقال: ﴿مِمَّا خَطِيئَتُهُمْ أُغْرِقُوا﴾ فأغرقهم الماء .

٤ - وأنه قال في هذه السورة: ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ . وقد ذكر في السورة التي قبلها أن قوم نوح لما أعرضوا عاقبهم في الدنيا بالغرق في الماء ، وفي الآخرة بالنار ، فقال: ﴿مِمَّا خَطِيئَتُهُمْ أُغْرِقُوا فَأَدْخَلُونَا نَارًا﴾ .

والتهديد في سورة الجن ليس خاصاً بالآخرة ، وإنما قد يطالهم العذاب في الدنيا والآخرة إذا ما أعرضوا ، كما فعل مع قوم نوح .

٥ - جرى ذكر السماء في سورة نوح ، وذكر من أجرامها الشمس والقمر فقال: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ .

وذكر السماء في سورة الجن وذكر من أجرامها الشهب فقال: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِثَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾ .

٦ - وجرى ذكر الناصر في السورتين عند العذاب ، فقال في سورة نوح : ﴿ مِمَّا خَطِيئَتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ﴾ .
وقال في سورة الجن : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴾ .

٧ - وقال في سورة نوح على لسان نوح : ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يَضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ [نوح : ٢٦ - ٢٧] .

وقال في هذه السورة : ﴿ وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدَ يَمَنَ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ .
وغير ذلك .

* * *

﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴾ (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴾ .
﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ ﴾ .

أمره أن يعلن هذا الأمر ، وذلك لما فيه من تثبيت له ولأصحابه وتقريع لقومه ، ذلك أن الجن سمعوا القرآن فآمَنوا به وعرفوا إعجازه ، وأن قومه لم يؤمنوا به مع أنهم يعلمون صدق الرسول وأمانته ، ويعلمون من إعجاز القرآن ووجوه ما لا يعلمه غيرهم ؛ إذ هم أهل الفصاحة واللسان .

جاء في (التفسير الكبير) للرازي : «اعلم أن قوله تعالى : (قل) أمر منه تعالى لرسوله أن يظهر لأصحابه ما أوحى الله في واقعة الجن . وفيه فوائد :
إحداها : أن يعرفوا بذلك أنه عليه السلام كما بُعِثَ إِلَى الْإِنْسِ فَقَدْ بُعِثَ إِلَى الْجِنِّ .

وثانيها: أن يعلم قریش أن الجن مع تمردهم لما سمعوا القرآن عرفوا إعجازه فأمنوا بالرسول.

وثالثها: أن يعلم القوم أن الجن مكلفون كالإنس.

ورابعها: أن يعلم أن الجن يستمعون كلامنا ويفهمون لغاتنا.

وخامسها: أن يظهر أن المؤمن منهم يدعو غيره من قبيلته إلى الإيمان.

وفي كل هذه الوجوه مصالح كثيرة إذا عرفها الناس»^(١).

وجاء في (روح المعاني) أن «السورة الكريمة من مفتحتها مسوقة للتعريض بحال مشركي مكة وتسلية لرسول الله ﷺ وتسرية عنه عليه الصلاة والسلام وتعبير لهم بقصور نظرهم عن الجن مع ادعائهم الفطنة وقلة إنصافهم ومبادتهم بالكذب والاستهزاء بدل مبادهة الجن بالتصديق والاستهداء»^(٢).

﴿أَنَّهُ أَسْمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾.

الهاء ضمير الشأن وهو يفيد التفخيم والتعظيم ، وهنا يفيد التفخيم والتعظيم للقرآن ، وإن هذا التفخيم والتعظيم يتناسب مع وصفه بالعجب.

وقال: ﴿أَسْمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ ولم يقل: (استمع إليك) ، ذلك لأنه ليس المقصود هو شخصه ، ولكن المقصود هو القرآن.

وحيث عدى الاستماع إليه جرى ذكره هو في سياق الآية.

(١) التفسير الكبير ١٠/٦٦٥.

(٢) روح المعاني ٢٩/٩٥.

قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾
[الأنعام: ٢٥] ، ثم قال في الآية نفسها: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُخَدِّلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥] .

فذكره بقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُخَدِّلُونَكَ﴾ .

وقال: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا﴾ [محمد: ١٦] .

وقال: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصَّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾
[يونس: ٤٢] .

وقال: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ
إِنْ تَنصَرِّعُونَ إِلَّا لَارْجَاءَ مَسْحُورًا﴾ [الإسراء: ٤٧] .

فحيث قال: ﴿يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ أو ﴿يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ جرى ذكر لشخصه في السياق .

ولما لم يجر ذكر للرسول في هذا السياق لم يعد الاستماع إليه .

قد تقول: وهو أيضاً لم يذكر أنهم استمعوا القرآن ، فهو لم يقل: (قل أوحى إلي أنه استمع نفر من الجن القرآن) كما ذكر في سورة الأحقاف مثلاً ، فقد ذكر فيها أن الجن استمعوا القرآن . قال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَنْقُومَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَنْقُومَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ مِّنْ عَذَابِ آلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَنْ لَا يُجِيبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأحقاف: ٢٩ - ٣٢] .

فنقول: إنه ذكر في الأحقاف عن القرآن وفصل فيه ما لم يذكره في سورة الجن .

ذلك أنه لم يقل في سورة الجن في القرآن إلا قوله: ﴿فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ ١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ ﴿[الجن: ١ - ٢].

وأما في الأحقاف فقد ذكر عن القرآن وصفاته ما لم يذكر في سورة الجن ، فقد قال :

١ - وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن .

٢ - فلما حضروه قالوا أنصتوا ، أي : حضروا قراءة القرآن وطلبوا الإنصات لسماعه ، والهاء تعود على القرآن .

٣ - فلما قضي ولّوا إلى قومهم منذرين ، أي قضيت قراءته .

٤ - قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى .

٥ - مصداً لما بين يديه .

٦ - يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم .

فناسب ذكر استماع القرآن في الأحقاف .

﴿فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ .

وصفوا القرآن بالمصدر فقالوا إنه (عجب) ولم يقولوا (عجيب) ، وذلك للمبالغة في العجب من حسن نظمه وتراكيبه وما فيه .

والوصف بالمصدر يدل على المبالغة ، فكأنه هو عجب في نفسه .

جاء في (الكشاف): «(عجباً) بديعاً مبيناً لسائر الكتب في حسن نظمه وصحة معانيه . . . و(عجب) مصدر يوضع موضع العجيب ، وفيه مبالغة وهو ما خرج عن حد أشكاله ونظائره» ^(١) .

وجاء في (البحر المحيط): «عجباً وصفاً بالمصدر على سبيل

المبالغة ، أي : هو عجب في نفسه لفصاحة كلامه» ^(١) .
﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾ .

الرشد: «الصلاح ، وهو خلاف الغي والضلال ، وهو إصابة الصواب» ^(٢) .

والرُّشد بالضم «الاستقامة على طريق الحق مع تصلب فيه» ^(٣) .

و(يهدي إلى الرشد) قيل معناه: «يدعو إلى الصواب ، وقيل: إلى التوحيد والإيمان» ^(٤) .

وفرق بعضهم بين الرُّشد بالضم ، والرَّشَد بالتحريك فقالوا: «الرُّشد بالضم يكون في الأمور الدنيوية والأخروية ، وبالتحريك يكون في الأخروية خاصة» ^(٥) . والراشد والرَّشيد يقال فيهما جميعاً ^(٦) .

وقيل إن: «هذا لا يوافق السماع ، فإنهم استعملوا اللغتين ، ووردت القراءات بالوجهين في آيات متعددة» ^(٧) .

وقد ورد (الرُّشد) بالضم في أمور الدنيا والآخرة ، قال تعالى:
﴿وَابْتَلُوا الَّذِينَ آمَنُوا حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾
[النساء: ٦] .

وهذا رشد في أمور الدنيا .

(١) البحر المحيط ٣٤٧/٨ ، وانظر روح المعاني ٨٣/٢٩ .

(٢) المصباح المنير (رشد) .

(٣) تاج العروس (رشد) .

(٤) البحر المحيط ٣٤٧/٨ ، روح المعاني ٨٣/٢٩ .

(٥) تاج العروس (رشد) ، وانظر المفردات في غريب القرآن للراغب (رشد) .

(٦) المفردات للراغب (رشد) .

(٧) تاج العروس (رشد) .

ومما ورد في أمور الدين قوله تعالى على لسان موسى للعبد الصالح : ﴿ هَلْ أَتَبِعَكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَ مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا ﴾ [الكهف: ٦٦] ، وقال تعالى : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ [البقرة: ٢٥٦] .

وقال : ﴿ وَإِنْ يَرَوْا كَلَّاءِيَّةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾ [الأعراف: ١٤٦] .

أما الرُّشْد بالتحريك فالكثير أنه يستعمل في أمور الدين ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا إِنَّا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رُشْدًا ﴾ [الكهف: ١٠] ، وقوله : ﴿ وَقُلْ عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنَّ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رُشْدًا ﴾ [الكهف: ٢٤] .

ولا أراه استعمل في القرآن إلا في أمور الدين .

قد تقول : لقد قال ههنا : ﴿ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ ﴾ .

وقال في سورة الأحقاف على لسان الجن : ﴿ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقِ مُسْتَقِيمٍ ﴾ وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَنْقُومَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقِ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [الأحقاف: ٢٩ - ٣٠] .

فما الفرق ؟ .

فنقول : الحق أعم من الرشد ، فهو نقيض الباطل ، وأما الرشد فنقيض الغي ، ويوصف بالحق أحياناً ما لا يوصف بالرشد ، ويخبر عنه بما لا يخبر عن الرشد ، ولذا لا يصح وضع إحدى الكلمتين مكان الأخرى دائماً ، فمن ذلك على سبيل المثال قوله تعالى : ﴿ فَإِنِ انْتَسَبْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا ﴾ لا يصح أن يقال مكانه : (فإن أنتم منهم حقاً) .

ونحو ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُّمُ أَهْلِ النَّارِ ﴾ [ص: ٦٤] فلا

يصح أن يقال : (إن ذلك لرشد تخاصم أهل النار).

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ [البقرة: ٦١].

وقوله : ﴿ وَلِيُمْلِكَ الَّذِينَ عَلَيْهِمُ الْحَقُّ ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

وقوله : ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ﴾ [آل عمران: ٦٢].

وقوله : ﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ ﴾ [آل عمران: ٨٦].

وقوله : ﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ ﴾ [المائدة: ٢٧].

وقوله : ﴿ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَصِّلِينَ ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وقوله : ﴿ ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ ﴾ [الأنعام: ٦٢].

وقوله : ﴿ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ ﴾ [يونس: ٣٢].

وقوله : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتُمْ لَنَا فِي بَنَاتِكِ مِنْ حَقِّ ﴾ [هود: ٧٩].

وقوله : ﴿ وَأَقْرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ ﴾ [الأنبياء: ٩٧].

وغير ذلك وغيره.

والفرق الآخر بين الحق والرشد أن الرشد لا يقال إلا في العاقل ، ولا يستعمل مع غيره . وأما الحق فهو عام يستعمل مع العاقل وغيره فيقال : (الوزن الحق) و(القتل بالحق) و(هذا المال حق لك) و(هذا حقك من المال) و(المشهد الحق) ونحو ذلك .

ويقال : (الجنة حق والنار حق) و(الله هو الحق) و(الإله الحق) ونحوه ، وإذن فالحق أعم من الرشد من ناحية ، ومن ناحية أخرى أن الرشد خاص بأولي العلم وبالمكلفين خاصة .

فالرشد قسم من الحق وليس الحق كله . فكل رشد حق وليس كل حق رشدًا .

أما سبب الاختلاف بين ما في آية سورة الجن وما في الأحقاف من حديث الجن فإن ما في الأحقاف أعم مما في آية الجن . وما ذكره الجن في الأحقاف أوسع وأشمل ، فناسب ذكر الحق الذي هو أوسع من الرشد ، ذلك أنه لم يقل في سورة الجن بخصوص القرآن إلا قوله : ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۝ ﴾ [الجن : ١ - ٢] ثم انصرف الحديث بعد ذلك إلى أقسام الجن ومعتقداتهم ، وأنهم كانوا يقعدون في السماء مقاعد للسمع فمنعوا من ذلك .

وأما في سورة الأحقاف فقد اتسع الحديث عن القرآن وتأثيره فيهم .

فقد ذكر في سورة الجن أنهم سمعوا القرآن وآمنوا به .

وأما في الأحقاف فإنهم لم يكتفوا بالإيمان ، وإنما ذهبوا إلى قومهم ينذرونهم ويدعونهم إلى الإيمان ، فقد قال : ﴿ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ۝ ﴾ .

وذكروا لقومهم أنهم سمعوا كتاباً أنزل من بعد موسى ، وأنه مصدق لما قبله من الكتب ، وأنه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم .

وطلبوا منهم إجابة داعي الله والإيمان به ، وأنهم إن فعلوا ذلك يغفر الله لهم من ذنوبهم ويُجرهم من عذاب أليم .

وأن من لا يُجب داعي الله فلن يعجز الله . وما إلى ذلك .

فالكلام - كما ترى - متسع ، فناسب ذكر ما هو أوسع وأعم - وهو (الحق) - في الأحقاف ، وذكر جانب منه في سورة الجن .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أن كلمة (الحق) وردت في الأحقاف (٦) ست مرات ، ولم ترد في سورة الجن .

وردت كلمتا (الرُّشْد) و(الرَّشْد) في سورة الجن (٤) أربع مرات ، ولم ترد في الأحقاف .

فناسب ذكر (الحق) في الأحقاف و(الرشد) في سورة الجن من هذه الناحية .

ثم إنه لم يكتف بذكر الهداية إلى الحق في سورة الأحقاف ، بل ذكر مع الحق الطريق المستقيم فقال : ﴿ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ ذلك أنه قال في الآية التاسعة من سورة الأحقاف : ﴿ قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ ﴾ أي إن هذه الدعوة إنما هي طريق مسلوكة سلكها الأنبياء والرسل قبله .

والطريق هو السبيل الذي تطرقه الأرجل .

وقال : ﴿ وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ الْنُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ﴾ [الأحقاف : ٢١] فذكر أن النذر خلت من بين يديه ومن خلفه ، مما يدل على أن هذه سبيل مطروقة .

فناسب ذكر الطريق إضافة إلى الحق في الأحقاف .

﴿ فَآمَنَّا بِهِ ﴾ .

جاء بالفاء للدلالة على سرعة الاستجابة والإيمان ، فإنهم سمعوا فآمَنوا من دون تراخ .

﴿ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴾ .

وهذا يدل على أنهم كانوا مشركين فأصبحوا موحدين ، وأنهم عزموا على عدم العودة إلى الشرك في المستقبل .

﴿ وَأَنْتُمْ تَعْلَوْنَ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴾ .

﴿ جَدُّ رَبِّنَا ﴾ : «عظمته ، من قولك : جدّ فلان في عيني ، أي : عظم . . .

أو ملكه أو سلطانه أو غناه ، استعاره من الجد الذي هو الدولة والبخت ؛

لأن الملوك والأغنياء هم المجدودون»^(١).

وقيل: قدره وأمره^(٢). وقيل: جلاله^(٣).

والمعنى: تعالى قدره وسلطانه على اتخاذ صاحبة والولد.
«والمعنى: وصفه بالتعالي عن صاحبة والولد لعظمته ، أو سلطانه وملكوته ، أو لغناه»^(٤).

والهاء في (أنه) للشأن ، ويؤتى به في مواطن التفخيم ، فجاء بضمير الشأن وبـ (الجد) للدلالة على عظمة ربنا وجلاله في التعالي عن اتخاذ صاحبة والولد.

﴿ مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴾.

هو رد على من قال ذاك ، وهذا يدل على أن قسماً من الجن كانوا يقولون ذاك ، بدليل قوله: ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴾.

ومما يقوي ذلك أيضاً النفي بـ (ما) ؛ لأن النفي بـ (ما) في نحو هذا رد على من قال ذلك^(٥). فهو لم يقل: (لم يتخذ صاحبة ولا ولداً) ؛ لأن هذا التعبير قد يدل على أنه من باب الإخبار أو التعليم ، ولا يدل بالضرورة على أن هناك من قال بذاك فردّ عليه. قال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَلَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ مَقْدَرًا ۝٢ ﴾ [الفرقان: ١ - ٢].

فنفي بـ (لم) ؛ لأنه في سياق التعليم والتنزيه والتعظيم ، وليس في

(١) الكشاف ٢٧٤/٣.

(٢) البحر المحيط ٣٤٧/٨.

(٣) معاني القرآن ١٩٢/٣.

(٤) الكشاف ٢٧٤/٣.

(٥) انظر (معاني النحو) ٤٥٨/١ وما بعدها.

سياق الرد على من قال بذاك .

وقال : ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكِبَرُهُ تَكْبِيرًا ﴾ [الإسراء : ١١١] وهو نظير ما مر .

في حين قال في محاجته للمشركين : ﴿ بَلْ أَتَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ ﴿٩١﴾ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿٩٢﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّى عَمَّا يَشْرِكُونَ ﴾ [المؤمنون : ٩٠ - ٩٢] .

نفى بـ (ما) ؛ لأنه في مقام الرد على المشركين .

وقال : ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُنَ أَلْسِنَتَهُمُ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكِبْرُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران : ٧٨] .

فردّ قولهم : ﴿ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ بقوله : ﴿ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ فرد قولهم بـ (ما) .

جاء في (الفروق اللغوية) لأبي هلال العسكري : «الفرق بين (ما) و(لا) : أن (لا) جواب استفهام ، كقولك : أتقول كذا؟ فيكون الجواب : لا . و(ما) جواب عن الدعوى ، تقول : قلت كذا ، فيكون الجواب : ما قلت» ^(١) .

ثم إنه ذكر (لا) بعد العطف على النفي فقال : ﴿ مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴾ ولم يقل : (ما اتخذ صاحبة وولداً) ليدل على نفي اتخاذ صاحبة والولد على سبيل الأفراد أو الجمع بينهما . ولو قال : (ما اتخذ صاحبة وولداً) لاحتمل نفي الجميع ، أي لم يتخذهما جميعاً ولكن اتخذ أحدهما ،

(١) الفروق اللغوية ٣٣٤ .

ولا حتمل أيضاً نفيهما على سبيل الإطلاق ، فكان ما قاله أولى .

وقدم صاحبة على الولد ؛ لأن الولد إنما يكون من صاحبة ، كما قال تعالى : ﴿ أَفَنُكُونُ لِمَوْلَدٍ وَلَمْ تَكُنْ لَمْ صَاحِبَةً ﴾ [الأنعام : ١٠١] .

فقدمها لأنها أسبق من الولد .

﴿ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴾ .

السفه : هو خفة العقل والجهل^(١) ، والشطط مجاوزة الحد في الظلم وغيره^(٢) . فإذا جاوز الحد في ظلم أو في غير الظلم أحد فقد أشطّ وابتعد عن الحق .

ونسبة صاحبة أو الولد إلى الله تعالى غاية الشطط ، والقول به غاية السفه وقلة العقل . جاء في (التفسير الكبير) للرازي : « السفه خفة العقل ، والشطط مجاوزة الحد في الظلم وغيره . . . »

واعلم أنه لما كان الشطط هو مجاوزة الحد ، وليس في اللفظ ما يدل على أن المراد مجاوزة الحد في جانب النفي أو في جانب الإثبات ، فحيثُ ظهر أن كلا الأمرين مذموم ، فمجاوزة الحد في النفي تفضي إلى التعطيل ، ومجاوزة الحد في الإثبات تفضي إلى التشبيه وإثبات الشريك والصاحبة والولد ، وكلا الأمرين شطط ومذموم^(٣) .

والمعنى أن هذا السفه كان يقول على الله قولاً هو الشطط بعينه .

قد تقول : فهلاً قال : (وإن سفيهننا كان يقول على الله شططاً) .

فنقول : إن ما قاله أدلّ على عظم هذا القول ونكارتة من جهتين :

(١) انظر لسان العرب (سفه) ، التفسير الكبير للرازي ١٠/٦٦٧ .

(٢) الكشف ٣/٢٧٤ ، وانظر تفسير الرازي ١٠/٦٦٧ .

(٣) التفسير الكبير ١٠/٦٦٧ .

الأولى: أنه جاء بضمير الشأن مع (أن) ، وهذا الضمير كما ذكرنا يؤتى به في مواطن التفخيم والتعظيم .

والجهة الأخرى: أن الضمير المستتر في (كان) الذي هو اسمها إنما هو ضمير الشأن أيضاً ، ويدل على ما دل عليه الضمير الأول ، فدل ذلك على أن هذا القول قول عظيم من أكثر من جهة .

قد تقول: لا يلزم هذا الإعراب ، بل يحتمل أن يكون (السفيه) هو اسم (كان) مؤخراً .

وجملة (يقول) خبر (كان) مقدم ، والأصل: (أنه كان سفيهاً يقول على الله شططاً) فلا يكون في التقدير ضمير الشأن .

فنقول: إن ذلك ضعيف أو ممنوع ؛ لأنه يفضي إلى الفصل بين العامل والمعمول بأجنبي . فإن (سفيهاً) معمول (كان) على هذا القول ، و﴿عَلَى اللَّهِ شَطَطًا﴾ معمول لـ (يقول) ، فـ (سفيهاً) أجنبي وقع بين العامل والمعمول ، وهو ضعيف أو ممنوع .

فدل على أن اسم (كان) إنما هو ضمير الشأن المستتر وليس (سفيهاً) .

فاتضح أن ما جاء في الآية أولى .

وقد تقول: فهلا قال: (أنه كان سفيهاً يقول على الله شططاً) .

فنقول: إن ما قاله أولى أيضاً ؛ ذلك لأنه سيكون في هذا القول المقترح ، أي: (إنه كان سفيهاً يقول على الله شططاً) ضمير شأن واحد وهو الذي دخلت عليه (أن) .

أما قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَاقُولُ سَفِيهاً عَلَى اللَّهِ شَطَطًا﴾ ففيه ضميران للشأن - كما ذكرنا - فهو أدل على عظم هذا القول ونكارتة .

فإن قلت : فهلاً قال : (وأنه كان على الله يقول سفيهاً شططاً) فيقدم (على الله) للقصر .

فنقول : إن ما قاله أولى أيضاً ؛ ذلك أنه لو قال ذلك لكان المعنى أنه حصر قول الشطط على الله وحده دون غيره ، فلم يقل السفيه في غيره تعالى شططاً .

وهذا لا يناسب وصفه بالسفه ؛ لأن السفيه إنما أكثر قوله سفه ، ولا ينحصر جهله وخفة عقله بشيء دون شيء ، فإن قليل العقل يقول من الشطط الكثير وفي مختلف الأمور ، فلا يناسب ههنا الحصر .

أما ما دلت عليه الآية فإن السفيه كان يقول على الله شططاً ، ولم يحصر قول الشطط عليه ، بل ربما قال على غيره شططاً أيضاً ، وهو الذي يقتضيه الوصف بالسفه .

لقد اجتمع في هذا التعبير من أوصاف السوء الكثير ، منها :

١ - أن القائل سفيه ، أي : خفيف العقل جاهل .

٢ - ثم إنه أضاف السفيه إلى ضمير المتكلمين فقال : (سفيهاً) وهذا يعني أنه شخص معروف بالسفه مشهور به ، وقيل : هو إبليس ، أو المقصود به الجنس ، وقيل : هم مردة الجن^(١) .

٣ - ضمير الشأن المتصل بـ (أن) .

٤ - ضمير الشأن المستتر في (كان) .

٥ - أن هذا السفيه كان يقول ذلك باستمرار ، ذلك أنه قال : ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا﴾ فجعل خبر (كان) فعلاً مضارعاً ، وإذا كان خبر (كان) كذلك دل على الاستمرار والاعتیاد .

(١) انظر روح المعاني ٨٥/٢٩ .

والاستمرار على هذا القول أدل على النكارة والسفه .

٦ - جاء بالمصدر فقال : ﴿ وَأَنْتُمْ كَأَنْتُمْ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴾ فجعل القول هو الشطط بعينه للمبالغة ولم يأت بالوصف .

جاء في (الكشاف) : « الشطط : مجاوزة الحد في الظلم وغيره .

ومنه : أشط في السوم ، إذا أبعد فيه ، أي : يقول قولاً هو في نفسه شطط ؛ لفرط ما أشط فيه ، وهو نسبة الصاحبة والولد إلى الله ^(١) .

وجاء في (روح المعاني) : « أي : قولاً ذا شطط ، أي بعد عن القصد ومجاوزة الحد ، أو هو في نفسه شطط لفرط بعده عن الحق ، وهو نسبة الصاحبة والولد إليه عز وجل ^(٢) .

* * *

﴿ وَأَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ .

قدم الإنس على الجن ؛ لأنهم ذكروا بآيات الجن ومعاصيهم ما لم يذكره في الإنس من مثل قوله : ﴿ وَأَنْتُمْ كَأَنْتُمْ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴾ ، وقوله : ﴿ وَأَنْتُمْ كَأَنْتُمْ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴾ ، وقوله : ﴿ وَأَنَا مِنَ الصَّالِحِينَ وَمِنَادُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَائِفًا قَدْ دَا ﴾ ، وقوله : ﴿ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ ﴾ .

فناسب تقديم الإنس .

وربما لأنهم أيضاً كانوا يحسنون الظن بالإنس أكثر من الجن ، فإن عالم الإنس غير عالمهم ، وأنهم يعلمون أن جماعتهم منهم الصالح

(١) الكشاف ٣/ ٢٧٤ - ٢٧٥ .

(٢) روح المعاني ٢٩/ ٨٥ .

ومنهم دون ذلك ، وأنهم يرون في الإنس مظنة الصدق على الله .

كما أن الإنس - فيما نظن - يرون مثل ذلك في الجن ، فإنهم يظنون أنهم لا يكذبون على الله ، وأنهم يصدّقون ما يلقونه إلى الكهنة .

فقدموا من هو أولى بقول الصدق عندهم .

ونكّر (الكذب) ليشمل كل كذب ، ولو عرّفه لكان النفي عن كذب في أمر معيّن .

وقد ذكر في الآية أبعد حالات الكذب على الله :

١ - فقد قال : ﴿ وَأَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نَقُولَ . . . ﴾ ولم يقل : (وأنا لم نظن أن نقول) أو (ما ظننا أن نقول) .

فقد أثبت ظنهم بأنهم لا يقولون على الله كذباً .

وثمة فرق بين قولك : (ما ظننت أن يفعل) و(ظننت ألا يفعل) .

فقد نفيت ظنك عن أن يفعل في قولك : (ما ظننت أن يفعل) ، وأما في الجملة الثانية فقد أثبت ظنك بأنه لا يفعل .

وهذا الإثبات أقوى وأدلّ على المراد ، وهو نظير قولك : (ما علمت أنه مسافر) ، وقولك : (علمت أنه غير مسافر) . فقد نفيت علمك في الأولى . وأما الثانية فقد أثبت علمك في الأمر .

ونظير قولك : (ما علمت أنه قادم) و(علمت أنه غير قادم) ، وقولك : (ما سمعت أنه ناجح) و(سمعت أنه ليس ناجحاً) .

٢ - وأنه نفى بـ (لن) المؤكدة .

٣ - وقال : (على الله) وهو أبعد من أن يكذب عليه ، فإن الشخص قد يكذب على بني جنسه ، ولكنه قد يتحرج من الكذب على الله .

٤ - ونكّر الكذب ليشمل كل أنواع الكذب .

٥ - وأنه وصف بالمصدر للمبالغة . والتقدير في الأصل قولاً مكذوباً فيه ^(١) . جاء في (روح المعاني) : «جوز أن يكون من الوصف بالمصدر مبالغة» ^(٢) .

* * *

﴿وَأَنْتُمْ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ .

«الرهق: غشيان المحارم ، والمعنى أن الإنس باستعاذتهم زادوهم كبراً وكفراً ، وذلك أن الرجل من العرب كان إذا أمسى في واد قفر في بعض مسائره وخاف على نفسه قال : (أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه) ، يريد الجن وكبيرهم ، فإذا سمعوا بذلك استكبروا وقالوا: سدنا الجن والإنس ، فذلك رهقهم .

أو فزاد الجن الإنس رهقاً بإغوائهم وإضلالهم لاستعاذتهم بهم» ^(٣) .

قد تقول: لِمَ لَمْ يقل: (وأنه كان يعوذ رجال من الإنس برجال من الجن) كما قال: ﴿وَأَنْتُمْ كَانَتْ يَقُولُ سَفِيهُنَا﴾ فيجعل ضمير الشأن في (كان) كما جعله في قوله: ﴿وَأَنْتُمْ كَانَتْ يَقُولُ سَفِيهُنَا﴾؟ .

فنقول: هذا الأمر ليس بمنزلة قول الشطط على الله ، فإن ذلك أدعى إلى الإنكار وأعظم ، خاصة وأن ذلك كان تعقياً على من قال: (إن الله اتخذ صاحبة وولداً) وهو شرك ، والشرك بالله أعظم الذنوب وأكبرها ، فلم يجعلهما بنفس المنزلة في النكارة والعظم .

(١) الكشف ٢٧٥/٣ .

(٢) روح المعاني ٨٥/٢٩ .

(٣) الكشف ٢٧٥/٣ ، وانظر البحر المحيط ٣٤٨/٨ ، روح المعاني ٨٥/٢٩ .

وقال: (يعودون) ولم يقل: (عاذوا) للدلالة على استمرار هذا الأمر واعتيادهم فيه.

وهو أذم لهؤلاء الرجال من الإنس ، وهو ذم لرجال الجن أشد ؛ لأنهم زادوهم ضللاً وغشيان محارم.

فهو لم يقل: (فأرهقوهم) ، وإنما قال: ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ أي زادوهم ضللاً على ضلالهم.

وجاء بالفاء للدلالة على السبب وعلى التعقيب في هذا الأمر السيء ، فإنه لم تكن مهلة بين الاستعانة وزيادة الرهق.

وجاء بالضمير ولم يصرح بالاسم الظاهر ليشمل الإنس والجن ، فلم يقل: (فزادهم الجن رهقاً) ولا (فزادهم الإنس رهقاً) بل شمل الرهق رجال الإنس والجن.

فرجال الجن ازدادوا تكبراً وعتوّاً بأن قالوا: سدنا الجن والإنس^(١).
ورجال الإنس ازدادوا ضللاً وغواية.

* * *

﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾.

هذا يحتمل أن يكون من كلام الجن ، فيكون المقصود بـ (ظنوا) جماعة الإنس ، وبـ (ظننتم) قومهم ، أي أن الإنس ظنوا كما ظننتم أنتم أنه لن يبعث الله أحداً.

ويحتمل أن يكون هذا مما أوحى الله إلى رسوله ، أي أوحى إليّ أن الجن ظنوا كما ظننتم أيها الكفار أن لن يبعث الله أحداً.

(١) انظر روح المعاني ٨٥/٢٩.

والاحتمالان صحيحان ، فكلاهما ظن ذلك .

وقوله : ﴿لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾ إنكار لليوم الآخر ، ويرجح النفي بـ (لن) هذا المعنى ، فإنه خاصة بنفي المستقبل .

وذهب بعضهم إلى أن المقصود إنكار النبوات ، فظنوا أنه سبحانه لن يبعث رسولاً ، وهذا النفي للمستقبل وليس نفيًا للماضي .

والذي يترجح عندنا المعنى الأول فيما يظهر والله أعلم .

* * *

﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا﴾ ^(١) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعَدًا لِلْسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعُ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شُهَابًا رَصَدًا ^(٢) .

أي طلبنا بلوغ السماء واستماع كلام أهلها ^(١) فوجدناها مملوءة بالحرس الشديد ، وهم الملائكة الحافظون لها ، ومملوءة بالشهب التي يرمم بها من أراد الاستماع ، فمن يستمع الآن يجد له شهاباً راصداً له يرجمه .

والرصد يحتمل أن يكون بمعنى اسم الفاعل ، أي يجد له شهاباً راصداً يرصده فيحرقه ^(٢) .

ويحتمل أن يكون بمعنى اسم المفعول ، أي شهاباً أرصد له ليرجمه ^(٣) . والمعنى أن «من يروم أن يسترق السمع اليوم يجد له شهاباً مرصداً له لا يتخطاه ولا يتعداه ، بل يمحقه ويهلكه» ^(٤) .

(١) الكشف ٣/ ٢٧٥ .

(٢) البحر المحيط ٨/ ٣٤٩ .

(٣) معاني القرآن للفراء ٣/ ١٩٣ ، وانظر التفسير الكبير للرازي ١٠/ ٦٦٩ .

(٤) تفسير ابن كثير ٤/ ٤٢٩ .

وقال: ﴿يَجِدْ لَهُ﴾ أي لأجله هو ، فعلقه بكل من يريد الاستماع ، أي يجده معداً له . ولم يقل: (يجد شهاباً رصداً) فيجعل وجود الشهاب عامّاً وليس معدّاً له على الخصوص . ومعنى الآية: أن كل من يطلب الاستماع يجد له هو شهاباً راصداً أعدّ له يرصده فيرجمه فلا ينجو منه أحد منهم .

قد تقول: لقد قال في سورة الصافات: ﴿إِنَّا زَيْنًا السَّمَاءِ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكُوْكِبِ ۖ وَحِفْظًا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ۝٧ لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَذَّفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَن خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ٦ - ١٠] .

فذكر في الصافات ﴿مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ﴾ ولم يذكر مثل ذلك في سورة الجن ، فما السبب؟ .

فنقول: إنه ذكر في سورة الجن من الحراسة ما هو أشد وأحفظ:

١ - فقد ذكر في سورة الجن أن السماء ملئت بالحرس الشديد ، فهو لم يقل: إن فيها حرساً ، ولكنه قال إنها (ملئت) بهم ، ثم وصف الحرس بأنه شديد .

ولم يذكر مثل ذلك في الصافات ، بل لم يذكر أن فيها حرساً أصلاً ، شديداً ولا غير شديد .

٢ - وذكر في سورة الجن أنها ملئت بالشهب ، ولم يذكر مثل ذلك في الصافات .

٣ - وذكر أنه أعدّ لكل من أراد الاستماع شهاب يرصده فيحرقه فلا ينجو منه أحد .

ولم يقل مثل ذلك في الصافات .

فيتعذر في مثل هذه الحراسة الشديدة والشهب الراصدة المرصدة أن

تحصل خطفة ، فلا يناسب أن يذكرها ، بخلاف ما في الصافات ، فإنه لم يذكر غير الكواكب .

قد تقول : لكنه قال في الصافات : ﴿ وَيَقْدِفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ﴾ .

فنقول : نعم إنهم يقذفون على العموم ، كما أن الجيش المهاجم يقذف من كل جانب ، لكن لا يعني ذلك بالضرورة أن كل أفراد الجيش سيصابون بالقذائف بلا استثناء ، فقد يفلت أحد من ذلك فيخطف الخطفة ، فإن حصل ذلك أتبعه شهاب ثاقب .

أما في سورة الجن فقد ذكر أن من يستمع يجد له هو على سبيل الخصوص شهاباً راصداً له .

* * *

﴿ وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدُ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ .

قالوا ذلك لما منعوا من الاستماع ، وقد بنوا مريد الشر للمجهول تأديباً من نسبته إلى الله سبحانه ، وأسندوا مريد الرشد إلى ربهم ، وهذا خط واضح في القرآن الكريم ، فإنه لا يسند السوء إلى نفسه ، بعكس الخير والتفضل والنعم^(١) .

جاء في (روح المعاني) : « ولا يخفى ما في قولهم : (أشّر أريد... إلخ) من الأدب ، حيث لم يصرحوا بنسبة الشر إلى الله عز وجل كما صرحوا به في الخير ، وإن كان فاعل الكل هو الله تعالى ، وقد جمعوا بين الأدب وحسن الاعتقاد »^(٢) .

وقد قابل الشر بالرشد ولم يقابله بالخير ، وقد ذكرنا أن هذه السورة جرى فيها مقابلة الأمر بما يتضمنه وليس بمقابله .

(١) انظر معاني النحو ٩٠ / ٢ وما بعدها .

(٢) روح المعاني ٨٨ / ٢٩ ، وانظر البحر المحيط ٣٤٩ / ٨ .

وقدم إرادة الشر على إرادة الرشد فقال: ﴿أَشْرَأُ رِيدَ يَمَنٍ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ ؛ لأنه ذكر ما يفعله أهل الأرض من الشرور من الجن والإنس ، فاستحقوا التهديد وإرادة العقوبة لهم وإنزال الشر بهم . فقد تقدم الآية قوله: ﴿وَأَنْتُمْ كَانْتُمْ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا﴾ ، وقوله: ﴿وَأَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [٥] ولكن تبين أن الإنس والجن يقولون على الله الكذب . وقال: ﴿وَأَنْتُمْ كَانْتُمْ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنْسِ يَعُودُونَ رِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ ، وقال: ﴿وَأَنْتُمْ ظَنُّوْا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾ وهذا إنكار للحشر أو للنبوات أو لكليهما .

فاستحقوا تقديم إرادة الشر بهم . ومما يقوّي هذا التقديم أنهم منعوا من السمع ، وأن من أراد الاستماع منهم رجم بشهاب يرصده . فكل ذلك أدعى إلى الظن أنه أريد بهم الشر والعقوبة ، مع احتمال إرادة الرشد بهم . فكان تقديم إرادة الشر هو المناسب .

وقال: ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ فأسند الرشد إلى الرب الذي أضيف إلى ضميرهم (ربهم) ولم يقل: (أم أراد الله بهم رشداً) لأن الرب هو المربي والقيم على الأمر والرازق والهادي . ورب الشخص يريد له نفعه وهدايته وخيره ، فإن الشخص إذا أصابه سوء فزع إلى مالك أمره والقيم عليه وربه . ورب الجماعة يريد الخير لهم .

فناسب ذكر (ربهم) مع إرادة الرشد .

ولم يرد في القرآن إسناد إرادة السوء أو الضرر إلى الرب ، بل يسند ذلك إلى الله سبحانه .

قال تعالى: ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ١٧] .

وقال: ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ﴾ [الرعد: ١١].

وقال: ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ [الأحزاب: ١٧].

وقال: ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ [الفتح: ١١].

وقال: ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَتُ ضَرِّيَّ أَوْ أَرَادَنِيَ بِرَحْمَةٍ هَلْ هِيَ مُنْسِكَتٌ رَحْمَتِي﴾ [الزمر: ٣٨].

وأما إذا ذكر الرب فلا يسند إليه إلا إرادة الخير والرشد.

قال تعالى: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ﴾ [الكهف: ٨٢].

وقال: ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾.

فأنت ترى أنه يسند احتمال إرادة العقوبات والسوء إلى الله ، كما يسند إليه إرادة الخير والرحمة .

وأما إذا ذكر الرب فلا يسند إليه إلا إرادة الخير .

ولا يعني هذا أنه لم يذكر الرب في مقام العقوبات ، ولكن أعني ذكر إسناد فعل الإرادة خصوصاً . أما في غير أفعال الإرادة فقد يذكر الرب في عموم المقامات مع التفضل والنعم والعقوبات وغيرها ، قال تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢] ، وقال: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِّنْ سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُسَوِّمَةٌ عِندَ رَبِّكَ﴾ [هود: ٨٢-٨٣] ، وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ [الفجر: ٦] وغيرها كثير .

* * *

﴿وَأَنَّا مِّنَ الصَّالِحِينَ وَمِنَادُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَائِفًا قِدَادًا﴾.

لم يذكر من هم مقابل الصالحين وهم الفاسدون ، وإنما قال : ﴿ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ ﴾ . وقوله : ﴿ دُونَ ذَلِكَ ﴾ يشمل من هم أقل صلاحاً ، ويشمل من هم دونهم من الكفار على اختلاف أحوالهم . والذي يدل على شمول أهل الكفر على اختلاف مللهم قوله : ﴿ كُنَّا طَرَائِقَ قِدْدًا ﴾ ، فقوله : ﴿ طَرَائِقَ قِدْدًا ﴾ يعني طرائق متقطعة ومذاهب مختلفة غير ملتقية ولا متصلة ، وهذا يدل على شدة الاختلاف والتباين . ولو كانوا دونهم في الصلاح مع اشتراكهم فيه لم يكونوا طرائق قديداً ، بل هم في طريقة واحدة . إذ القِدَّة : « من قد ، كالمقطعة من قطع ، ووصفت الطرائق بالقدد لدالاتها على معنى التقطع والافتراق »^(١) .

فقوله : ﴿ كُنَّا طَرَائِقَ قِدْدًا ﴾ شمل أهل الكفر إضافة إلى الصالحين .

جاء في (الكشاف) : « كنا طرائق قديداً : أي كنا ذوي مذاهب مفترقة مختلفة ، أو كنا في اختلاف أحوالنا مثل الطرائق المختلفة ، أو كنا في طرائق مختلفة »^(٢) .

* * *

﴿ وَأَنَا ظَنَنَّا أَنَّ لَنَ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنَ نُعْجِزَهُ هَرَبًا ﴾ .

والمعنى : أنا أيقننا أننا لن نعجزه على أية حال ، فإننا لا نفوته إن طلبنا سواء كنا في الأرض أم هربنا إلى السماء .

وجاء بـ (لن) الدالة على تأكيد النفي في الاستقبال ؛ ليدل على أنهم لن يعجزوه في المستقبل أيضاً ، كما هو في الحال مهما جدت من وسائل

(١) الكشاف ٢٧٦/٣ .

(٢) الكشاف ٢٧٦/٣ ، وانظر البحر المحيط ٣٥٠/٨ .

يستعين بها من يستعين للهرب واكتشف من سبل لذلك فلن يكون ما يمنعنا منه سبحانه .

جاء في (الكشاف): «أي لن نعجزه كائنين في الأرض أينما كنا فيها ، ولن نعجزه هارين منها إلى السماء .

وقيل لن نعجزه في الأرض إن أراد بنا أمراً ، ولن نعجزه هرباً إن طلبنا»^(١) .

وجاء في (روح المعاني): «كأنه قيل : لن نعجزه سبحانه في الأرض ولا في السماء . . . وحاصله إن طلبنا لم نفته ، وإن هربنا لم نخلص منه سبحانه»^(٢) .

* * *

﴿وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْمُدَّةَ أَمَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ .

البخس نقص الشيء على سبيل الظلم^(٣) ، يقال : بخسه حقه إذا نقصه ، والبخس من الظلم^(٤) . والرهق : الظلم^(٥) ، وغشيان المحارم والذلة^(٦) . ورهقه الأمر : غشيه بقهر^(٧) .

ومعنى : ﴿فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ أنه لا يخاف أن ينقص حقه ، بل يجزى الجزاء الأوفى ، كما لا يخاف أن تغشاه ذلة أو أن يظلم أو يقهر .

(١) الكشاف ٢٧٦/٣ .

(٢) روح المعاني ٨٨/٢٩ .

(٣) المفردات (بخس) .

(٤) لسان العرب (بخس) .

(٥) معاني القرآن للفراء ١٩٣/٣ ، وانظر لسان العرب (رهق) .

(٦) انظر لسان العرب (رهق) .

(٧) مفردات الراغب (رهق) .

وقيل: معناه: أنه لا يخاف جزاء بخس وظلم ، لأنه لم يبخس أحداً ولا قهر أحداً وظلمه أو أذله فلا يخاف عاقبة ذلك ؛ لأن المؤمن لا يفعل ذلك فلا يخاف أن يجزى جزاء من فعل هذا. جاء في (الكشاف): ﴿فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾: «أي جزاء بخس ولا رهق ؛ لأنه لم يبخس أحداً حقاً ولا رهق ظلم أحد فلا يخاف جزاءهما. وفيه دلالة على أن من حق من آمن بالله أن يجتنب المظالم ، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: (المؤمن من آمنه الناس على أنفسهم وأموالهم).

ويجوز أن يراد فلا يخاف أن يبخس ، بل يجزى الجزاء الأوفى ، ولا أن ترهقه ذلة من قوله عز وجل: ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾^(١).

وقال: ﴿فَلَا يَخَافُ بَخْسًا﴾ بالفاء ورفع الفعل المضارع ، ولم يقل (لا يخف بخساً) بالجزم جواباً للشرط ؛ لأن المجيء بالفاء ورفع الفعل المضارع أكد ، وهو على تقدير مبتدأ ، أي (فهو لا يخاف) فتكون الجملة اسمية ، وهي تدل على تحقيق عدم الخوف ، والجملة الاسمية أكد من الفعلية.

جاء في (الكشاف): «(فلا يخاف): فهو لا يخاف ، أي فهو غير خائف ، ولأن الكلام في تقدير مبتدأ وخبر دخلت الفاء ، ولولا ذلك لقل: لا يخف. فإن قلت: أي فائدة في رفع الفعل وتقدير مبتدأ قبله حتى يقع خبراً له ووجوب إدخال الفاء ، وكان ذلك كله مستغنى عنه بأن يقال: لا يخف؟.

قلت: الفائدة فيه أنه إذا فعل ذلك فكأنه قيل: فهو لا يخاف ، فكان

دالاً على تحقيق أن المؤمن ناج لا محالة ، وأنه هو المختص بذلك دون غيره^(١) .

وجاء في (البحر المحيط): «وكان الجواب بالفاء أجود من المجيء بالفعل مجزوماً دون الفاء ؛ لأنه إذا كان بالفاء كان على إضمار مبتدأ ، أي: فهو لا يخاف ، والجملة الاسمية أدلّ وأكد من الفعلية على تحقق مضمون الجملة»^(٢) .

قد تقول: لقد قلنا ههنا: ﴿فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ .
وقال في سورة طه: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢] .

فما الفرق؟ .

فنقول: إن البخس هو نقص الحق وهو من الظلم .

أما الظلم فهو أعم منه ، فهو يشمل البخس وغيره: كالعقوبات بغير حق ، واغتصاب أموال الناس ، والعدوان عليهم ، ومنع الحقوق ، وغير ذلك . فلو قتل أحد بغير حق كان ذلك ظلماً وليس بخساً . ولو نصح أحد حاكماً بالحسنى فهدم الحاكم عليه داره وشرده أهله كان ذلك ظلماً عظيماً وليس بخساً .

أما الهضم فهو الظلم والغصب والقهر ونقص الحق^(٣) .

وقيل: إن الهضم نقص من حسنات الشخص^(٤) .

(١) الكشف ٢٧٦/٣ .

(٢) البحر المحيط ٣٥٠/٨ .

(٣) انظر اللسان (هضم) .

(٤) انظر البحر المحيط ٢٨١/٦ .

وأما الرهق فمن معانيه: الإثم وغشيان المحارم والظلم. وقيل: الطغيان. وقيل الذلة^(١).

وقد ذكر في طه من هو أفضل ممن في سورة الجن ، فقد قال: ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ ﴾ فذكر العمل الصالح ، ولم يذكره في سورة الجن .
وقال في طه: ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ فجاء الوصف بالإيمان اسماً ، في حين قال في سورة الجن: ﴿ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ ﴾ فجاء بالإيمان فعلاً ، والاسم يدل على الثبوت ، أما الفعل فيدل على الحدوث .

فالمذكور في طه موصوف بما هو أفضل وبما هو أعم وأشمل ، فأمنه مما هو أعم وأشمل ، وهو الظلم الذي يشمل البخس وزيادة .

ثم من ناحية أخرى أن نفي الظلم مناسب لما قبله ، فقد قال في الآية التي قبلها: ﴿ وَعَنْتَ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾ فناسب ذلك نفي الظلم أيضاً .

ثم ذكر نفي الهضم له إضافة إلى نفي الظلم ، وهو مناسب لقوله: ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ ﴾ ذلك أن من معاني الهضم: النقص من الحسنات ، والذي يعمل صالحاً يبتغي بذلك الحسنات ، فأمنه من النقص من حسناته .

ولما لم يذكر العمل الصالح في آية الجن ولم يذكر الهضم ، ومن لم يعمل فمن أين تأتية الحسنات فتهضم؟ .

أما في سورة الجن فقد نفى عنه الرهق: وقد ناسب هذا ذكر الرهق قبله في السورة وذلك قوله: ﴿ وَأَنْتُمْ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ فالمؤمن بربه لا يعوذ بغيره من الجن أو الإنس ، فانتهى عنه الرهق الذي يأتيه من هذه الجهة .

(١) انظر اللسان (رهق) ، روح المعاني ٨٩/٢٩ .

وانظر كيف قال: ﴿فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ﴾ ولم يقل: (فمن يؤمن بالله) ،
فاختيار الرب وإضافته إليهم اختيار لطيف ، فإن الشخص إذا خاف أمراً
فزع إلى ربه ومالك أمره فيعود به ويلتجئ إليه .

وأما إذا كان الرهق بمعنى الذلة فإن ذلك منفي عن المؤمن في الدنيا
والآخرة ، فقد قال: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]
فأثبت للمؤمن العزة .

وانتفى عنه كل رهق يأتيه عن غير طريق الإيمان والحمد لله .
فناسب كل تعبير موضعه .

* * *

﴿وَأَنَا مِّنَ الْمُسْلِمِينَ وَمِنَ الْقَاسِطِينَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا
الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ .

القاسطون هم الجاثرون الظالمون ، والقسط بفتح القاف هو الجور
والظلم ، وهو ههنا يعني بالقاسطين الكافرين ، بدليل مقابلتهم بالمسلمين .
وأما سبب اختيار القاسطين على الكافرين مع أن ليس كل جائر كافراً
فذلك لأكثر من سبب والله أعلم .

منها أن فيها بيان عظم جرم القاسطين ، فكأن القاسطين ليسوا
بمسلمين ، فذكر عقوبتهم ولم يذكر جزاء المسلمين .

ومنها أنه مناسب لما ذكرنا من أن السورة مبنية على أجزاء من المقابلة
وعلى ما يتضمن المذكور ، فذكر القاسطين وهم يتضمنون الكافرين ،
وقد قال ربنا: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤] .

ثم إن ما ذكر في السورة من معاصي وأوصاف وذنوب إنما هي من باب
المظالم .

فقد قال تعالى : ﴿ وَأَنْتُمْ كَانَتْ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ وهذا ظلم ، فإن المنتظر أن يكون جزاء الاستعاذة هو العون وليس زيادة الرهق .

وقال : ﴿ وَأَنْتُمْ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ وهذا ظلم للرسول ، فقد اجتمعوا لإيذائه بسبب عبادته لله وهو لم يسيئ إليهم . حتى إنه لم يقل (يدعوهم إليه) وإنما قال : (يدعوه) أي يعبد ، وهذا من أكبر الظلم .

وقال : ﴿ وَأَنْتُمْ كَأَنَّ يَقُولُ سَفِينَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴾ وهذا اعتداء في القول على الله . فأنت إذا قلت على أحد شططاً فقد ظلمته . ومن ذلك قوله : ﴿ وَأَنَا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نَقُولَ الْإِنسَ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ .

وأنت إذا كذبت على أحد فقد ظلمته . ومن أكبر الظلم أن تقول على الله الكذب ، وقد قال ربنا : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ [الأنعام : ١٤٤] ثم إن هذه الآية مناسبة لما قبلها وهو قوله : ﴿ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴾ .

والبخس ظلم ، والرهق ظلم .

فناسب ذكر القاسطين من كل وجه .

وفي الآية تحذير عظيم لكل قاسط بأنه سيكون حطباً لجهنم ولو كان مسلماً ، فإنه بنى العذاب والجزاء على صفة القسّط وليس على صفة الكفر . فكل جائر سيكون حطباً لجهنم على قدر ما اتصف به من هذه الصفة .

* * *

﴿ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴾ .

اختار صفة تحري الرشد من صفات المسلم مناسبة لما ورد في السورة من ذكر الرشد.

فإن الجن قالوا عندما سمعوا القرآن: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ ١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ ﴿ فهم تحروا الرشد وآمنوا به .

وقد تردد ذكر الرشد في السورة في مواطن عدة .

فناسب ذلك ذكر تحري الرشد في الآية .

وذكر عذاب القاسطين دون جزاء المسلمين ، وإنما قال في المسلمين : ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾ ولم يذكر جزاءهم . وهذا مناسب لما ورد في السورة من تردد العذاب . فقد قال ههنا : ﴿فَكَانُوا لِحَظَّتِهِمْ حَطْبًا﴾ ، وقال : ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ ، وقال : ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا﴾ كما ناسب عدم ذكر جزاء المسلمين في الآية جو السورة ، فإنه لم يذكر فيها جزاء المسلمين .

فعدم ذكر جزاء المسلمين مناسب لجو السورة .

وذكر جزاء القاسطين مناسب لجو السورة .

وهو تناظر لطيف .

* * *

﴿وَأَلَوْ اسْتَقَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً عَذَقًا﴾ ١٦ لَنَفْنَمُ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ۖ ﴿ .

أي : لو أنهم استقاموا على الهدى لوسّع عليهم الرزق . وذكر الماء الغدق وهو الكثير : «لأنه أصل المعاش وسعة الرزق» (١) .

(١) الكشاف ٢٧٧/٣ ، وانظر البحر المحيط ٣٥٢/٨ .

وهذا كقوله تعالى في السورة قبلها: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبْنِي وَجَعَلَ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح: ١٠ - ١٢] وكقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْبَةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ ، وكقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَّقَوْا لَفَنَحْنَا عَلَيْهِمْ بِبَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ ^(١).

وقيل: المعنى أنهم: «لو استقاموا على طريقة الضلال لأوسعنا عليهم الرزق استدراجاً كما في قوله: ﴿فَلَمَّا دَسَوْا مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤] ، وكقوله: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنَ ۝٥٥ سَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥ - ٥٦]» ^(٢).

وبيعده استعمال الاستقامة للاستقامة على الضلال ، ولم يرد في القرآن ذلك ، فإنه لا يستعمل الاستقامة إلا على الخير والهدى .

ومعنى (لنفتنهم فيه): «لنختبرهم فيه كيف يشكرون ما خولوا منه» ^(٣) .
وأسند الإسقاء والفتنة إليه ليدل على أن المنعم والمختبر واحد .

قد يقال: لماذا قال: ﴿وَأَلَوْ اسْتَقَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ﴾ فحذف الضمير ولم يقل: (وأنهم لو استقاموا على الطريقة) أو (ولو أنهم استقاموا على الطريقة) كما قال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْبَةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [المائدة: ٦٦] .

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٤٣١ .

(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ٢٣١ .

(٣) الكشاف ٣/ ٢٧٧ ، وانظر البحر المحيط ٨/ ٣٥٢ .

والجواب أنه لو قال: (وأنهم لو استقاموا على الطريقة) أو (ولو أنهم استقاموا) لربما أفهم أن ذلك مختص بهم لا يتعداهم الحكم إلى غيرهم فذكر ضميرهم ، في حين أن هذا الحكم عام لكل من يستقيم على الطريقة . أما قوله: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴾ فهذا خاص باليهود والنصارى ، فإن التوراة أنزلت إلى بني إسرائيل خاصة ، وكذلك الإنجيل ، ثم إنهما نسخا فلا ينطبق الأمر على من جاء بعد النسخ ، في حين أن الحكم الذي ذكره في آية الجن عام إلى قيام الساعة ، فكان عدم ذكر الضمير الخاص بهم أولى .

﴿ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ ﴾ أي «عن عبادته أو عن موعظته أو عن وحيه»^(١) . وأكثر ما استعمل الإعراض في القرآن إذا عُدِّي بعن في الإعراض عن الذكر أو الآيات إذا لم يقصد الإعراض عن الأشخاص . قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا ﴾ [الكهف: ٥٧] .

وقال: ﴿ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ۖ مَنِ اعْرِضْ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا ﴾ [طه: ٩٩ - ١٠٠] .

وقال: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ﴾ [طه: ١٢٤] .

وقال: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا ﴾ [السجدة: ٢٢] .

وقال: ﴿ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴾ [الجن: ١٧] .

وجعل عاقبة الإعراض عن الذكر والوعيد على ذلك أشد من الإعراض عن الآيات .

قال تعالى في الإعراض عن الآيات: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ

(١) الكشاف ٣/ ٢٧٧ ، وانظر روح المعاني ٢٩/ ٩٠ .

فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ [الكهف: ٥٧].

وقال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْفِقُونَ﴾ [السجدة: ٢٢].

ولم يذكر شيئاً عن هذا الانتقام.

في حين قال: ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَلِيدٍ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُفْعُخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه: ٩٩-١٠٢].

وقال: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ﴿١٢٩﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٣٠﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾ [طه: ١٢٤-١٢٦].

وقال: ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ [الجن: ١٧].

ذلك أن الآيات جزء من الذكر ، فتوعده على الإعراض عن الذكر بما هو أشد .

ومعنى: ﴿يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ أي يدخله فيه ، والصَّعَد مصدر (صعد): «فوصف به العذاب ؛ لأنه يتصعده العذاب ، أي يعلوه ويغلبه فلا يطيقه»^(١).

وقد وصف العذاب بالمصدر للمبالغة في غشيان العذاب لهم .

وقيل: صَعَد هو صخرة ملساء في جهنم يكلف صعودها ، فإذا انتهى إلى أعلاها حذر إلى جهنم^(٢).

(١) الكشف ٣/ ٢٧٧ ، وانظر البحر المحيط ٨/ ٣٥٢ .

(٢) البحر المحيط ٨/ ٣٥٢ ، فتح القدير ٥/ ٣٠٠ .

وهو تناظر طريف مع محاولة صعود الجن إلى السماء للاستماع ، حتى إذا حاولوا الاستماع رجموا بالشهب .

وجاء بفعل الإعراض في الآية مضارعاً ، أي (يعرض) دون (أعرض) للدلالة على تجدد الإعراض وتكراره ، ولذا كان الوعيد أشد مما ذكر فيه الفعل الماضي ، فإنه لم يذكر هذا النوع من العذاب إلا مع الفعل المضارع . أما مع الفعل الماضي فقد ذكر تهديداً أو وعيداً أخف من عذاب تكرر الإعراض كما هو ظاهر من الآيات .

ومن الطريف أن نذكر أن القرآن لم يستعمل الفعل (سلك) في الآخرة إلا في النار ، ولم يستعمله في الجنة . قال تعالى : ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ﴾ [المدثر : ٤٢] .

وقال : ﴿ يَسْأَلُهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴾ [الجن : ١٧] .

وقال : ﴿ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴾ [الحاقة : ٣٢] .

* * *

﴿ وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ .

مناسبة الآية لما قبلها ظاهرة ، فإنه قال قبل هذه الآية : ﴿ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴾ .

والمساجد إنما هي دور للذكر والصلاة . قال تعالى : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ (٣٦) رِجَالٌ لَا لُتْهِمِهِمْ تَحْرَجُهُ وَلَا يَبِيعُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ ﴾ [النور : ٣٦ - ٣٧] .

وقال : ﴿ وَمَسْجِدٌ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾ [الحج : ٤٠] .

والصلاة يشيع فيها الذكر ، قال تعالى : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾

[طه : ١٤] .

وقال: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

فالمساجد هي دور الذكر والعبادة.

ومعنى ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ ^(١) لا تعبدوا مع الله أحداً ولا تشركوا به شيئاً.

إنه لم يقل: (فلا تدعوا فيها مع الله أحداً) فيكون النهي عن ذلك في المساجد خاصة دون غيرها من الأماكن ، بل منع ذلك على الإطلاق فقال: ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ على الإطلاق ، في المساجد وغيرها.

* * *

﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾.

ومناسبة هذه الآية لما قبلها ظاهرة ، فإنه لما قال: ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ دل ذلك على أنه استجاب لله فقام يدعوه ويعبده ، فازدحموا عليه وتجمعوا وأطبقوا على عداوته وتلبد بعضهم على بعض ، أي اجتمع بعضهم على بعض لمحاربتة ، وهذا من أكبر الظلم ؛ لأنه قام بعبادة الله ودعوته ولم يؤذهم ولم يحاربهم . واختيار (عبد الله) أنسب شيء ههنا ، فلم يقل: الرسول أو النبي مما ينكره القوم ، وإنما قال: (عبد الله) وكلهم عبد الله شأؤوا أم أبوا ، وكلهم يقر بأنه عبد الله ، فلماذا ينكر على عبد الله أن يعبد الله؟ .

و(عبد الله) إذا قاله الإنسان عن نفسه فهو تواضع وتذلل بحق وصدق .

وإذا قاله الله عن شخص فإنه تكريم له . جاء في (الكشاف): «(عبد الله) النبي ﷺ . فإن قلت: هلا قيل: رسول الله أو النبي؟ .

(١) ينظر روح المعاني ٢٩/٩٢ .

قلت : لأن تقديره : وأوحى إلي أنه لما قام عبد الله ، فلما كان واقعاً في كلام رسول الله ﷺ عن نفسه جيء به على ما يقتضيه التواضع والتذلل .
أو لأن المعنى أن عبادة عبد الله لله ليس بأمر مستبعد عن العقل ولا مستنكر حتى يكونوا عليه لبداءً .

ومعنى قام يدعوه : قام يعبدّه» (١) .

وقوله : ﴿ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ أي «كاد المشركون لتظاهرهم عليه وتعاونهم على عداوته يزدحمون عليه متراكمين (لبداً) جمع لبدة ، وهو ما تلبد بعضه على بعضه» (٢) .

«وما أحسن التقابل بين قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ ﴾ وبين هذا القول ، كأنهم نهوا كلهم عن الإشراف ودُعوا إلى التوحيد ، فقابلوا ذلك بعداوة من يوحد الله سبحانه ويدعوه ولم يرضوا بالإباء وحده» (٣) .

* * *

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أَشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴾ .

وهذا أمر بالتبليغ عن نفسه ، فالآية السابقة تطبيق واستجابة ، فإنه قام يدعوه .

وهذه إشهار وإعلان بالقول عن معتقده وفعله .

فاقترب القول بالعمل .

وأمره ربه أن يقول لهؤلاء القوم المجتمعين عليه : أنا لا أعبد إلا الله

(١) الكشاف ٢٧٧/٣ .

(٢) الكشاف ٢٧٧/٣ .

(٣) روح المعاني ٩٢/٢٩ - ٩٣ .

ولم أفعل شيئاً يوجب إنكاركم عليّ ، فلماذا تجتمعون عليّ وتطبقون عليّ معاداتي ومحاربتني ؟ .

جاء في (الكشاف) : ﴿ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي ﴾ يريد : ما أتيتكم بأمر منكر ، إنما أعبد ربي وحده ﴿ وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴾ وليس ذاك مما يوجب إطباقكم عليّ مقتي وعداوتي^(١) .

واختيار (الرب) أنسب شيء في هذا السياق ، فإن العبد إذا حزبه أمر أو احتاج إلى شيء دعا ربه ولا يدعو أحداً سواه ، فربه هو مالكة وسيده .

* * *

﴿ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴾ .

قيل : إن معنى الرشد هنا هو النفع ، أو إن معنى الضر هنا هو الغي^(٢) . وذلك ليتقابل اللفظان ، فإن مقابل الضر النفع ، ومقابل الرشد الغي . وقيل : يجوز أن يكون المراد : لا أملك لكم ضرّاً ولا نفعاً ولا رشداً ولا غيّاً ، فاكتمى بمقابل كل من المعنيين . جاء في (روح المعاني) : «جوز أن يكون في الآية احتباك ، والأصل : لا أملك لكم ضرّاً ولا نفعاً ولا غيّاً ولا رشداً ، فترك من كلا المتقابلين ما ذكر في الآخر»^(٣) .

وقد ذكرنا في أول الكلام على السورة أن الأمور فيها لم تبين على الشيء ومقابله ، وإنما يذكر الأمر ويقابله بما يتضمنه أو يتضمن جزءاً منه ، والرشد مما يتضمنه النفع .

(١) الكشاف ٢٧٨/٣ .

(٢) انظر الكشاف ٢٧٨/٣ .

(٣) روح المعاني ٩٣/٢٩ .

ولو نظرنا في السورة لوجدنا أن الضر شائع فيها وليس النفع ، وأن الرشد ظاهر التردد فيها .

ومن مظاهر الضر المذكورة في السورة أنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً ، وهذا ضر وليس نفعاً .

وقال : ﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أُرِيدَ يَمَنَ فِي الْأَرْضِ ﴾ وهذا ضر وليس نفعاً .

وذكر البخس والرهق ، وكلاهما ضر وليس نفعاً .

وذكر القاسطين ، وهم يضرون غيرهم ويجورون عليهم .

وذكر أنه لما قام عبد الله يدعوه اجتمعوا على عداوته والإضرار به .

وقال : ﴿ قُلْ إِنِّي لَنْ يُخْرِجَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ ﴾ أي إن أراد بي ضرراً فلن ينجينني منه أحد .

وقال : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ ﴾ وهي تهديد لهم وتوعد ، ولا شك أن ذلك إضرار بهم وليس نفعاً .

وأما الرشد فهو شائع في السورة ، بل هي أكثر سورة في القرآن ذكر فيها الرشد .

فناسب ذكر الضرّ والرشد وليس النفع والغيّ .

وقدم الضرّ على الرشد ؛ لأن تحقيقه أيسر من الرشد والهداية بالنسبة إلى قدرة الإنسان ، وأنه المناسب لما فعلوه به وأطبقوا على الإضرار به وعداوته ، فلا يملك ضرهم كما فعلوا به .

ولما كان هو عبداً لله فإنه لا يملك لأحد ضرّاً ولا رشداً ، وإنما يملك ذلك سيده ومولاه .

﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحِجًا﴾ (٢٢) إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا ﴿٢٣﴾

ومن يجير العبد من سيده؟ فإذا كان عبداً لله فلن يجيره من الله أحد ولن يجد ملجأ غيره ، فإن العبد ليس له ملجأ إلا سيده ، والملتحذ هو الملجأ .

فنفي المجير والملتحذ غير الله .

فإن العبد إذا أبق من سيده فلا بد أن يستجير بأحد ليمنعه من صاحبه ، فإن لم يجد أحداً فلا بد أن يلتجئ إلى مكان يأوي إليه ، وقد نفى المجير له والملجأ غير الله .

وهذا ينطبق عليه وعلى الخلق أجمعين ، فإنهم كلهم عباد الله ، فعليهم ألا يدعوا غيره وألا يشركوا به أحداً ؛ لأنه سيدهم ومولاهم ، وإنهم كلهم لا يملكون لأحد ضرراً ولا رشداً ، وإنما يملك ذلك مولاهم وسيدهم ، وإنهم كلهم لن يجيرهم من الله أحد الذين هم عباد له . ولن يجدوا من دونه ملجأ .

فناسب كلمة (عبد) هذه المعاني أحسن مناسبة وانطبق ذلك على الخلق أجمعين .

﴿إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ﴾ .

يحتمل أن يكون قوله : ﴿إِلَّا بَلَاغًا﴾ استثناء من قوله : (لا أملك لكم ضرراً ولا رشداً إلا بلاغاً من الله) أي : لا يملك إلا البلاغ الكائن من الله ولا يملك غيره ، فهو لا يملك أن يضركم ولا أن يهديكم ، بل لا يملك إلا البلاغ .

ولا يملك إلا الرسائل التي أرسل بها إليكم فيبلغها لكم ، فيكون

(رسالاته) عطفاً على البلاغ ، وما بين ذلك اعتراض .

ويحتمل أن يكون قوله : ﴿ إِلَّا بَلَّغَا مِنْ اللَّهِ ﴾ بدلاً من (ملتحدًا) أي : لن أجد من دونه منجى إلا أن أبلغ عنه ما أرسلني به .

ويحتمل أن تكون الرسالات عطفاً على الله ، أي لا أجد ملتجئاً إلا التبليغ عن الله وعن رسالاته^(١) .

جاء في (الكشاف) : ﴿ إِلَّا بَلَّغَا ﴾ : استثناء منه ، أي : لا أملك إلا بلاغاً من الله ، و ﴿ قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي ﴾ جملة معترضة اعترض بها لتأكيد نفي الاستطاعة عن نفسه وبيان عجزه ، على معنى أن الله إن أراد به سوءاً من مرض أو موت أو غيرهما لم يصح أن يجيره منه أحد أو يجد من دونه ملاذاً يأوي إليه .

والملتحد : الملتجئ ، وأصله المدخل ، من اللحد . . .

وقيل : بلاغاً بدل من (ملتحدًا) أي : لن أجد من دونه منجى إلا أن أبلغ عنه ما أرسلني به . . .

(ورسالاته) عطف على (بلاغاً) كأنه قيل : لا أملك إلا التبليغ والرسالات .

والمعنى : إلا أن أبلغ عن الله فأقول : قال الله كذا ، ناسباً لقوله إليه ، وأن أبلغ رسالاته التي أرسلني بها من غير زيادة ولا نقصان^(٢) .

فإن قلت : أليس الأولى أن يقال إذا أراد المعنى الأول : (قل إنني لا أملك لكم ضرراً ولا رشداً إلا بلاغاً من الله ورسالاته . قل إنني لن يجيرني من الله أحد ، ولن أجد من دونه ملتحدًا)؟

قلت : التعبير القرآني فيه توسع في المعنى ، وهو يشمل المعنيين :

(١) انظر البحر المحيط ٨/ ٣٥٤ .

(٢) الكشاف ٣/ ٢٧٨ .

المعنى الأول: قل إني لا أملك لكم ضرراً ولا رشداً إلا بلاغاً من الله ورسالاته .

والمعنى الآخر: ولن أجد من دونه ملتحداً إلا بلاغاً من الله ورسالاته .

والمعنيان مرادان . فهو لا يملك إلا البلاغ ، وليس له ملتجأ إلا البلاغ .

والمعنى الأول يدل عليه قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَعُ ﴾ [الشورى : ٤٨] .

والمعنى الآخر يدل عليه قوله : ﴿ يَتَأْتِيَهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ [المائدة : ٦٧] .

وقد ذهب بعضهم في قوله تعالى : ﴿ وَأَنْزِلْ مَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ يَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴾ [الكهف : ٢٧] إلى أنه : «إنك إن لم تتبع القرآن وتتله وتعمل بأحكامه لن تجد معدلاً تعدل إليه ومكاناً تميل إليه»^(١) .

وهو قريب من هذا المعنى ، فجمع هذا التعبير هذين المعنيين الجليلين .

* * *

﴿ وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا ﴾ .

قال ههنا : ﴿ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا ﴾ بالجمع .

وقال في سورة النساء : ﴿ وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ [النساء : ١٤] .

(١) فتح القدير ٢٧١/٣ .

بالإفراد ، فما السبب ؟ .

والجواب : أن الوعيد بالعذاب في آية النساء أشد ؛ وذلك لأنه عذاب بالنار وبالوحدة . والوحدة في حد ذاتها عذاب ولو كانت في الجنة . ولذا لا تجد في القرآن ذكر (خالدًا) بالإفراد في أصحاب الجنة ، بل لا يذكر ذلك إلا في صورة الجمع (خالدين) للزيادة في النعيم بالاجتماع المستلزم للأنس .

وأما سبب زيادة العذاب في آية النساء فلأنه زاد على معصية الله ورسوله تعدي الحدود . ولم يذكر ذلك في آية سورة الجن ، فاستلزم ذلك زيادة العذاب ، وزاد على ذلك أيضاً قوله : ﴿ وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ .

ومما حسن الجمع في آية الجن ذكر اجتماع الكفرة على رسوله في قوله : ﴿ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ فذكر أن لهؤلاء وأمثالهم نار جهنم خالدين فيها أبداً .

ومما حسن الأفراد في آية النساء أيضاً أنهم أقل من المذكورين في آية الجن ؛ وذلك لأنهم عصوا الله ورسوله وتعدوا حدوده ، فكانوا أقل من الذين عصوا الله ورسوله ولم يذكر أنهم يتعدون حدوده . فإن أولئك أعم وأكثر ، فازدادوا تخصيصاً .

فاستعمل الأفراد للقلة النسبية أيضاً إضافة إلى ما ذكرنا .

فحسن الأفراد من كل وجه في آية النساء ، والجمع في آية الجن ، والله أعلم .

* * *

﴿ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضَعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴾ .

إن قوله : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ ﴾ يحتمل ما يوعدون من إظهار النصر عليهم ، كما يحتمل أن يراد به يوم القيامة .

وهذه الآية مرتبطة بقوله: ﴿وَأَنْتُمْ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ فإنهم استضعفوه ورأوا قلة أتباعه فاجتمعوا عليه . فتوعدهم بأنه إذا جاء وعد الله من نصره عليهم فسيعلمون من أضعف ناصراً وأقل عدداً . وهو تهديد وتوعد لهم .

ومرتبطة أيضاً بقوله: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا﴾ .

فهو وعيد لهم على ما يفعلون في الدنيا والآخرة . جاء في (الكشاف): «فإن قلت: بم تعلق (حتى) وجعل ما بعده غاية له؟ .

قلت: بقوله: ﴿يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ على أنهم يتظاهرون عليه بالعداوة ويستضعفون أنصاره ويستقلون عددهم .

حتى إذا رأوا ما يوعدون من يوم بدر وإظهار الله له عليهم ، أو من يوم القيامة فسيعلمون حينئذ أنهم أضعف ناصراً وأقل عدداً .

ويجوز أن يتعلق بمحذوف دلت عليه الحال: من استضعاف الكفار له واستقلالهم لعدده ، كأنه قال: لا يزالون على ما هم عليه حتى إذا رأوا ما يوعدون»^(١) .

قد تقول: لقد قال في سورة مريم: ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا﴾ [٧٥] .

ففضل في رؤية ما يوعدون بقوله: ﴿إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ﴾ وأجمل في آية الجن .

واختلف المعلوم فيهما ، فقد قال في آية الجن: ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أضعف ناصراً وأقل عدداً﴾ .

وقال في مريم: ﴿ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرُّ مَكَانًا وَأَضَعْفُ جُنْدًا ﴾ .

فما سبب ذلك ؟ .

فنقول : أما التفصيل في مريم أو الإجمال فله سببه ،

فإنه فصل في مريم ؛ لأنه تقدم الآية ذكر العذاب وذكر الساعة . فقد قال قبل هذه الآية : ﴿ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَهَذَا مَا مِثٌّ لِسَوْفَ أَخْرَجَ حَيًّا ۖ أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْتُهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ۖ ﴿٦٧﴾ فَوَرَّيْكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ۖ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عَيْنًا ۖ ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ۖ ﴿٧٠﴾ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ۖ ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنْجِي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ [مريم : ٦٦ - ٧٢] .

وقال بعدها : ﴿ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ۖ ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُمَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴾ [مريم : ٧٩ - ٨٠] .

في حين لم يذكر في سورة الجن في ذلك إلا قوله : ﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا ﴾ وهي جزء من آية .

فناسب التفصيل التفصيل والإجمال الإجمال .

ويحتمل أن يكون المراد بقوله ﴿ إِمَّا الْعَذَابَ ﴾ العذاب الدنيوي بغلبة المؤمنين واستيلائهم عليهم ^(١) .

فيكون ذكره مناسباً لما تقدم الآية من قوله : ﴿ وَكَذَّبْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرِيًّا ﴾ [مريم : ٧٤] .

ومناسباً لما ختمت به السورة وهو قوله : ﴿ وَكَذَّبْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ يُحِشُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾ [مريم : ٩٨] .

(١) انظر روح المعاني ١٦ / ١٢٧ .

فيكون التفصيل بذكر العذاب والساعة مناسباً من كل وجه في آية مريم دون آية الجن .

وأما اختلاف المذكورين في العلم فكلّ مناسب لما ذكره في موطنه .
أما في سورة الجن فقد ختم الآية بقوله : ﴿ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضَعَفَ نَاصِرًا وَأَقْلَّ عَدَدًا ﴾ ذلك أنه كان فرداً وأنصاره قليلون مستضعفون ، كما قال تعالى : ﴿ وَادْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ [الأنفال : ٢٦] .
فهو مناسب لقوله : ﴿ وَأَنْتُمْ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ ففعلوا ذلك لأنهم قليلون مستضعفون كما هو ظاهر فقال : ﴿ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضَعَفَ نَاصِرًا وَأَقْلَّ عَدَدًا ﴾ .

وأما قوله في مريم : ﴿ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَعَفُ جُنْدًا ﴾ فهو المناسب في سياقه .

فقوله : ﴿ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا ﴾ مناسب لما تقدمه من قوله : ﴿ وَإِذَا نُتِلَىٰ عَلَيْهِمُ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ شَرٌّ مَقَامًا وَخَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴾ [مريم : ٧٣] .

فقابل قولهم : ﴿ خَيْرٌ مَقَامًا ﴾ بقوله : ﴿ شَرٌّ مَكَانًا ﴾ .

وقابل قولهم : ﴿ وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴾ بقوله : ﴿ وَأَضَعَفُ جُنْدًا ﴾ ، أي مناسب توعدهم بالعذاب والنصر عليهم بقوله : ﴿ وَأَضَعَفُ جُنْدًا ﴾ .

و﴿ خَيْرٌ مَقَامًا ﴾ «أي مكاناً ومنزلاً . وأصله موضع القيام ، ثم استعمل لمطلق القيام» ^(١) .

جاء في (الكشاف) : «﴿ حَقَّ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ ﴾ ، أي لا يبرحون يقولون هذا القول . . . إلى أن يشاهدوا الموعود رأي عين (إما العذاب) في الدنيا ، وهو غلبة المسلمين عليهم وتعذيبهم إياهم قتلاً وأسرّاً وإظهار الله

(١) روح المعاني ١٦/ ١٢٥ .

دينه على الدين كله على أيديهم ، وإما يوم القيامة وهو ما ينالهم من الخزي والنكال ، فحينئذ يعلمون عند المعاينة أن الأمر على عكس ما قدروه ، وأنهم شر مكاناً وأضعف جنداً ، لا خير مقاماً وأحسن ندياً ، وأن المؤمنين على خلاف صفتهم . . .

فإن قلت : (حتى) هذه ما هي؟ .

قلت : هي التي تحكى بعدها الجمل ، ألا ترى الجملة الشرطية واقعة بعدها وهي قوله : ﴿ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا أَلْعَدَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا ﴾ [مريم : ٧٥] في مقابلة : ﴿ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴾ ؛ لأن مقامهم هو مكانهم ومسكنهم ، والندي : المجلس الجامع لوجوه قومهم وأعوانهم وأنصارهم . والجند : هم الأنصار والأعوان^(١) .

وجاء في (البحر المحيط) : «وقابل قولهم : ﴿ خَيْرٌ مَّقَامًا ﴾ بقوله : ﴿ شَرٌّ مَّكَانًا ﴾ ، وقولهم : ﴿ وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴾ بقوله : ﴿ وَأَضْعَفُ جُنْدًا ﴾ ؛ لأن الندي هو المجلس الجامع لوجوه القوم والأعوان والأنصار ، والجند هم الأعوان والأنصار»^(٢) .

وجاء في (روح المعاني) : «والمراد : حتى إذا عاينوا ما يوعدون من العذاب الدنيوي أو الآخروي فقط فسيعلمون حينئذ ﴿ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا ﴾ من الفريقين ، بأن يشاهدوا الأمر على عكس ما كانوا يقدرونه ، فيعلمون أنهم شر مكاناً لا خير مقاماً .

وفي التعبير بالمكان هنا دون المقام المعبر به هناك مبالغة في إظهار سوء حالهم .

(١) الكشف ٢/ ٢٨٩ .

(٢) البحر المحيط ٦/ ٢١٢ .

﴿وَأَضَعُ جُنْدًا﴾ أي فئة وأنصاراً ، لا أحسن ندياً . ووجه التقابل أن حسن الندى باجتماع وجوه القوم وأعيانهم وظهور شوكتهم واستظهارهم^(١) .

ولما فصل في مريم في أحوالهم وقولهم ما قالوا في الفريقين ، وفصل في ذكر رؤية ما يوعدون ناسب ذلك ذكر (هو) فقال : ﴿مَنْ هُوَ شَرُّ مَكَانًا﴾ .
ولما أوجز وأجمل في سورة الجن لم يذكر ذلك ، وإنما قال : ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضَعُ نَاصِرًا﴾ ولم يقل (من هو) .

* * *

﴿قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقْرَبُ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لِمُرِّيَّ أَمَدًا﴾ .

لم يقابل قوله : (قريب) بالبعيد ، وإنما قابله بالأمد . والأمد هو الغاية ، وهو يكون قريباً وبعيداً .

وهو الخط الجاري في السورة كما ذكرنا .

جاء في (الكشاف) : «فإن قلت : ما معنى قوله : ﴿أَمْ يَجْعَلُ لِمُرِّيَّ أَمَدًا﴾ والأمد يكون قريباً وبعيداً ، ألا ترى إلى قوله : ﴿تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ ؟» .

قلت : كان رسول الله ﷺ يستقرب الموعد ، فكأنه قال : ما أدري أهو حال متوقع في كل ساعة أو مؤجل ضربت له غاية ؟»^(٢) .

قد تقول : لقد قال سبحانه في سورة الأنبياء : ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدُ مَا تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء : ١٠٩] .

فقابل القريب بالبعيد فما الفرق ؟ .

(١) روح المعاني ١٦/ ١٢٧ .

(٢) الكشاف ٣/ ٢٧٩ .

والجواب أن من الوعد ما هو ظاهر القصد في سياق آيات الأنبياء ، وهو يتعلق بالآخرة والأحداث التي تسبقها .

فقد ذكر يأجوج ومأجوج عند اقتراب الوعد الحق ، فقال : ﴿ حَقَّ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِّنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴾ [٩٦] وَأَقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴿ [الأنبياء : ٩٦ - ٩٧] .

وذكر جملة وعود تتعلق بأحوال الآخرة في آيات عدة ، وكذلك نحوه قوله تعالى : ﴿ لَا يَخْزِيهِمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَلَقَّيْنَهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [١٠٣] ، وقوله : ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِ لِلْكِتَابِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ [١٠٤] .

وقال بعد ذلك : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ [١٠٥] .

وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن المقصود بالارض الأرض المقدسة يرثها أمة محمد ، وقيل : هي الجنة ، وقيل : أرض الدنيا يرثها المؤمنون ويستولون عليها وهي أمة محمد ، ويؤيده قوله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ [النور : ٥٥] ^(١) .

وقال بعد تلك الوعود : ﴿ وَإِن أَدْرِى لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَنَعُ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [الأنبياء : ١١١] .

وهذه كلها من الوعود ، ولا شك أنها ليست في القرب بمنزلة ما ذكر في سورة الجن من قوله : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضَعُفٌ نَّاصِرًا

(١) انظر البحر المحيط ٣٤٤/٦ ، روح المعاني ١٧/١٠٤ .

وَأَقْلُ عَدَدًا ﴿ من احتمال أن يكون المقصود من ذلك يوم بدر . فصرح
باحتمال البعد في الأنبياء ولم يصرح به في آية الجن . فإن الأمد يحتمل
القرب والبعد .

فكان كل تعبير في مكانه أنسب والله أعلم .

* * *

﴿ عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهَرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنْ أَرَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ
يَسْأَلُكَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴾ .

أي هو عالم الغيب ، وفي القرآن الكريم حيث أفرد الغيب جاء باسم
الفاعل (عالم) وحيث جمعه جاء بصيغة المبالغة (علام) فيقول (علام
الغيوب) وهو المناسب للتكثير في المبالغة .

ولما نفى درايته بما يوعدون أقرب هو أم لا نسب علم الغيب إلى الله
سبحانه . ومناسبة الآية لما قبلها ظاهرة .

وقال : ﴿ فَلَا يُظْهَرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنْ أَرَضَىٰ ﴾ ولم يقل : (فلا
يظهر عليه أحدًا) فلم يأت بالضمير العائد على الغيب ، وذلك - والله
أعلم - أن الغيب الثاني الذي أضافه إلى نفسه غير الأول .

فإنه عالم الغيب على الإطلاق ، وهناك من الغيوب ما يظهرها الله ربنا
بوسيلة من الوسائل كالإلهامات والرؤى الصادقة أو غيرها مما يعلمه ربنا .
وهناك غيب استأثر بعلمه ربنا فلا يظهره لأحد ، أو هو يظهر ما شاء
منه للمرتضين من رسله ، ولذا أضافه إلى نفسه واختص به .

إنه لا يعلم من في السماوات ومن في الأرض الغيب إلا الله ، وعنده
مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ولا يعلم أحد شيئاً منه إلا إذا أراد الله أن
يطلع ما شاء منه من يشاء من عباده .

والمرتضون من الرسل يجعل من بين أيديهم ومن خلفهم حَفَظَةٌ يحفظونهم من الشياطين فلا يختطف منهم شيء ولا يخلط بشيء من وساوسهم . جاء في (الكشاف): ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴾ : حَفَظَةٌ من الملائكة يحفظونه من الشياطين يطردونهم عنه ويعصمونه من وساوسهم وتخاليلهم حتى يبلغ ما أوحى به إليه ^(١) .

وقال: ﴿ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ﴾ ولم يقل (بين يديه وخلفه) ليكون الرصد بين الأيدي من غير فاصل ، ومن الخلف من غير فاصل ، فلا يقترب منهم أحد .

ولو قال: (بين يديه وخلفه) لاحتمل المسافة القريبة والبعيدة . وهذا أشد شيء في الحفظ .

* * *

﴿ لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَكَ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَخَصَّى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴾ .

قال: (ليعلم) وهو العالم بذلك قبل وقوعه ، يعني العلم الذي يتعلق به الجزاء وليس مطلق العلم ، وذلك كقوله تعالى: ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ﴾ [الحديد: ٢٥] ، وقوله: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ ﴾ [البقرة: ١٤٣] ، وقوله: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالضَّائِرِينَ ﴾ [محمد: ٣١] .

وهو ربنا أحاط بما لديهم ، يعلم كل شيء عندهم ، وهو ربنا أحصى كل شيء عدداً: «من القطر والرمل وورق الأشجار وزبد البحار ، فكيف لا يحيط بما عند الرسل من وحيه وكلامه» ^(٢) .

(١) الكشاف ٣/ ٢٧٩ .

(٢) الكشاف ٣/ ٢٧٩ .

قصة شعيب عليه السلام في سورتي الأعراف وهود

من سورة الأعراف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالِى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَنْفَوِرَ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ مَن يَصُدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ يَبْغِهَا عِجَابٌ وَإِذَا كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكُتِّرْكُمْ وَأَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَ عَقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِى أُرْسِلْتُ بِهِءَ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشُعَيْبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيِنَا أَوْ لَتَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أُولَئِكَ كَانُوا لَدِيهِ قَلِيلًا قَدْ أَفْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِن عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ بَخَّسْنَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِن أَتَبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا الْخَاسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمًا ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَعْنُوا فِيهَا الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٢﴾ فَنُودِيَ عَنْهُمْ وَقَالَ يَنْفَوِرَ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَتِي ربي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَامَسُوا

عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿[الأعراف: ٨٥-٩٣].

* * *

من سورة هود

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالْإِلَهِ إِلَهُكُمُ إِلَهُ هَؤُلَاءِ ۚ وَتَعْلَمُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ ﴾
 وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَبُّكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ
 يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَقَوْمِ أَتُوفُّوا بِالْمِكْيَالِ وَالْمِيزَانِ بِالْقِسْطِ ۚ وَلَا تَبْخَسُوا
 النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن
 كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا يَشْعَبُ أَصْلَوْتُمْ تَأْمُرُكَ أَنْ
 تَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ
 الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا
 أُرِيدُ أَنْ أَخْلِفَ لَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَيْتُكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي
 إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا
 أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَاسْتَغْفِرُوا
 رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا يَشْعَبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا
 تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرُّكَ فِيْنَا ضَعِيفًا وَلَوْ لَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ
 يَقَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِي إِنَّ رَبِّي بِمَا
 تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَقَوْمِ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ
 يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَاءَ
 أَمْرُنَا بِجَنَّتِنَا شُعَبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذْتُ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي
 دِئَرِهِمْ جَثَمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا إِلَّا بَعْدَ الْيَمِينِ كَمَا بَعَدَتْ نَمُودُ ﴿هود: ٨٤-٨٥﴾

[٩٥].

* * *

من الظاهر في القصة الواردة في سورتي الأعراف وهود أن فيهما مواطن تشابه ومواطن اختلاف في التعبير وفي المواقف تتناسب مع السياق الواردة فيه كل منهما .

ومن أبرز هذه المواطن ما يأتي :

أ - لقد قال في قصة الأعراف : ﴿ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ ﴾ [الأعراف : ٨٥] .

وقال في سورة هود : ﴿ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ﴾ [هود : ٨٥] .
(والكيل) على المشهور هو المصدر .

وأما (المكيال) فهو آلة الكيل . فالكيل هو الحدث ، والمكيال هو ما يكال به ، ومثله الوزن والميزان ، فهما مختلفان ، ولذا لا يصح وضع أحدهما مكان الآخر دوماً ، فلا يصح مثلاً في قوله تعالى في قصة يوسف : ﴿ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ ﴾ [يوسف : ٨٨] أن يقال : (فأوف لنا المكيال) ؛ لأن المعنى سيكون أن المكيال غير صحيح .

وكذلك في قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي ﴾ [يوسف : ٦٠] .

فإنه لا يصح أن يقال للمعنى نفسه : (فلا مكيال لكم عندي) كأنه ينكر أن يكون عنده مكيالهم .

فالمكيال - كما هو واضح - من الأموال ، أما الكيل فهو الحدث .
وبين ذلك قوله تعالى في قصة يوسف : ﴿ نَفَقْدُ صَوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ ﴾ [يوسف : ٧٢] والصواع هو مكيال كانوا يكيلون به .

أما سبب الاختلاف بين التعبيرين في قصة شعيب في السورتين فإن القصة في سورة هود يشيع فيها ذكر الأمور المالية أكثر مما في الأعراف ،

فمما ذكره في هود من ذلك ولم يذكره في الأعراف :

١ - قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْضُوا أَلْمِيزَاتِ ۖ وَالْمِيزَانُ ﴾ [هود : ٨٤] وهما من الأموال .

٢ - وقوله : ﴿ أَصْلَوْتُمْ أَنْ تَأْمُرَكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا دَشَتُوا ﴾ [هود ٨٧] فذكر الأموال .

٣ - ثم ذكر الرزق الحسن فقال : ﴿ وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴾ [هود : ٨٨] وهو أنسب بالأموال .

ولم يذكر مثل ذلك في الأعراف .

فلما كانت القصة في سورة هود شائعاً فيها ذكر المال ناسب ذكر المكيال ؛ لأنه من الأموال .

أما القصة في الأعراف فيشيع فيها أمور الاعتقاد ومحاربة الفساد وموقف قومه من ذلك .

فما قاله في الأعراف ولم يذكره في هود :

١ - قوله : ﴿ قَدْ جَاءَ تَكُمْ بَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [الأعراف : ٨٥] .

٢ - وقوله : ﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ ﴾ [الأعراف : ٨٦] .

٣ - ﴿ وَتَصَدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنَءَامَنَ ﴾ [الأعراف : ٨٦] .

٤ - ﴿ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ [الأعراف : ٨٦] .

ولم يذكر مثل ذلك في هود .

فناسب ذكر المصدر (الكيل) في الأعراف .

هذا ومن المناسب أن نذكر أن جو كل قصة من القصتين مناسب لمفتتح سورتها .

فإن مفتتح سورة هود يتناسب مع الأموال ، فقد قال : ﴿ وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمِيعْكُمْ مِّنْعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ﴾ [هود: ٣] ، وقال : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ [هود: ٦] .

وإن مفتتح سورة الأعراف إنما هو في العقيدة والأمر المعنوية ، فقد قال تعالى : ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [٢] ﴿ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢ - ٣] .

ب - ومن الملاحظ أيضاً أن أغلب القصص المذكورة في هود فيها إشارات إلى الأمور المالية والمعاشية ، وليس الأمر كذلك في الأعراف .

فقد قال في قصة نوح في هود :

- ١ - ﴿ وَيَقُولُوا لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَّآ ﴾ [هود: ٢٩] .
 - ٢ - ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ﴾ [هود: ٢٩] .
 - ٣ - ﴿ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدَ خَزَائِنِ اللَّهِ ﴾ [هود: ٣١] .
 - ٤ - ﴿ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدِرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا ﴾ [هود: ٣١] .
- ولم يرد في الأعراف مثل ذلك .

وقال في قصة هود في سورة هود :

- ١ - ﴿ يَقُولُوا لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ [هود: ٥١] .
- ٢ - ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ [هود: ٥١] .
- ٣ - ﴿ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ ﴾ [هود: ٥٢] .

ولم يرد مثل ذلك في الأعراف .

وقال في قوم صالح: ﴿هُوَ أَشَقُّكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١].
فكان سياق قصة شعيب أنسب في السورة مع القصص التي وردت فيها.

ج - ذكر في الأعراف من صفات قوم شعيب السيئة أكثر وأشد مما ذكره في هود.

فقد قال في الأعراف:

١ - ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾.

٢ - ﴿وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ﴾.

٣ - ﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾.

ولم يقل مثل ذلك في هود.

٤ - وقال في الأعراف ذاكراً قول قوم شعيب: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعَبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيِنًا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨].

فتوعدوه بإخراجه من قريته مع من آمن معه إلا أن يعودوا في ملتهم ، وأقسموا على ذلك بقولهم: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعَبُ﴾ فجاء باللام الواقعة في جواب القسم مع نون التوكيد الثقيلة.

وأما في هود فقد قالوا: ﴿وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ [هود: ٩١].

فهم لم يتوعدوه بالرجم ، وإنما قالوا: إن الذي يمنعهم من رجمه وجود رهطه ، فإن (لولا) حرف امتناع لوجود. فهم لا يرمونه لوجود رهطه.

وأما في الأعراف فلم يمنع الذين استكبروا من إخراجه وجود رهطه.

٥ - دعا شعيب في الأعراف أن يفتح ربه بينه وبين قومه فقال: ﴿رَبَّنَا
 افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩].
 ولم يفعل مثل ذلك في هود.

٦ - وصف قومه في الأعراف بالكفر فقال: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ
 قَوْمِهِ﴾ [الأعراف: ٩٠].
 وقال أيضاً: ﴿فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٩٣].
 ووصفهم في هود بالظلم فقال: ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾ [هود:
 ٩٤].

والكفر أشد من الظلم ؛ إذ ليس كل ظالم كافراً.
 د - ذكر عقوبة مدين في كل من السورتين على النحو الآتي:
 ١ - قال في الأعراف: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ [الأعراف: ٩١].
 وقال في هود: ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾ [هود: ٩٤].
 والرجفة أشد من الصيحة ؛ لأن الرجفة هي الزلزلة ، وهو المناسب
 لعظم سيئاتهم.

٢ - وقال في الأعراف: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثْمِينَ﴾ [الأعراف: ٩١].
 وقال في هود: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثْمِينَ﴾ [هود: ٩٤].
 فأفرد الدار في الأعراف ، وجمعها في هود ؛ ذلك أن الصيحة يبلغ
 مداها أبعد من الرجفة ، فجمع الدار فقال: ديار^(١).
 ٣ - ثم إن كل عقوبة أنسب بسياقها من جهة أخرى ؛ ذلك أنه وصف
 القوم في الأعراف بالكفر ، ووصفهم في هود بالظلم كما ذكرنا.

(١) انظر البرهان ١٧٢.

والظلم أعم من الكفر ؛ لأن الظالم يكون كافراً وغير كافر . فإن كل كافر ظالم ، كما قال تعالى : ﴿ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٥٤] . وليس كل ظالم كافراً .

فلما كان الظلم أعم كان أنسب بذكر الديار التي هي أعم من الدار .

٤ - وصفهم بالخسران في الأعراف ، فقال : ﴿ الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٩٢] . ولم يصفهم بذلك في هود .

وهذا الوصف بالخسران مناسب لما ورد في القصة من قوله : ﴿ وَقَالَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِي لَئِنْ أَتَيْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ ﴾ [٩٠] . فقال سبحانه : ﴿ الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴾ [٩٢] بذكر ضمير الفصل وتعريف الخاسرين ، فحصر الخسران فيهم فجعلهم هم وحدهم الخاسرين دون غيرهم ، ولم يقل : (كانوا خاسرين) أو من الخاسرين .

٥ - قال في الأعراف : ﴿ الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٩٢] . وقال في هود : ﴿ كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴾ .

فزاد في الأعراف على قوله : ﴿ كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴾ .

٦ - ذكر في الأعراف على لسان نبيهم أنهم لا يستحقون أن يأسى عليهم ، فقال : ﴿ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٩٣] . فكانت العقوبة في الأعراف أشد ، وهو المناسب لسيئاتهم ومعاصيهم وكفرهم .



مراجع الكتاب

- ١ - الإتقان في علوم القرآن - للسيوطي ط ٣ / ١٣٧٠ هـ - ١٩٥١ م - شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر .
- ٢ - أنوار التنزيل للقاضي البضاوي - الطبعة العثمانية ١٣٠٥ هـ .
- ٣ - البحر المحيط لأبي حيان - ط ١ سنة ١٣٢٨ هـ - مطبعة السعادة بمصر .
- البحر المحيط لأبي حيان - تحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض - دار الكتب العلمية - بيروت ط ١ / ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م .
- ٤ - البرهان في علوم القرآن للزركشي - تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم - ط ١ / ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م - دار إحياء الكتب العربية .
- ٥ - البرهان في متشابه القرآن - محمود بن حمزة بن نصر الكرمانى ط ٢ / ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م دار الوفاء للطباعة والنشر - مصر - المنصورة .
- ٦ - تاج العروس شرح القاموس لمحمد مرتضى الزبيدي - منشورات مكتبة الحياة - بيروت ، تصوير على الطبعة الأولى بالمطبعة الخيرية بمصر سنة ١٣٠٦ هـ .

- ٧ - التحرير والتنوير - محمد الطاهر بن عاشور - دار سحنون للنشر والتوزيع - تونس .
- ٨ - التعبير القرآني - الدكتور فاضل صالح السامرائي - دار ابن كثير - دمشق - الطبعة الثانية ١٤٣٧ هـ - ٢٠١٦ م .
- ٩ - تفسير أبي السعود .
- ١٠ - تفسير الطبري .
- ١١ - تفسير القرطبي .
- ١٢ - التفسير القيم لابن القيم - جمع محمد أويس الندوي - مطبعة السنة المحمدية ١٣٨٦ هـ - ١٩٧٣ م .
- ١٣ - التفسير الكبير لفخر الدين الرازي - المطبعة البهية - مصر .
- ١٤ - تفسير ابن كثير - طبع بدار إحياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي وشركاه .
- ١٥ - حاشية المعرب - طبع مع كتاب المعرب للجواليقي للدكتور ف . عبد الرحيم - دار القلم - دمشق ط ١ / ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م .
- ١٦ - درة الغواص في أوهام الخواص لأبي محمد القاسم بن علي الحريري ، نشرته بالأوفست مكتبة المثنى ببغداد .
- ١٧ - ديوان الأدب لأبي إبراهيم إسحاق بن إبراهيم الفارابي - تحقيق دكتور أحمد مختار عمر - القاهرة ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م .
- ١٨ - روح المعاني في تفسير القرآن الكريم لشهاب الدين السيد محمود الألوسي - إدارة الطباعة المنيرية - دار إحياء التراث العربي .

- روح المعاني - دار الفكر للطباعة - بيروت - ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م .

١٩ - شرح الشافية لرضي الدين الإستراباذي - تحقيق محمد محيي الدين وجماعة - مطبعة حجازي بالقاهرة .

٢٠ - شرح الكافية لرضي الدين الإستراباذي - مطبعة الشركة الصحافية العثمانية سنة ١٣١٠هـ .

- شرح الرضي على الكافية - تحقيق يوسف حسن عمر .

٢١ - على طريق التفسير البياني - ج ١/ الدكتور فاضل صالح السامرائي - دار ابن كثير - دمشق - الطبعة الأولى ١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م .

٢٢ - فتح القدير للشوكاني ط ١ - مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر سنة ١٣٤٩هـ .

٢٣ - الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري - تحقيق عماد زكي الباردي - المكتبة التوفيقية .

٢٤ - القاموس المحيط لمجد الدين الفيروزآبادي ط ٥ شركة فن الطباعة - مصر .

٢٥ - كتاب سيبويه - مصور عن طبعة بولاق - مكتبة المثنى ببغداد .

٢٦ - الكشف عن حقائق التنزيل لجار الله الزمخشري - مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر - سنة ١٣٦٧هـ - ١٩٤٨م .

- الكشف تحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض - نشر مكتبة العبيكان - الرياض ط ١/ ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م .

٢٧ - كشف الطرة عن الغرة لأبي الثناء محمود بن عبد الله الألوسي -

مخطوطة بمكتبة الأوقاف ببغداد.

٢٨ - كشف المعاني في المتشابه من المثاني - بدر الدين بن جماعة - تحقيق د. عبد الجواد خلف - دار الوفاء ط ١ / ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م - مصر - المنصورة.

٢٩ - لسان العرب لابن منظور - مصور على طبعة بولاق.

٣٠ - لمسات بيانية في نصوص من التنزيل - الدكتور فاضل صالح السامرائي - دار ابن كثير - دمشق - الطبعة الأولى ١٤٣٦ هـ - ٢٠١٥ م.

٣١ - المصباح المنير للفيومي - المكتبة العلمية - بيروت.

٣٢ - معاني الأبنية في العربية - الدكتور فاضل صالح السامرائي - دار ابن كثير - دمشق - الطبعة الثانية ١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧ م.

٣٣ - معاني القرآن لأبي زكريا الفراء - مطبعة دار الكتب المصرية للتأليف والترجمة ١٣٧٤ هـ - ١٩٥٥ م.

٣٤ - معاني النحو - الدكتور فاضل صالح السامرائي - مطابع دار ابن كثير - دمشق - الطبعة الأولى ١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧ م.

٣٥ - المعرّب من الكلام الأعجمي لأبي منصور الجواليقي ، حقق كلماته الدكتور ف. عبد الرحيم - دار القلم - دمشق ط ١ / ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م.

٣٦ - المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني - طهران.

٣٧ - ملاك التأويل لأبي جعفر أحمد بن الزبير ، تحقيق الدكتور

محمود كامل أحمد - دار النهضة العربية للطباعة والنشر - بيروت ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.

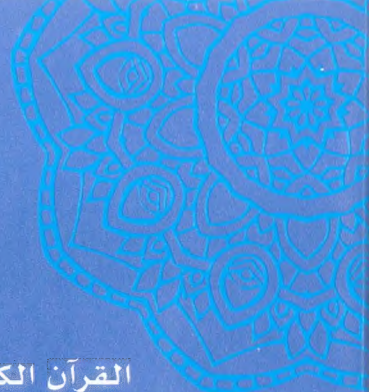
٣٨ - نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي .

٣٩ - همع الهوامع شرح جمع الجوامع لجلال الدين السيوطي ط ١/ ١٣٢٧ هـ - مطبعة السعادة بمصر .

* * *

- ٢ - أبنية الصفات ٢٧
- أثم - أثيم ٣٣
- تائب - تواب ٣٤
- خائن - خوَّان ٣٧
- سميع - سَمَّاع ٣٨
- شاكِر - شكور ٣٨
- ظلوم - ظلَّام ٣٩
- عالم - علیم - علاَّم ٤٠
- غافر - غفار - غفور ٤٢
- فاعل - فعَّال ٤٣
- كفَّار - كفور ٤٣
- في المفردات ٤٧
- أتى وجاء ٤٧
- البحر - الیم ٥٠
- الثعبان والحية ٥٣
- الجبل والطور ٥٤
- رجع - ردّ ٥٥
- الزوج - السيد ٦٥
- السنة - العام - الحجة ٦٦
- الغرف - الغرفات ٦٩

٧١	الكفل - النصيب
٧٢	المهد - المهاد
٨١	من خواص الاستعمال القرآني
٩٠	التوكيد
١٠٤	الذكر والحذف
١٣٢	التقديم والتأخير
١٦٠	التشابه والاختلاف
١٨٧	الفاصلة القرآنية
٢٠٧	تفسير آيات مختارة
٢٠٧	من سورتي البقرة والمائدة
٢١٨	من سورتي البقرة وإبراهيم
٢٢٥	آية الكرسي
٢٣٦	من سورة الإسراء
٢٤٦	من سورتي الكهف والإنسان
٢٤٩	من سورة النجم
٢٦٨	من سورة القمر
٢٩٣	سورة الجن
٣٤٩	قصة شعيب في سورتي الأعراف وهود
٣٥٧	مراجع الكتاب
٣٦٣	الفهرس



القرآن الكريم لا تنتهي أسرارُه ولا تنقضي عجائبه، وكل من
أمعن النظر وأعمل الفكر ازداد يقيناً بأنه تنزيل من حكيم حميد.

يبين هذا الكتاب طرفاً من الأبنية القرآنية فيتكلم على:

- أبنية المصادر: كالثواب والمثوبة، والحكم والمحكمة،
والرضوان والمرضاة، والشكر والمشكور، والعصيان والمعصية،
والغفران والمغفرة.

- أبنية الصفات: كالتائب والتواب، والخائن والخوان، والظلم
والظلام.

- أبنية المفردات: كأتى وجاء، ورجع وردّ، والمهد والمهاد.

ثم يبحث في خواص الاستعمالات القرآنية: كالتوكيد والذكر
والحذف والتقديم والتأخير، والتشابه والاختلاف.

ثم يتعرض للفاصلة القرآنية التي تعني الانسجام الموسيقي.
وأخيراً، فصول من تفسير آيات مختارة من البقرة والمائدة
والإسراء والكهف والإنسان والنجم والقمر، تبين هذا الجانب من
البيان القرآني العظيم ضمن أصول اللغة وضوابطها وقواعدها
المعروفة.

ISBN 978-614-415-197-6



9 786144 151976



www.ibn-katheer.com
info@ibn-katheer.com